العطاء الفكري للشيخ محمد الغزالي

(رحمه الله)

حلقة دراسية

وقائع الحلقة الدراسية المنعقدة في قاعة المركز الثقافي الإسلامي/ مسجد الشهيد الملك عبدالله بن الحسين، في عَمّان، يوم الخميس ٤ صفر١٤١٧هـ (٢٠ حزيران ١٩٩٦م)

المحرر

د. فتحي حسن ملكاوي

عمان: ربيع الثاني ١٤١٧هـ (آب ١٩٩٦م).



المجمع الملكي لبحوث الحضارة الإسلامية (مؤسسة آل البيت)
ص.ب ٩٥٠٣٦١ عمان ١١١٩٥ الأردن
هاتف ٨١٥٤٧١ فاكس ٨٢٦٤٧١

مجمع علمي للبحوث المتخصصة في مختلف ميادين المعارف والعلوم العربية والإسلامية، أنشئ في عمان عام ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م لتحقيق الأهداف الآتية:

* التعريف بالشريعة الإسلامية وتجلية جوانبها.
* إبراز تصور إسلامي معاصر وموحد لقيم المجتمع ونظمه واستشراف المستقبل وارتياد آفاقه.
* إبراز العطاء الإسلامي العلمي والحضاري وأثره في التقدم العالمي والحضارة الإنسانية.
* توضيح المنهج العلمي للعلوم والمعارف من المنطلقات الإسلامية وتوجيه الجامعات ومراكز البحوث الإسلامية والعربية إلى العناية بذلك.
* السعي إلى التقريب بين المذاهب والفرق الإسلامية وجمع كلمتها.

ويقوم المجمع بنشاطات متنوعة لتحقيق أهدافه، ومنها:

* إجراء البحوث والدراسات والترجمات في كل المجالات وفق خطط متكاملة.
* عقد المؤتمرات والندوات وتنظيم المحاضرات والمعارض والبعثات وتبادل الخبرات.
* تحقيق المخطوطات ونشرها، وطبع المؤلفات والدراسات والبحوث.
* متابعة النشاط العالمي في مجال البحوث.
* تقديم منح وجوائز تشجيعية وتقديرية.

وللمجمع نظام أساسي، يفصّل أهدافه ووسائله ومهامه وشروط العضوية فيه، وله رئيس ومكتب تنفيذي يتولى إدارته، وينتخب أعضاؤه لمدة سنتين.



جمعية الدراسات والبحوث الإسلامية
ص.ب ٩٤٨٩ عمان ١١١٩١ الأردن
هاتف ٦٣٩٩٩٢ فاكس ٦١١٤٢٠

جمعية علمية متخصصة، أنشئت في عمان – الأردن عام ١٣٩٧هـ/١٩٧٧م لتحقيق الأهداف الآتية:

* الإسهام في الإنتاج الفكري الإسلامي والتعريف به ونشره.
* إبراز تفوق المنهج الإسلامي والأنظمة الإسلامية في تعاملها مع قضايا الإنسان وتلبية حاجاته وحل مشكلاته.
* توفير فرص اللقاء والتعاون بين العلماء والمفكرين ومراكز البحث.

وتقوم الجمعية بنشاطات متنوعة لتحقيق أهدافها، ومنها:

* تنظيم المؤتمرات والندوات والمحاضرات ذات العلاقة بأهداف الجمعية.
* استكتاب العلماء والباحثين للقيام بدراسات وبحوث متخصصة.
* نشر الكتب والبحوث وإصدار النشرات والدوريات.
* التعاون مع المؤسسات العلمية الرسمية والأهلية في الأردن وخارجه في برامج عمل مشتركة.

وللجمعية نظام أساسي، يفصّل أهدافها ووسائلها وهيئاتها وشروط العضوية فيها، ويدير الجمعية مجلس إدارة ينتخبه أعضاؤها مرة كل سنتين.

الطبعة الأولى

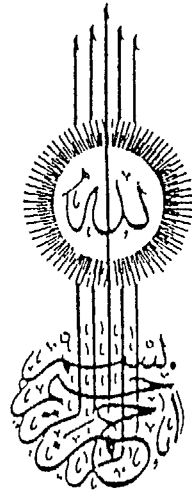
١٤١٧هـ/١٩٩٦م

المعهد العالمي للفكر الإسلامي/مكتب الأردن
المجمع الملكي لبحوث الحضارة الإسلامية/ مؤسسة آل البيت
جمعية الدراسات والبحوث الإسلامية
عنوان مراسلات الحلقة: ص.ب ٩٤٨٩ عمان ١١١٩١
هاتف ٦٣٩٩٩٢-٦-٩٦٢ فاكس ٦١١٤٢٠-٦-٩٦٢

رقم الايداع لدى دائرة المكتبة الوطنية
(١٩٩٦/٩/١١٥٤)

رقم التصنيف :	١ ر ٩٢٢
المؤلف ومن هو في حكمه :	تحرير فتحي حسن ملكاوي
عنوان المصنف :	العطاء الفكري للمرحوم الشيخ محمد الغزالي
رؤوس الموضوعات :	١- رجال الدين - تراجم ٢- الشيخ محمد الغزالي
رقم الايداع :	(١٩٩٦/٩/١١٥٤)
الملاحظات :	عمان: المعهد العالمي للفكر الإسلامي

* تم اعداد بيانات الفهرسة الأولية من قبل دائرة المكتبة الوطنية

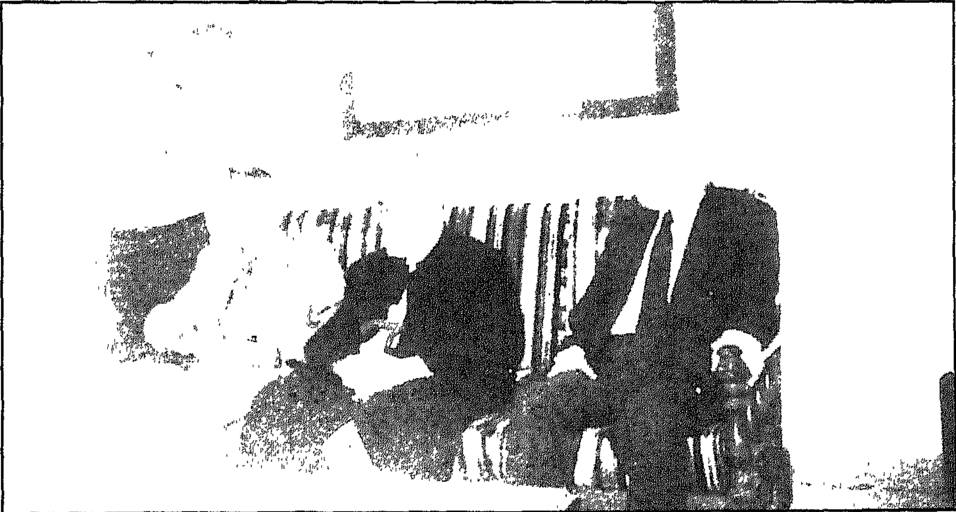


الحمد لله رب العالمين
والصلاة والسلام على خاتم الأنبياء والمرسلين

وقل رب زدني علماً



الشيخ محمد الغزالي في ابتسامته المعهوده في حفل تكريمه في جمعية الدراسات والبحوث الإسلامية صيف ١٩٩٥



الشيخ الغزالي في مكتب إدارة جمعية الدراسات والبحوث الإسلامية ومن يمينه الحاج حمدي الطباع، ود. فتحي ملكاوي، وعن شماله المهندس رائف نجم.

مقدمة المحرر

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله، وبعد،

فقد عقدت هذه الحلقة الدراسية حول العطاء الفكري للشيخ محمد الغزالي، وذلك تكريماً لهذا العالم الجليل والداعية المجاهد، وتقديراً لجهوده، وتذكيراً بفضله. وقد توفي رحمه الله يوم السبت الواقع في التاسع عشر من شوّال لعام ١٤١٦هـ الموافق للتاسع من آذار (مارس) ١٩٩٦م، عن تسعة وسبعين عاماً، أمضاها في مجالات الدعوة والعلم، وخلّف من بعده إرثاً علمياً ينتفع الناس به، يتمثل في حوالي ستين كتاباً في قضايا الفكر الإسلامي وميادينه المختلفة، إضافة إلى مئات المقالات والبحوث المنشورة في الصحف والمجلات، ومئات المقابلات التلفزيونية والأحاديث الاذاعية. وكان له رحمه الله حضور مشهور في مئات المؤتمرات والملتقيات العلمية في كثير من أنحاء العالم.

وقد جاء فكرة هذه الحلقة بمبادرة من المعهد العالمي للفكر الإسلامي/ مكتب الأردن، واستجابة كريمة من المجمع الملكي لبحوث الحضارة الإسلامي (مؤسسة آل البيت) وجمعية الدراسات والبحوث الإسلامية. وقد اشتركت المؤسسات الثلاث في تنظيم هذه الحلقة تخطيطاً وتنفيذاً وتمويلاً. وقد جاء هذا العمل المشترك مثلاً وأنموذجاً للتعاون الوثيق بين المؤسسات الرسمية والأهلية، المحلية والدولية، في القيام بكثير من الأعمال وبقدر أكبر من الكفاءة والفاعلية، وهي سنة حميدة نأمل أن تستمر وتتوالى في مناسبات أخرى.

وعقدت الحلقة يوم الخميس الواقع في الرابع من صفر ١٤١٧هـ الموافق العشرين من حزيران ١٩٩٦م، في قاعة المركز الثقافي الإسلامي (مسجد الشهيد الملك عبدالله بن

الحسين)، بعد موافقة مشكورة من وزارة الأوقاف والشؤون والمقدسات الإسلامية على استعمال تلك القاعة.

وقد وجهت الدعوة للمشاركة في الحلقة إلى الجامعات الأردنية والمؤسسات والمراكز الثقافية والعلمية، إضافة إلى الوزارات المعنية، لتسمية ممثل أو أكثر من كل مؤسسة للمشاركة في الحلقة. كما وجهت الدعوة أيضاً إلى العلماء والمفكرين والمهتمين للمشاركة كل بصفته الشخصية. وكانت مشاركة المؤسسات والاشخاص لقاء رسم اشتراك محدد لتغطية جزء من نفقات استنساخ بحوث الحلقة وأوراقها ووجبة الغداء. ومع ذلك وإضافة إلى المشاركين وتعميماً للفائدة، فإن الحضور كان مفتوحاً للجمهور.

وقد كانت دعوة المؤسسات والاشخاص لحضور حلقة علمية مقابل رسم مالي فكرة جديدة في نشاطات المؤسسات المشاركة في تنظيم هذه الحلقة وأمراً غير معهود من قَبْل في النشاطات الإسلامية. وقد دعا إلى هذه الفكرة الرغبة في البدء في سنة المشاركة في تحمل الأعباء المالية للنشاطات العلمية والثقافية الإسلامية وهو بُعْدٌ تربويٌ ونفسيْ مهم، إضافة إلى التخطيط الأفضل لبعض جوانب النشاط، وتوفير متطلباته بناءً على تقدير أدق لعدد المشاركين.

وقد افتتحت الحلقة الدراسية في الساعة التاسعة والنصف صباحاً واستمرت جلساتها حتى الثامنة مساءً. وأدار جلسة الافتتاح الاستاذ فاروق جرار مساعد رئيس المجمع الملكي لبحوث الحضارة الإسلامية، وتحدث في هذه الجلسة نيابة عن المؤسسات المنظمة للحلقة كل من:

الأستاذ ابراهيم شبوح، أمين المجمع الملكي لبحوث الحضارة الإسلامية.
الدكتور فتحي ملكاوي، المستشار الأكاديمي للمعهد العالمي للفكر الإسلامي.
الأستاذ الدكتور اسحق احمد فرحان، رئيس جمعية الدراسات والبحوث الإسلامية.

ثم عرضت بحوث الحلقة الثمانية في أربع جلسات عمل، بحثان في كل جلسة، وقد كلف بعض الباحثين بإعداد تعقيب على كل بحث بعد قراءته قبل الحلقة. وبعد عرض

البحثين والتعقيبين كان المجال يفتح لمداخلات الحضور. وقد سجلت جميع فعاليات الحلقة على أشرطة فيديو إضافة إلى التسجيل الصوتي والتصوير الفوتوغرافي. وقد جرت الاستفادة من التسجيل في تفريغ المناقشات وإثباتها في وقائع الحلقة، كما تظهر في هذا الكتاب، إضافة إلى إثبات بعض اللقطات التوثيقية لجلسات الحلقة وجمهور الحضور.

وقد رأينا أن يتضمن هذا الكتاب إضافة إلى وقائع الحلقة الدراسية التي عقدت في اليوم المذكور، عرضاً موجزاً لمؤلفات المرحوم الشيخ محمد الغزالي في حدود مائة إلى مائتين من الكلمات، وذلك للإشارة إلى موضوعات تلك الكتب، تسهيلاً على الراغبين في الوصول إلى الموضوعات التي يريدون الاطلاع على إسهامات الشيخ فيها.

وقد تضمنت عملية إعداد هذا الكتاب جمع الوثائق الخاصّة بالحلقة الدراسية وتنظيمها، بما في ذلك تفريغ الأشرطة الخاصة بالمداخلات والتعقيبات وتحويلها من الصورة المسموعة إلى الصورة المقرؤة، وإجراء عمليات التحرير المناسبة في هذا السياق مع المحافظة على الافكار الرئيسية للمتحدث، ومن ثم الاشراف على طباعة المادة وتدقيقها وإخراجها فنيّاً قبل دفعها إلى المطبعة.

وعليه فإن إخراج الكتاب على صورته التي هو عليها، بما في ذلك اختيار الصور التوثيقية، هو مسؤولية التحرير، ولا تتحمل المؤسسات المنظمة للحلقة أي تقصير قد يلاحظه القارئ.

ولعل الواجب يقتضي توجيه الشكر للقائمين على المؤسسات الثلاث التي تعاونت على تنظيم هذه الحلقة الدراسية، ولوزارة الاوقاف والشؤون والمقدسات الإسلامية وبخاصّة إدارة المركز الثقافي الإسلامي (مسجد الشهيد الملك عبدالله).

والشكر موصول إلى مكتب المعهد العالمي للفكر الإسلامي في القاهرة وبخاصة لمدير مكتبته الأستاذ صابر الكيلاني، الذي قام مشكوراً بإعداد خلاصات بعض كتب الشيخ الغزالي التي لم يتيسر الحصول عليها إلا من تلك المكتبة.

وكذلك للآنسة لينة فتحي ملكاوي والآنسة أسماء حسين ملكاوي على إعداد خلاصات العدد الأكبر من كتب الشيخ.

ولمؤسسة سجا التي قامت بالتسجيل التلفزيوني للحلقة.

وللأخ محمد عبد ربه الذي قام بالتصوير الفوتوغرافي.

أما أوفر الشكر وأجزل الامتنان، فهو للأخوة في إدارة المعهد العالمي للفكر الإسلامي/ مكتب الأردن، وجمعية الدراسات والبحوث الإسلامية، وبخاصة مدير المكتب الأخ ابراهيم العوضي، والأخ ماجد أبوغزالة والأخ بشار الحمد، الذين وصلوا الليل بالنهار في فترة الاعداد للحلقة، وفي يوم إقامتها، وفي إعداد وقائعها، المثبتة في هذا الكتاب.

ونحسب أن القارئ سوف يقدر الجهد والوقت المبذولين في تنظيم محتويات هذا الكتاب، ومع ذلك فهو عمل بشري يعتريه النقص، ولا يبلغ الكمال، فالكمال لله وحده. نسأله سبحانه المغفرة وحسن المثوبة.

والحمد لله أولاً وآخراً.

المحرر

د. فتحي حسن ملكاوي

(مقرر الحلقة الدراسية)

قائمة محتويات الكتاب

وقائع الجلسة الافتتاحية

١. تقديم عريف الحفل: الأستاذ فاروق جرار

٢. كلمة المجمع الملكي لبحوث الحضارة الإسلامية (مؤسسة آل البيت)

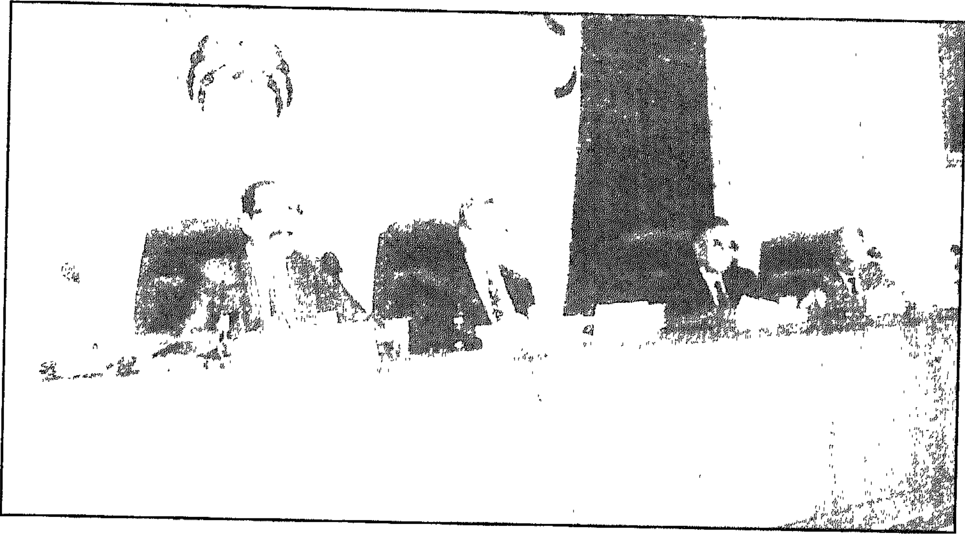
أ. إبراهيم شبوح، أمين عام المجمع.

٣. كلمة المعهد العالمي للفكر الإسلامي/ مكتب الأردن

د. فتحي حسن ملكاوي، المستشار الأكاديمي للمعهد.

٤. كلمة جمعية الدراسات والبحوث الإسلامية

أ.د. اسحق أحمد فرحان، رئيس الجمعية.



الجلسة الافتتاحية:

من اليمين: د. فتحي ملكاوي، أ. ابراهيم شبوح، أ.د.اسحق فرحان، أ.فاروق جرار



جانب من الحضور

كلمة عريف الحفل في الجلسة الافتتاحية للحلقة

الأستاذ فاروق جرار
مساعد رئيس المجمع الملكي لبحوث الحضارة الإسلامية

بسم الله الرحمن الرحيم ﴿الحمد لله رب العالمين * الرحمن الرحيم * مالك يوم الدين* اياك نعبد وإياك نستعين * إهدنا الصراط المستقيم* صراط الذين أنعمت عليهم * غير المغضوب عليه ولا الضالين﴾ صدق الله العظيم.

أصحاب المعالي والسعادة، أيها السادة والسيدات، بخير فاتحة لخير كتاب نفتتح أعمال هذا الملتقى الفكري حول عطاء عَلَمٍ إسلامي بارز كانت أعماله جميعاً بهدي القرآن، وفي سبيل القرآن، هو المرحوم الشيخ محمد الغزالي –أسكنه الله فسيح جناته– وهذه هي الجلسة الافتتاحية للقاء، وبعدها ستستمعون على مدى هذا اليوم إلى مجموعة من البحوث أعدها علماء أفاضل، عرفوا الشيخ الغزالي وسعدوا بصحبته، أو عرفوا آثاره الفكرية وسعدوا بالتحليق فيها.

وقد وزّعت البحوث في أربع جلسات عمل ، غير جلسة الافتتاح هذه. تبدأ الجلسة الأولى بعد جلسة الافتتاح واستراحة قصيرة. وتبدأ الجلسة الثانية بعد الغداء في الساعة الثالثة والنصف. وتبدأ الجلسة الثالثة بعد صلاة العصر الساعة الخامسة. أما الجلسة الرابعة والأخيرة فستكون في الساعة السادسة والنصف، وتنتهي بصلاة المغرب، حوالي الساعة الثامنة، إن شاء اللّه.

وقد وزّع عليكم برنامج الجلسات وفيها عناوين الأوراق وأسماء الباحثين.

وفي هذه الجلسة الافتتاحية سنستمع إلى كلمات المؤسسات المشاركة في تنظيم هذه الحلقة الدراسية. والكلمة الأولى هي كلمة المجمع الملكي لبحوث الحضارة

الإسلامية (مؤسسة آل البيت)، يلقيها أمين المجمع الأستاذ إبراهيم شبوح، نيابة عن رئيس المجمع معالي الأستاذ الدكتور ناصر الدين الأسد. وجدير بالذكر أن المرحوم محمد الغزالي كان عضواً في المجمع منذ عام ١٩٨٢م.

والمؤسسة الثانية المشاركة في تنظيم هذه الحلقة هي المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ومقرّه واشنطن وله مكتب في عمان يقوم بأنشطة عديدة، يتحدث نيابة عنه الأستاذ الدكتور فتحي حسن ملكاوي، المستشار الأكاديمي للمعهد، وأستاذ التربية في جامعة اليرموك.

أما المؤسسة الثالثة المشاركة في تنظيم هذه الحلقة فهي جمعية الدراسات والبحوث الإسلامية في عمان، ويلقي كلمتها معالي الأستاذ الدكتور إسحق أحمد فرحان، رئيس الجمعية، ورئيس جامعة الزرقاء الأهلية، وأمين عام حزب جبهة العمل الإسلامي.

كلمة المجمع الملكي لبحوث الحضارة الإسلامية (مؤسسة آل البيت)

الأستاذ إبراهيم شبّوح

أمين عام مؤسسة آل البيت

الحمد لله وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وسلم

السادة العلماء، الأفاضل الأوفياء،

ما عسى أن يسع موجز القول من سيرة رجل ملأ دنيانا، وخرج للناس يجدد الدعوة، ويشرح أصول العقيدة، ويحيي ما تُنوسِيَ من قيمها السمحة في الإخاء والتحابّ في الله وطلب العدل وحق الإنسان المسلم في أن يكون إنساناً؛ ناهجاً بعمله نهجاً لاحباً وأسلوباً واضحاً من البيان مقرِّباً مقرَّباً.

عندما تجلس إلى الرجلُ مصافِياً، أخاً لأخيه، مجاذباً محللاً مروِّعات الأحداث التي تطحن عالَم المسلمين من داخله وخارجه، ويبدأ البحثُ عن المسبّبات، تسمعه وهو يلاحقُ متعرجات ما يجري، وينجذب معك للمشاركة في التأمل والتوقف الجاد المتفاعل، بحسب ما يشعر وما يجد فيك من لَمْح الفهم ودقة البصر وصفاء البصيرة؛ فيأخذ في الترسل وملاحقة الدقائق وتصنيف القضايا وربطها، والخروج من دائرة إلى أوسع وأرحب منها، بعد أن يشبعها بحثاً وإضاءة؛ مغايراً في رؤيته البعيدة وفي ذهنه وتركيب ثقافته للكثير ممن عَرَفْتَ. وتتساءل كيف أتيح لهذا المتوهج بإيمانه أن يتجاوز المألوف من الاختصاصات المحدّدة إلى الاشتغال بأحوال الأمة وأوضاعها ومعوقات نهضتها، ويجيد معرفة أصول القضايا وتاريخها، وما أثقلها في مسيرة الأيام من دسائس وخذلان. وتَعْجَبُ لهذا الفقيه المتمكن والسياسي المتعمق، يجهر بما يتمحص له من صالح العمل، ويُقْدِم على النصيحة يقدّمُها بحرارة المؤمن المشارك في إصلاح قومه، لا يتردد ولا ينخذل؛

ويقف للمناوئين المشكّكين المجترئين صفاً وحده لا يذْعَر ولا يتزلزل، يدحض حججهم، ويبدّد دعاواهم، بجرأة وعلم وبحجة ومنطق، وكان كما يقول: «تُسعده الحجةُ تتألق اتضاحاً، والشبهة تتضاءل افتضاحاً».

ذلك هو الشيخ محمد الغزالي الذي فقدنا بفقده عالِماً عامِلاً، مدركاً للمقاصد، ومَثلاً للنزاهة والتخلق بخُلق الإسلام.

لقد كانت حياة الرجل مباركة مضيئة بالمواقف، تَحَقّقَ له فيها ما تحقق بمعطيات وأسباب، منها:

* سلامة الفطرة، وما أودعه الله فيه من مدارك الفهم والبصر والتمييز، والوعي ورهافة الحس، وهذه كلها من لطائف المباني والمعاني، وعُدّة المؤمن المثقف لمداخل التوفيق.
* ثم ما تيسر له في رحاب الأزهر الشريف من زاد معرفي وفير، تَلَقّاه وومض به ذهنُه على يدي الجلّة من علمائه المتبحّرين في أصول الدين، فتخرّج فقيهاً نظّاراً يجيد استنباط الأحكام الفرعية التفصيلية من أصولها الإجمالية، ويتقن تدقيق الأقيسة، ويحسن الاستشهاد بتنزيل الشواهد في مواقعها.

وحذق علوم اللسان التي قوّمت فيه -على نمط متميّز- مَلَكَةَ البيان والتبليغ، وجعلَتْ منه مع المرانة والدُّربة مفوّهاً واضحاً يجيد -بالأسلوب السهل الممتنع- أداء ما أعده ذهنه من دقيق القضايا، ومن تحليل للمشكلات الصعبة.

* ثم ما أُتيح له من معرفة شاملة بأوضاع العالم الإسلامي ومتابعة لشؤون أقليّاته في مواطنها، وما تلقّاه من إنصاف أو إجحاف على ضوء السياسات المطبّقة؛ وقد تهيأ له ذلك بالقراءة، ثم بالاتّصال والرحلة.
* ثم إلمامُه بأحوال السياسات الجارية وتداخلها، وتأثيرها على أوضاع الأمة، وتنبُّهُه لما تتضمنه من خطط الإساءة والإثارة، وتوقّفُه عند الأحداث البارزة، ومحاولة استبطانها بفهم المتمرّس الواعي.

* ثم بالتجربة السياسية التي اندفع فيها والشبابُ وَقْتَها بمائه، وتدفقه يوم انضم لأكبر الحركات الإسلامية –وقتها– واتصل بقادتها ونخبة رجالها، وتجمّع في نفسه وعقله أن الدين يقوم –بعد الخلوص لله– على سياسة الأمة وخدمة مصالحها، ووجد في هذه الوجهة صدى لكل ملكاته المؤسَّسَة؛ وبدأ يؤدي رسالته منافحاً مناضلاً عن الإسلام، وعارضاً لأحكامه وقضاياه، وباحثاً عن حقيقة أمته والكشف عن وسائل ترابطها بعد القطيعة والفرقة، محرّكاً لسواكن الحس ليَشْعُر الأخُ بحال أخيه، فيقاسمه مشاعرَه ويشدّ من أزْره؛ إحياءً لسنن التكافل، وبعثاً لروابط الأخوة؛ وقد أُخِذَ عليه ذلك كما أخذ على غيره. وقبله تواصل سندُ هذا النمط الرائع من الرجال؛ وفي مثل حاله يخاطب شوقي الشيخ عبدالعزيز جاويش، فيقول:

يقولون ما لأبي ناصر	وللترك ما شأنه والهنودْ
وفيمَ تحمّل هَمّ القريب	من المسلمين وهمّ البعيد
فقلت وما ضَرّكم أن يقوم	من المسلمين إمام رشيد
أتستكثرون لهم واحداً	ولِيّ القديم نصيرَ الجديد
سعى ليؤلّف بين القلوب	فلم يَعْدُ هدْيَ الكتاب المجيد

* ثم بإدراكه أن الحياة المعاصرة قد وسّعت من آفاق النظر، وأصبحت مجالات العقل أوسع من أن تحصر أو يحاط بها، وانكشف له أن ثقافة الداعية ينبغي لها أن ترتكز على الاستيعاب الواسع، وحسن البصر بالمعاني، والصلة العميقة بأغراض الإنسان. وأن التدين كما يقول: «ليس علاقة موهومة بالله، فلا قيمة للتدين إذا لم يمنع الإسفاف ويدفع إلى ا لتسامي ويقمع غرائز الاستعلاء وقهر الضعفاء»، وأن من شروط الانطلاق «مقاومة مواريث الثقافة المغشوشة التي تحتضن البدع والخرافات» حتى يتحرر العقل؛ «إن من المستحيل إقامة مجتمع ناجح الرسالة، إذا كان أصحابه جهّالاً بالدنيا، عجزة عن الحياة، إنه لفشلُ دفعنا ثمَنه باهضاً عندما خبْنا في ميادين الحياة».

* ثم ما تشبّع به فكره من منطق التسامح والتسامي عن الحقد والبغضاء والتطرف، فيؤكد أن دين الإسلام « ألِفَ –منذ بدأ يعاشر غيره– المياسرة واللطف، ورعاية حسن الجوار

فيما يشرع من قوانين ويصنع من تقاليد، والحرص على احترام شخصية المخالف له، ومن ثم لم يفرض عليه حكمه في الحرام والحلال، أو يقهره على الخضوع لشرائعه».

* ثم إيمانه المطلق بأن «الإسلام والاستبداد ضدّان لا يلتقيان، فتعاليم الدين تنتهي بالناس إلى عبادة ربهم وحده».
* ثم جهاده الموصول للظلم في كل أوجهه، وبكل مراتب الجهاد، من ذلك «تطوعه في حرب فلسطين، وترأس التمرد ضد إدارة معتقل (الطور)؛ وكل واحد من كتبه موقف ونضال ضد الغزو الثقافي والتعصب والفهم الخاطئ لتعاليم الإسلام، وضد الظلم الواقع على المرأة، وضد الانغلاق الفكري.

إن كل هذا الذي تهيأ له من الخلال الأصلية والبصائر المكتسبة التي يسرها الله له، صنعت سمات الرجل وشخصيته الفذة المنفردة: فقيهاً بصيراً نقّاداً مدركاً لمقاصد الشريعة، عالماً بأحوال قومه وما يحيط بهم وما ينبغي لهم، خطيباً مبلّغاً مجاهداً وكل هذا الذي اتّفق له يذكّرني بقولة أبي حيان التوحيدي في مقارنة بين الجاحظ وابن العميد:

«إن مذهب الجاحظ مدبَّر بأشياء لا تلتقي عند كل إنسان، ولا تجتمع في صدر كل أحد: بالطبع، والمنشأ، والعلم، والأصول، والعادة، والعمر، والفراغ، والعشق، والمنافسة، والبلوغ؛ وهذه مفاتحُ قلّما يملكُها واحد، وسواها مغالِقٌ قلّما ينفك منها أحد».

ومفاتح الشيخ محمد الغزالي باب مفتوح لـلأجيال وسَنَنٌ معبَّد، يرحمه الله، ويتقبله في المؤمنين الصادقين كفاء ما قدّم لأُمَّتهِ.

كلمة المعهد العالمي للفكر الإسلامي

الدكتور فتحي ملكاوي

المستشار الأكاديمي للمعهد/ مكتب الأردن

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على نبيّنا محمد وآله وصحبه أجمعين
أيها الأخوة والأخوات
السلام عليكم ورحمة الله وبركاته،

نيابة عن المعهد العالمي للفكر الإسلامي، أرحب بكم، وأشكركم على تلبية الدعوة للمشاركة في هذه الحلقة الدراسية عن العطاء الفكري للمرحوم الشيخ محمد الغزالي.

والمعهد العالمي للفكر الإسلامي مؤسسة علمية فكرية ثقافية مستقلة، أنشئت مع مطلع القرن الخامس عشر الهجري (١٩٨١م) وسجلت في الولايات المتحدة، ثم افْتَتَحَ المعهدُ مكاتب في عدد من العواصم العربية والإسلامية وغيرها. وأقام اتفاقات للتعاون العلمي مع العديد من الجامعات والمراكز العلمية في مختلف أنحاء العالم.

ويهدف المعهد من نشاطاته إلى بناء الرؤية الإسلامية الشاملة، اللازمة لتأصيل قضايا الأمة الإسلامية وقضايا العالم في هذا العصر. وربطها بالمقاصد والغايات الإسلامية العامة. كما يهدف إلى استعادة الهوية الفكرية والحضارية للأمة الإسلامية، من خلال إصلاح مناهج الفكر الإسلامي، وجهود إسلامية المعرفة، لتمكين الأمة من إعادة بناء حياتها الإسلامية، وتعزيز دورها في توجيه مسار الحضارة الإنسانية وترشيدها وربطها بقيم الإسلام وغاياته.

ومثل هذه الحلقة الدراسية التي يقيمها المعهد بالتعاون مع المجمع الملكي لبحوث الحضارة الإسلامية (مؤسسة آل البيت)، وجمعية الدراسات والبحوث الإسلامية؛ مثال على أوجه النشاط التي يمارسها المعهد بالتعاون مع غيره من المؤسسات المماثلة.

والمرحوم الشيخ محمد الغزالي كان واحداً من مئات العلماء والمفكرين الذين أسهموا في نشاطات المعهد؛ في ندواته وحلقاته، وفي مؤتمراته وإصداراته. كان رحمه الله في السنوات العشر الأخيرة مستشاراً للمعهد العالمي للفكر الإسلامي، ورئيساً للمجلس العلمي في مكتب المعهد بالقاهرة. يقول في مقدمة كتابه «تراثنا الفكري في ميزان الشرع والعقل»، الذي أصدره المعهد سنة (١٩٩١) ضمن سلسلة إسلامية المعرفة، يقول: إنه التقى «بأسرة المعهد العالمي للفكر الإسلامي، وعناهم ما عناه وأرّقهم ما أرّقه، وسبقوا إلى تأصيل المعرفة الإسلامية ووصل ما انقطع من منابعها الأولى. طلب مني رجال المعهد أن أتوفر على دراسة المسار الفكري لأمتنا، وأن أراجع وأحقق، وبذلوا عونهم لأصل بالبحث إلى غاية سليمة، وأقدم ثمرة ناضجة؛ لأن الأمة ترقب من دعاتها وعلمائها أن يفوا له».

وقد كان الغزالي بالفعل وفيّاً لدينه وفيّاً لأمته، وكان له في ذلك موقع متميز، وعطاء متميز، كان كما يقول عن نفسه «طالب حق، ليس عبد فكرة ثابتة، يتعصب لها دون وعي»، وكان مجتهداً في تحرّي الحقيقة، فإذا ظفر بها «تشبثت بها يداه كلتاهما»... ومع كل ذلك فقد كان إنساناً له من الآراء والاجتهادات ما قد يحتاج أحياناً إلى تمحيص، فإذا رأى أن يعيد النظر في بعضها يكون أوّاباً إلى الحق الذي ينشده ويتحرّاه.

ومع تعدد الأوصاف التي يمكن أن يوصف بها الشيخ بحق: كاتباً، وأديباً، وباحثاً، وعالماً، ومجتهداً، ومفكراً، وداعياً، فإن الدعوة هي الصفة التي كان، رحمه الله، يُفَضّلُ أن ينتسب إليها. والحق أن الشيخ الغزالي كان إماماً في الدعوة إلى الله، ونحسب أنه كان يدعو إلى الله على بصيرة.

إن اهتمامنا بالمرحوم الشيخ الغزالي اليوم، هو من قبيل تعريف أجيال الأمة بجهود هذا العالم الإمام، وفاءً للرسالة التي حملها. وهو من قبيل تكريم العلم والعلماء اعترافاً بفضلهم ونشراً لعطائهم. وقد كان المرحوم الغزالي أهلاً للتكريم في حياته باعتباره علماً في الفكر والعلم والدعوة، وكذلك هو أهلٌ التكريم بعد مماته. وخير تكريم للغزالي في

رأي المؤسسات الثلاث المشاركة في تنظيم هذه الحلقة، هو تدارس العطاء الفكري لهذا العَلَم الشامخ والمفكر الفذ، وتوجيه الانتباه إليه، للاستفادة مما خلّفه من تراث في جوانب الفكر الإسلامي المختلفة.

وتظهر الحاجة إلى مدارسة تراث الشيخ بعد وفاة صاحبه؛ لأن الناس لا يلتفتون إلى أهمية النور عادة، إلا عند حلول الظلام « وفي الليلة الظلماء يفتقد البدر». وحين نختار العطاء الفكري للشيخ الغزالي عنواناً لهذه الحلقة الدراسية، فلأننا نعلم أن تراث الشيخ الغزالي في مجموعه يمثل معالم مشروع فكري متكامل، ينطلق فيه من موقف الوعي على واقع الأمة، والتحديات التي تواجه محاولاتها في النهوض. ولهذا المشروع سماته وملامحه التي تشكلت على عدة مراحل، نتيجة الظروف التي كان الشيخ يمر بها شخصياً، ونتيجة لمواقفه تجاه الأحداث والقضايا التي تعرض للمجتمع الذي يعيش فيه، والأمة التي ينتمي إليها.

ولا نحسب أن حلقة دراسية ليوم عمل واحد تكفي لهذا الغرض، ولكن أملنا أن تتواصل الجهود ويستمر السعي في هذا الشأن. وقد لاحظ الأخوة الذين أعدوا بحوث هذه الحلقة وأوراقها. أن الدارس للغزالي والمتأمل في سيرته الفكرية وعطائه العلمي وجهاده الدعوي، يحتاج إلى جهد متواصل ووقت متسع. وحَسْبُ هذه الحلقة أن تفتح الطريق وتبدأ الحركة.

وعلى الله قصد السبيل.

كلمة جمعية الدراسات والبحوث الإسلامية

الأستاذ الدكتور إسحق فرحان

رئيس جمعية الدراسات والبحوث الإسلامية

الحمدلله والصلاة والسلام على رسول الله، ومن اتبع سنته وسار على نهجه إلى يوم الدين، وسلام الله عليكم أيها الحفل الكريم، ورحمة الله تعالى وبركاته... وبعد،

فإنه ليشرفنا في هذا اليوم المبارك، أن يجتمع هذا النفر الكريم، من أبناء أمتنا العربية الإسلامية، ليستعرض معالم العطاء الفكري للمرحوم الشيخ محمد الغزالي، الذي قدمه لأمة التوحيد، في القرن العشرين، ولندعو الله تعالى أن يُنزّل عليه شآبيب رحمته، وينزله الفردوس الأعلى من الجنة، وأن يبارك له في ذريته، وأن يجعل علمه صدقة جارية له، وعمله الصالح قدوة للعاملين للإسلام، في مواجهة تحديات القرن الحادي والعشرين، ليعود للدين مجده، ولأمة الإسلام مكانتها المرموقة بين الأمم، لتؤدي رسالتها العالمية الخيّرة، لتكون رحمة للعالمين.

ونحن في جمعية الدراسات والبحوث الإسلامية، في الأردن، نحمد الله تعالى أن مكننا بالتعاون مع المجمع الملكي لبحوث الحضارة الإسلامية، والمعهد العالمي للفكر الإسلامي من إقامة هذا اليوم العلمي، تكريماً لروح المرحوم الشيخ محمد الغزالي، وأن يشارك فيه باحثون مميزون من مصر، بلد المرحوم، أمثال الشيخ العلامة الدكتور يوسف القَرَضَاوي، والشيخ الدكتور أحمد العسال، ونجل المرحوم الدكتور علاء محمد الغزالي، ومن الأردن عدد كريم من علماء البلد، الذي تردد عليه الشيخ كثيراً في أسفاره وعمله الدعوي، والذي أحبّ الشيخ وقدره حيّاً وميتاً، نسأل الله تعالى أن يرحم شيخنا، رحمة واسعة وأن يجعل ذكراه دوماً عطرة، وملتقى طيباً للصالحين، فسلام على الشيخ الغزالي في

حياته عالماً معطاءً، وداعية للخير محتسباً، ومفكراً إسلامياً مجدداً، وسلام عليه بعد وفاته؛ إذ سيبقى فكره مؤثراً في حياة المسلمين لعقود عديدة قادمة، لأنه اتسم بالإخلاص في النية، والصدق في القول، والعمق في الفكر، والسعة والامتداد في الخبرة والتجربة، والاهتمام بالكليات، وعدم الانسياق وراء التفاصيل والجزئيات التي تعيق الحركة ولا تساعد على التجديد.

لقد قرأت للغزالي كتاب «من هنا نعلم» رداً على كتاب «من هنا نبدأ» لخالد محمد خالد، وأنا في المرحلة الثانوية في مدرسة السلط الثانوية في أوائل الخمسينات، فأعجبت بحرارة دفاع الشيخ عن الإسلام المفترى عليه، وكان أول انطباع في نفسي عنه: أنه المدافع الصلب عن حياض الإسلام بالحجة المقنعة، والمنهجية العلمية الممزوجة بالعاطفة الصادقة والحب العميق لهذا الدين، مما دفعني إلى مواصلة قراءة كتاباته فيما بعد، وازدادت بيننا الرابطة الفكرية والدعوية، ونعمنا فيما بعد باللقاءات الشخصية في الأردن، وفي سائر بلدان العالم الإسلامي عبر العقود الأربعة الماضية، في المؤتمرات والندوات والمحاضرات، وقد تعلمت مع أبناء جيلنا من المرحوم الشيخ علماً وفكراً وسلوكاً وخلقاً نعتز به في حياتنا الدعوية والفكرية طيلة حياتنا، فجزاه الله عنا وعن شباب الإسلام كل خير.

وسوف نعيش هذا اليوم العلمي مع العطاء الفكري للغزالي، ليحاول الجميع تَلَمُّسَ أبعاد شخصيته المتكاملة، وعمله الإسلامي العالمي، لنزداد تقديراً لعطائه الموصول، واستفادة من آثاره العلمية والعملية، وصدق الله العظيم ﴿سنكتب ما قدّموا وآثارهم﴾. ومع أن دوري في هذا المقام هو الترحيب بكم باسم جمعية الدراسات والبحوث الإسلامية، والاستماع إلى أوراق البحث المعّمقة، إلا أنني أسمح لنفسي أن أمر في دقائق ببعض الوقفات حول شخصية عالمنا الجليل، رحمه الله رحمة واسعة.

الوقفة الأولى: مع شخصيته المتكاملة:

* فهو داعية عظيم التأثير في نفوس جماهير الأمة على اختلاف فئاتها الفكرية والاجتماعية، وكان له فضل السبق مع الإمام حسن البنا في المرحلة التأسيسية لجماعة الإخوان المسلمين، ونال في سبيل ذلك من الأذى والابتلاء الشيء الكثير، ثم من بعد أصبح داعية للإسلام على مستوى العالم الإسلامي بأسره.

* وهو مفكر إسلامي مجدد، في ميادين الفكر الشرعي الذي تخصص فيه، وميادين العلوم الإنسانية المعاصرة التي ألمّ بها إلمامة المثقف العارف، وله من التآليف ما يزيد على الستين كتاباً في محاور متعددة منها محور الفكر والثقافة الإسلامية، ومحور التجديد وحوار الحضارات، ومحور الاهتمام بقضايا الأمة المعاصرة، ومحور علوم القرآن والتفسير، ومحور التصوف والروحانيات.

* وهو الأستاذ الجامعي النابه والمربي القدير، في مجالات عمل متنوعة وفي بلدان متعددة، بدءاً بجامعة الأزهر الشريف، ثم جامعة الملك عبدالعزيز بجدة، ثم جامعة أم القرى بمكة المكرمة، ثم جامعة قطر، ثم جامعة الأمير عبدالقادر الإسلامية في الجزائر حيث كان له في تأسيسها إسهام كبير.

ولقد أغنى الأستاذ الغزالي المكتبة الإسلامية الحديثة، أيما إغناء، ولقد خسر العالم الإسلامي بفقدانه نبعاً فياضاً من ينابيع العلم والمعرفة، نسأل الله تعالى أن يعوضنا خيراً، وأن يمد في عمر من بعده من علماء هذه الأمة ودعاتها المخلصين.

الوقفة الثانية: مع عالمية الرجل:

ولد الشيخ الغزالي في مصر، وأعطاها الكثير، داعية من دعاة جماعة الإخوان المسلمين، وعالماً من علماء الأزهر الشريف، وإدارياً ناجحاً في وزارة الأوقاف المصرية وإدارة المساجد، وعضواً فاعلاً في الهيئات الخيرية والإسلامية، ولكنه تجاوز الحدود الإقليمية لمصر، فكان من أحبّاء الأردن، وزواره المترددين إليه دوماً والمنيرين طريق

الدعوة المستنيرة فيه، وعضواً عاملاً في المجمع الملكي لبحوث الحضارة الإسلامية، ومؤازراً لجميعة الدراسات والبحوث الإسلامية، كما أنه أعطى الجزائر من وقته وعلمه في جامعتها الإسلامية، وكذلك أعطى قطر وجامعتها، والسعودية وجامعاتها، كما أعطى الشباب المغترب في أمريكا وأوروبا، وأعطى المعهد العالمي للفكر الإسلامي كثيراً من ذوب فكره، وعصارة علمه ومحبته.

فهو رجل عالمي بحق، تجاوز حدود الإقليمية، إلى سعة أمته الإسلامية العالمية المتعددة في هذا الكوكب الصغير.

الوقفة الثالثة: مع العمل الدؤوب:

فقد كان، رحمه الله، يقرن العلم بالعمل، ويحرص على الكليات ولا يهتم بالجزئيات والتفاصيل، ينظر إلى المستقبل، ويعمل ما وسعه العمل باتجاه الأهداف الاستراتيجية للأمة الإسلامية. وكان يمتاز –رحمه الله– بحرارة العاطفة التي تصل العلم بالعمل في ظلال إيمان عميق بما يعلم، وبقيمة العمل الصالح مهما قل. لقد كان، رحمه الله، عالماً راسخ العلم، فقد نظر إلى العلم ليس كمهنة ولكن كرسالة. وكان، رحمه الله، مدافعاً صلباً عن حياض الإسلام تصدى بجرأة وحزم للعلمانيين في معركة طويلة، ولرد الشبهات عن الإسلام ودحض افتراءات أعداء الفكر الإسلامي والدعوة الإسلامية.

وأخيراً وليس آخراً، فإن من يستمع إلى بعض ما قاله المرحوم الغزالي يرى الحكمة في قوله، مما لا يستغني عنها عامل في الحركة الإسلامية ﴿ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً﴾ ومن ذلك قوله:

* «والناس لا تصح إنسانيتهم، ولا يحققون الحكمة من إيجادهم إلا إذا جعلوا نشاطهم مقسوماً بين معاشهم ومعادهم. وعملوالله كما يعملون لأنفسهم أو أكثر».
* نحن نريد حكماً قائماً على الشورى، أو ما يسمى بالعصر الحديث بالديمقراطية، وما سرطان الأمة الإسلامية إلا الاستبداد السياسي والحكم الفردي».

* «إن الدعوة الإسلامية تحصد الشوك من أناس قليلي الفقه، كثيري النشاط، ينطلقون بعقولهم الكليلة فيسيئون ولا يحسنون».

* «إن الفتوى الجاهلة، والبدعة المحدثة، والحديث الموضوع والخرافة المقدسة، كل ذلك لون من تزوير الوحي، وتحريف الكلم عن مواضعه، والشهادة على الله بما لم يقل؛ من أجل ذلك أطلب في ميدان الدعوة، أن تعرض الحقائق المسلمة الثبوت، وأن تُطوى جانباً خلافات الفقهاء، ووجهات النظر العائمة، وقبل ذلك تُطرح المرويات الشاذة، ما معنى أن تعرض عقيدة التوحيد مقرونة بأن الأرض لا تدور، أو أنها محمولة على قرن ثور، أو أن الحكم في الإسلام يجعل الحاكم فوق الشورى؟ لحساب من تم هذا العرض الغبيّ؟ ولحساب من تم عرض قضية المرأة على أن وجهها (عورة)، وأن ذلك موقف الإسلام القاطع مع أن جمهرة الفقهاء على غير هذا؟!، إننا نطالب هؤلاء أن يصلحوا أنفسهم أو يتركوا مواقعهم، فلسنا بحاجة إلى علل أخرى».

وختاماً: ندعو الله عز وجل، أن يرحم شيخنا الفاضل محمد الغزالي، وأن يسكنه الفردوس الأعلى في جنة الخلد، وأن يعوض أهله وذويه والأمة الإسلامية خيراً، وأن ينفعنا بعلمه، وأن يفرج كرب هذه الأمة، ويصلح لها علماءها وأمراءها، لتسير على صراط مستقيم، وصدق الله العظيم ﴿قل هذه سبيلي أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني وسبحان الله وما أنا من المشركين﴾.

جلسة العمل الأولى

رئيس الجلسة: الأستاذ إبراهيم شبوح

١. الورقة الأولى: الجوانب النفسية والخلقية للشيخ الغزالي

الأستاذ الدكتور أحمد العسال

٢. الورقة الثانية: الشيخ الغزالي: رؤيته المنهجية للفكر الإسلامي والإنساني.

الأستاذ الدكتور علي جمعة

٣. مناقشات الجلسة الأولى.



جلسة العمل الأولى: رئيس الجلسة أ. ابراهيم شبوح في الوسط
وعن يمينه د. علي جمعة، وعن شماله د. أحمد العسال



جانب من الجمهور

الجوانب النفسية والخلقية للشيخ الغزالي

الدكتور أحمد العسال

نائب مدير الجامعة الإسلامية العالمية / باكستان

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أسوة الخلق أجمعين من أرسله ربه رحمة للعالمين، وجعله على خُلُق عظيم سيدنا ونبينا محمد، وعلى آله الكرام وأصحابه الطيبين الأخيار، وعلى كل من دعا بدعوته، واستمسك بسنته وجاهد جهاده إلى يوم الدين.

فقد اجتمع لعالِمنا الجليل الشيخ محمد الغزالي – رحمه الله وأسكنه فسيح جناته– من الأخلاق الكريمة والصفات النفسية الحميدة مالم يجتمع لعالم في عصرنا، وذلك فضلُ الله ورحمتُه، فكما ورد في الحديث: (إن الله يعطي الدنيا من يحب ومن لا يحب، ولا يعطي الدين إلا لمن أحب فمن أعطاه الله الدين فقد أحبه) وهل ثمرة الدين الا الخلق الكريم؟ وصدق القائل:

وإذا رزقت خليقة محمودة　　　فقد اصطفاك مقسم الأرزاق

وما خلّد فكرَ العلماء الربانيين الا سيرتُهم الحميدة وخلقهم الكريم، وما جعل لكلماتِهم حركة الروح واستمرار العطاء والتأثير، إلا تلك النفحة العلوية التي منحهم الله إياها، من قول الحق، والصدع به، والثبات عليه، وأن سريرتهم كانت كعلانيتهم، لا يمارون ولا ينافقون ولا يداهنون.

ولعل مفتاح شخصية عالمنا الكريم هي مجموعة من الصفات المتكاملة تأتي في أولاها الصدق، والشجاعة، والإباء، واستقامة التفكير، والتواضع، وإيثار الحق على غيره مهما كان الثمن، وكراهية الظلم، وطلب العدل والإنصاف، والجهاد من أجل تحرير الأمة أفرادا وجماعات من ربقة الذل والاستبداد؛ فكثيرون لا يعرفون أن الشيخ الغزالي –

عليه رحمة الله– نشأ في بيئة ريفية يطحنها الاقطاع ويستغلها المُلاّك من أرباب الباشاوات والأمراء آنذاك، فأبصر المظالم عن قرب، وأحس بالآلام عن معايشة ومكابدة، وأثّرت في نفسه صورُ الفلاحين والمزارعين، وهم لا يأخذون من خيراتهم إلا الفتات، ولا يوفون من جهدهم وكدحهم إلا القليل، لذلك نشأ مرهف الحس، حي الوجدان، يقظ الضمير، مشدودا بفكره ونفسه وطاقته الى رفع المعاناة عن الكادحين والمظلومين، ومنذ أن التقى بالإمام المجدد حسن البنا –عليه رحمة الله– ومضى معه في تربية الجيل المؤمن، إلا وأطلق الصيحات تلو الصيحات يطلب العدل والإنصاف، ويمهد الطريق للعودة الى عدل الاسلام وتحرير المستضعفين. وقد كان يصدِّر كتبه الاولى بهذه العبارة: «في سبيل الله والمستضعفين»، وجاء في مقدمة كتابه الاسلام والاوضاع الاقتصادية هذه العبارة: «يا ضحايا الكتب والفاقة! لقد نزل الدين الى جانبكم فقفوا إلى جانبه، إن الشفاه التي تأمر بإذلالكم يجب أن تقص، وإن الأيدي التي تمتد إليكم بالعدوأن يجب ان تقطع...»، ولهذا كتب «الاسلام والمناهج الاشتراكية»، «الإسلام والأوضاع الاقتصادية» و «الإسلام والاستبداد السياسي».

وقد استطاع بعقليته الهاضمة المستوعبة، وبيانه الرائع الأخّاذ، وجرأته وشجاعته وصدقه، أن يعبر عن قيم الإسلام ومقاصده الكلية، ومشروعه الحضاري، بحيث أصبح إماما يؤخذ عنه ويقتدى به.

لقد ثبت الله به المؤمنين حينما اعتقل في نهاية الاربعينات، وأصبح قائدا وإماما لمعتقل الطور، وتتملذ على يديه الشباب والمعتقلون، واستمعوا إلى تلاوته الكريمة للقرآن، فقد كان تاليا متدبرا ومؤثرا، وكانت له المحاضرات... وكانت له الشجاعة العظيمة من الوقوف أمام جور وصَلَف رجال البوليس آنذاك، وأوقفهم عند حدهم ودبر حياة الألوف هناك، وحافظ عليهم حتى جاء الله بالفرج وانكشفت الغمة، واستقالت الحكومة، فاذا هو يقف ويَحْمَد اللهَ ويُنْشِدُ قول شوقي:

زمان الفرد يا فرعون ولى — وزالت دولة المتجبرينا
وأصبحت الرعاة بكل ارض — على حكم الرعية سائرينا

ويمضي الزمن، ويأتي مؤتمر الاتحاد الاشتراكي، فيقف ويصدع بالحق، ويقول كلمته الرائعة: (إني استصرخ الامانة في نفس الامين العام) ولما حاول اليساريون أن يستهزئوا به، ويتهكموا عليه، جابههم، وكبتهم من على منبر الازهر، وتحمله الجماهير الغاضبة حينذاك وتذهبُ إلى جريدة الاهرام...، ويقيض الله له الشيخ أبو زهرة -رحمه الله- يدافع بجواره وآخرين وينقذونه من ظلم السلطة وعسفها، ويقول كلمته الرائعه: (إن العمامة التي تتهكمون عليها قاومت الإقطاع والظلم وكتبت مثنى وثلاث من الكتب في الوقت الذي كان فيه أكثركم يعملون قوّادين لفاروق).

لقد كان يتألم لآلام الأمة، ويعيش محنتها وكثيراً ما سمعته وهو يقول:

وقالوا قد جننت فقلتُ كــلاّ	وربي ما جننتُ ومــا انتشــيْتُ
ولكني ظلمتُ فكدتُ أبكي	من الظلـم المبين وقد بكيـت
فـإن المــاء مـاء أبـي وجَــدّي	وبئري ذا حفرت وذا طــويــت

لقد كان سَمْتُه الصدق في كل أحواله: مع نفسه، وفي عمله الوظيفي، ومع إخوانه، فاذا رأى أمراً يمضي على عوج سارع بالصدع برأيه والوقوف عنده، وحدث ذلك أيضا مع إخوانه في الحركة التجديدية الكبرى (الاخوان المسلمون). ولأنّه كان متجردا للحق مخلصا لله عز وجل لم يكن يتعصب لرأيه ولا يتحيز لنفسه، فاذا وجد أن من خاصمه فاء الى الحق وعاد إليه، كان يتناسى كل شئ ويعود من حيث بدأ، نفسا طيبة وروحا سمحة كريمة، بل لقد رأيته أكثر من مرة يتنازل عن حقه إذا وجد إنصافا لمظلوم أو أخذا بيد ضعيف محتاج وكثيراً ما سمعته يردد:

إن الــذي بيــني وبيــن بنــي أبـي	وبين بنـي عـمـي لمختــلــف جـدا
فان أكلوا لحمي وفرت لحومهـم	وإن هم هووا غيي طلبت لهم رشـدا
وإن زجروا طيرا بنحس تمرّ بــي	زجرت لهم طيـرا تمـر بـهـم سـعـدا
ولا أحمل الحقد القديـم عليهـم	وليس زعيم القوم من يحمل الحـقـدا

كان رحمه الله ذا أنف حمي وغيرة أبيّة، وإنْ أنس لا أنسى يوم صدور قرار حل الاوقاف وضمّها الى ميزانية الدولة، لم يأبه بوظيفة ولا بمركز في الوزارة، ولكنه اتصل بالناس وبكل من يعرف من أهل الخير، طلب إليهم إرسال البرقيات، احتجاجا وطلبا لإلغاء هذا القرار ولتكن العواقب ما تكون. لقد كان صدق فيه قول القائل:

متى تجمع القلب الزكي وصارما وأنْفا حَمِيّا تجتنبْكَ المظالم

وقول ابي الطيب:

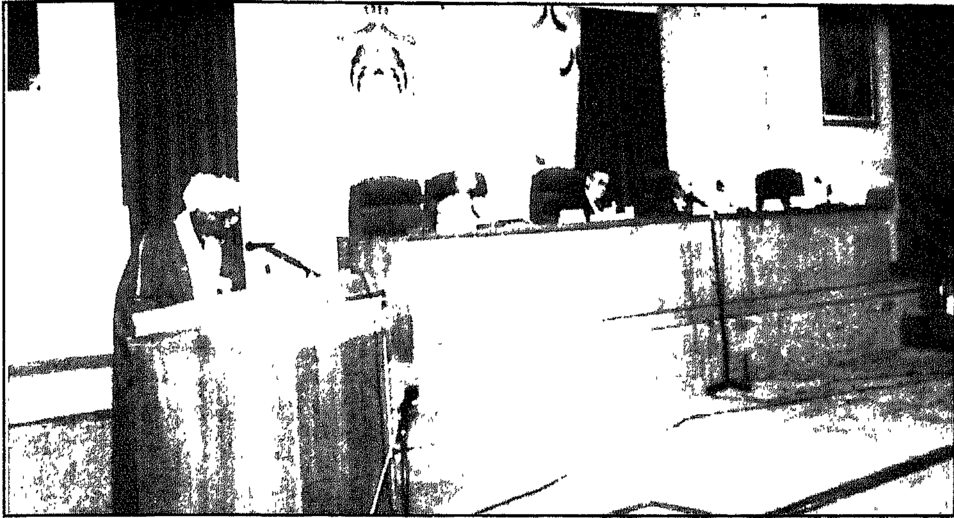
على قدر أهل العزم تأتي العزائم وتأتي على قدر الكرام المكـارم

وتكبُر في عين الصغير صغـارُهـا وتصغُرُ في عين العظيم العظائم

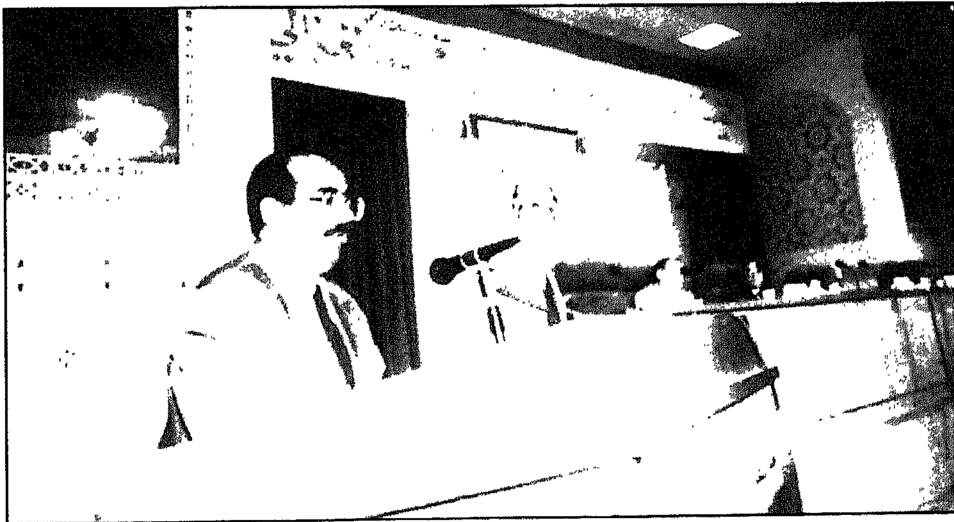
لقد وقف للعلمانية واللادينية بالحجة القاطعة والكلمة الفاصلة، لم يهادنها، ولم تلن قناته، بالكلمة والمقالة والكتاب والمناظرة؛ بل وفي ساحة القضاء، يوم سئل عن الحكم فيمن ارتد وجاهر بالكفر، فقال انه مهراق الدم. وقامت قيامة العلمانيين وكان الجو ساخنا متلبدا فلم يأبه ولم يتزحزح، وكان كالطود الشامخ والكتيبة الثابتة ثبت الله به الحق ورد كيد الكائدين.

ومع هذه الحمِيّة والشجاعة والغَيْرة كان الشيخ يحمل قلبا وديعا مخبتا الى ربه منيباً إليه، ذا خشية وتضرع. كان دائم التلاوة لكتاب الله عز وجل، عظيم الحب والتوقير لرسول الله وأصحابه، فقد فقه السيرة وتأملها وعدد أخلاق المسلم من خلال كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ، فظهرت هذه الاخلاق في حياته حبا وحنانا وخفضا للجناح ورحمة بالفقراء والمساكين. كان جوادا كريما... بعيدا عن أثرة المادة وطغيانها.. لقد طلب إلى ناشري كتبه أن يبيعوها بنفقات الطباعة رغبة في تيسير العلم وعونا لطلابه... لقد كان بيته مقصدا لطلاب العلم، وملاذاً للمتعبين خاصة من أبناء البلاد التي تعاني الازمات، وترزح تحت ظروف القهر. وسوف لا أنسى ترحيبه بالطلاب الأحباش وغيرهم حينما قدموا فراراً من الظلم ورغبة في طلب العلم كيف عاونهم واحتفى بهم وآنس غربتهم ومد يد المساعدة لهم.

ومهما عددت من أخلاق شيخنا وصفاته، فلن أستطيع أن أحيط بها في هذه العجالة. ويكفي هذه الاشارات تنبئك أنه كان أمة وحده، نسيجا ومعدنا وعلما وعملا وحركة. وسيظل شيخنا منارة هادية ومصدر إلهام للسائرين في طريق الله الحاملين لرسالة الاسلام، مثلا حسنا وقدوة فذة، في وقت قل فيه العلماء العاملون، وازدحمت فيه المؤامرات وتكاثرت فيه المحن، فسلام على شيخنا في الخالدين المجددين من الأئمة الكرام والصديقين والشهداء والصالحين، فلقد أحسن العمل وبذل المهجة وجاهد في الله حق الجهاد، فطوبى له مع الصالحين الخالدين، ويرحمه الله الرحمة الواسعة، ويجزيه خير ما جازى عالماً عن أمته، وجمعنا به أبرارا متقين غير مبدلين ولا مغيرين، وآخر دعوانا أنِ الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد في الأولين والآخرين،،،



الدكتور محمد عثمان صالح يعقب في الجلسة الأولى



الدكتور أحمد الأصبحي يعقب في الجلسة الأولى

الشيخ الغزالي ورؤيته المنهجية للفكر الإسلامي والإنساني

الدكتور علي جمعة

أستاذ أصول الفقه في جامعة الازهر

١. الشيخ محمد الغزالي –رحمه الله تعالى– من أئمة المسلمين الأفذاذ الذين ملأوا الأرض نوراً وهداية كما ملأوها علما وعملاً، ودراسة الشيخ محمد الغزالي وإحياء ذكراه من الأعمال الصالحة التي يتقرب بها العبد المسلم إلى ربه، فقد كان الشيخ –رحمه الله– من أهل القرآن محباً له، تالياً لآياته، متدبرا معانيه، واقفا عند حدوده، يحمل في قلبه هموم المسلمين؛ بل هموم الإنسان من خلال كلمة الله للعالمين. كان –رحمه الله تعالى– محبا لذلك الكتاب العظيم حتى ملأ عليه حياته فعاش به، ملأ عليه فكره فسار على نوره، وملأ عليه وجدانه فظهر في صوته ودمع عينيه، وخلقه مع ربه وخلقه مع الناس، فمفتاح شخصية الغزالي أنّه من أهل القرآن.

٢. وأي رؤية منهجية للفكر الإسلامي والإنساني للغزالي ستؤول بنا إلى محددات القرآن الكريم وما رسمه للبشرية من طريق مستقيم اتبعه من اتبعه وحاد عنه من حاد. وتحديد رؤية الغزالي لذلك تستلزم تحديد رؤيته لكتاب الله، وكيف كان يفهمه، وكيف كان يتعامل معه؟ وكيف كان يقايس الأمور إليه؟ وكيف كان يتأمل فيه؟ وكيف كان ينقله إلى الآخرين مسلمين وغير مسلمين؟

وهذا نجده في كتبه، وفي مقالاته، وفي محاضراته، وكلماته، وفي لفتاته، وحركاته، وسكناته حين صَحِبْناه

٣. ولما اجتمع عدد من المفكرين لمقاومة الأزمة الفكرية التي يمر بها المسلمون في العصر الحديث، وحاجتهم إلى تحديد مواقفهم تجاه التراث الإسلامي بمنهاجه ومسائله، وتجاه التراث الإنساني بمداخله، وملابساته، وتطوره، وتجاه القرآن الكريم، باعتباره المصدر الأول للتشريع والكلمة المطلقة عن الزمان والمكان، فهو

كلام الله القائم بنفسه سبحانه؛ وتجاه السنة النبوية الشريفة، باعتبارها المبين العملي التطبيقي لكيفية إيقاع الوحي على الواقع، وجاء اقتراحُ إنشاء المعهد العالمي للفكر الاسلامي للقيام بتبني هذه القضايا من الناحية الفكرية والسعي لإثارة الفكر حولها، رأينا الشيخ الغزالي قد التحق بذلك الركب ودافع عنه وقام به، ورآه امتدادا لفكر محمد عبده ورشيد رضا وباقي المصلحين، وأنه خطوة إلى الأمام في طريق تجديد الدين وإحياء علومه. وتحقيق ظهوره على الدين كله وهيمنته المطلقة على العالمين.

منهج الشيخ رحمه الله

٤. نقدم لذلك بالرؤية الكلية التي تؤخذ من مجموع ما كتب فنقول:-

إن مصادر المعرفة عند الشيخ، رحمه الله، كانت تتمثل في القراءتين قراءة الوحي وقراءة الوجود، حيث إنّ الوحي والوجود معا من عند الله (ألا له الخلق والأمر) وعندما أمرنا بالتعرف على الحق أمرنا بالقراءتين ﴿اقرأ باسم ربك الذي خلق... اقرأ وربك الأكرم الذي علم بالقلم...﴾؛ أي قراءة الوجود والواقع من حولنا وقراءة الوحي الذي علّم بالقلم. وهذا ينشئ المقياس الذي سيحاكم به الشيخ كل نتاج فكري، سواء من المسلمين أو من غير المسلمين، سواء أكان قديماً أو حديثاً؛ فالإسلام يأمر بالقراءتين حيث تفسر كل قراءة الأخرى، وحيث التطابق التام لوحدة المصدر وهو رب العالمين، فلا تناقض بين الكتابين كتاب الله المسطور وكتابه المنظور، ولم يقع تحريف ولا تخريف، كما وقع في الأديان السابقة، عندما فارَقَ الكتابُ المسطور الكتابَ المنظور، فوقع ذلك الصراع المضحك بين الدين والعلم، أو بين الوحي والوجود فإذا رأينا من يريد أن يتمسك بالوحي وينكر الوجود -حتى بلغ ببعضهم إنكار ما أصبح محسوساً للبشر- فعلينا أن ننكر ذلك؛ لأنه ليس هو الحق، وعلينا أن نشدِّد النكير عليه، باعتباره قد ارتكب خطأ في المنهج، يضعف دين الله في نفوس البشر، ويؤخر ولا يقدم، ويضر ولاينفع.

حتى رأينا من ينكر أن الأرض كروية، يقول القرطبي في تفسير قوله تعالى في سورة الكهف ﴿ما أشهدتهم خلق السموات والأرض ولا خلق أنفسهم وما كنت متخذ المضلين عضدا﴾: «وادعى أهل الهندسة وابن الراوندي أن الارض كرة»، ثم يرد عليهم في ذلك، وهو خطأ من القرطبي ناتج من قلة معلوماته عن الكون. نرى عكسه عند ابن حزم في الفصل وابن تيمية في الرسالة العرشية؛ حيث يتبنّيان عكس ذلك ويشددان النكير على رأي القرطبي، والمسألة وإن كانت بسيطة في نفسها إلا أننا ننظر إلى المنهج الذي وراء الآراء حيث يحاكم الشيخ الآراء إليه.

٥. ويرى الشيخ –رحمه الله– أن الاقتصار على قراءة الوحي كما عليه كثير من التراث الإسلامي خطر عظيم وسير بالأمر على إحدى رجليه دون الأخرى، وأنّ فصل الوجود عن الوحي والاكتفاء به خطر عظيم، بل هو أعظم من الأول، والحضارة لا تقوم إلا على القراءتين وسعادة الإنسان لا تتم إلا بهما.

فلا بد إذن من قراءة صحيحة للكتاب والسنة، والقراءة الصحيحة لهما تتمثل في القراءة الشاملة التي لا تجزيء الفهم، ومن هنا دعا إلى التفسير الموضوعي، وتجاوز التفسير الموضعي والتجزيئي الذي شاع عبر التاريخ الثقافي الإسلامي.

ولبناء المنهج الفكري الذي يحقق القراءة الصحيحة، فإن الشيخ –رحمه الله– ألّف المحاور الخمسة في القرآن، وكتب «كيف نتعامل مع القرآن» في مدارسة مع أ. عمر عبيد حسنه، وكتب «السنة النبوية بين أهل الفقه وأهل الحديث»، و«التفسير الموضوعي للقرآن الكريم»، فوضع أسس فهمه ومنهاج تعامله مع الكتاب والسنة. ولابد أيضا من قراءة صحيحة للكون فألّف «تراثنا الفكري في ميزان الشرع والعقل».

٦. ومنهج الشيخ –رحمه الله– يتمثل أيضاً في خصائص كلمة الله، وأنها عامة للبشر كلِّهم في كل زمان ومكان، وشاملة لحياة الإنسان: في المادة والروح والعقل. ويخاطب كل الأشخاص، وكل المعتقدات. ومن هذه النظرة فهم الغزالي الكتاب وفهم كيف نطبقه على الواقع، وهذا الجانب أساس في فهم ما ذهب إليه في شأن الأخلاق، وما ذهب إليه في شأن المرأة، وما ذهب اليه في شأن الفقه الاسلامي،

وكان وراء قبوله وردّه لنتاج الفكر الغربي، وقبوله ورده لنتاج الفكر الاسلامي؛ فكل ما يؤدي إلى عالمية كلمة الله –إن صح التعبير– قال به؛ وكل ما يؤدي إلى شخصنة الدعوة في شعب دون آخر، أو زمن دون زمن، رفَضَهُ ونَقَضَهُ ونَقَدَهُ، مرة باللين ومرة بالحِدَّةِ التي كان يسميها (حرارة الدعوة).

٧. ويتمثل منهجه أيضا في التفرقة بين القطعيّ والظنيّ، وتحديد مساحة كل منهما، فكان يقبل النقاش والحوار داخل المذاهب الإسلامية، أو داخل الفكر البشري، مادام في نطاق الظن، وما يمكن أن يكون فيه من رأي، ولا يقبل النقاش إن كان الأمر على سبيل القطع، الذي لا يمكن فيه الخلاف، ومن هنا رأيناه يتمسك بالإجماع الصحيح في كثير من مسائل الفقه، حيث يُحَوِّل الإجماع النصي وإن كان ظنياً إلى قطعي، وهذا الجانب من منهجه يفسر كثيراً موقفه من جزئيات الفكر الاسلامي في تراثه أو حاضره، وموقفه من جزئيات في الفكر الغربي أو الإنساني بعامة.

٨. ويتمثل منهج الشيخ –رحمه الله– أيضاً في البحث عن المعاني وتجاوز الألفاظ، فإن الباحث عن الحقيقة من الألفاظ يهلك، ومن هنا قبل الديمقراطية ولم يَرَ فيها ما يعارض الشورى، ودعا إلى العدالة الاجتماعية، بل إلى الاشتراكية في مرحلة من مراحل فكره ودعوته، ولا يقِفُ بهذه الألفاظ عند الشائع من معانيها أو مصطلح أهلها لها، بل يتجاوزه إلى المعاني التي تؤول إليها.

٩. ويتمثل منهج الشيخ أيضا في الاجتهاد الملتزم والتجديد المتأني. ومن المعروف أن الاجتهاد، إنما هو وليد التفاعل والتعامل مع الواقع، ولا يمكن أن يكون إلا بممارسة العمل في واقع الناس، وهذا الذي يجعل كثيراً من العلماء يظنون انغلاق باب الاجتهاد، حيث غاب التفاعل المؤثر واتخاذ القرار عن الواقع. ولكن الشيخ نزل يتعامل مع قضايا العصر تعامل المتفاعل مع الواقع، فوجد نفسه قد اجتهد في أمور كثيرة، كانت له فيها خيارات فقهية، ولكنه كان لا يخرج بالكلية عن التراث، فرأينا له رأيا في حَدِّ الرِّدَّةِ، وله رأي في وقوع الطلاق بمجرد اللفظ، بعد شيوع الاستهانة به بين المسلمين، وله رأي في مسائل الميراث، والوصية، والزكاة ومصارفها، وغير

ذلك كثير مما يعد من اختيارات الشيخ، التي لم يشذ باجتهاده فيها عن الموروث الفقهي عامة، وهذا الجانب من منهجه، هو الذي جعله ينقل موضوع الخطاب الاسلامي إلى قطاعات لم تعهد في الماضي كالبيئة، ونقل التكنولوجيا، والتصنيع، وأمور الحكم، والسياسة، والاجتماع.

١٠. هذه اطلالة سريعة على منهج الشيخ في تفكيره وتقويمه، حيث يرى الوحي والوجود مصدري المعرفة، ويرى القراءتين منهاجا للحضارة، ويرى استخلاص الحقائق من المعاني، ويرى الاجتهاد الملتزم، ويرى التفرقة بين القطعي والظني، ويرى ما ذكرناه في صورة نسق يتكامل به التفكير والتقويم بإزاء التراث الإسلامي والإنساني، فرحم الله الإمام ونفعنا به وبعلومه، آمين.

مناقشات الجلسة الأولى

تعقيب محمد عثمان صالح/ مدير مركز أبحاث الايمان في الخرطوم/ السودان

على ورقة د. أحمد العسال

بسم الله، والحمدلله، والصلاة والسلام على أشرف رسل الله محمد بن عبدالله وعلى آله وصحبه ومن والاه وبعد، السلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

فأشكر لكم أيها الأخوة الكرام دعوتكم الكريمة للمساهمة في هذه الندوة الهامة، التي تنعقد حول العطاء الفكري للشيخ الإمام والأستاذ الهمام المرحوم محمد الغزالي، رحمه الله رحمة واسعة، وأسكنه الفردوس الأعلى مع النبيين والصدّيقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً.

وفي بدء حديثي أحب أن أدوّن ملاحظتين:

الأولى: حول هذا الوفاء لأهل العطاء؛ إذ تنعقد هذه الحلقة الدراسية في ذكرى عَلِم من أعلام الفكر والدعوة كان -رحمه الله- دائب الحركة، موصول العطاء، ساهم مساهمة مقدّرة في البناء الفكري والحركي للدعوة الإسلامية في هذا القرن الميلادي الذي نشهد نهايته، على ما مرت به من أحداث عظيمة، ومواقف أليمة، تابعها شيخنا بكل عزيمة ورجولة، حتى شُهِرَ بمواقف العزّة الذي لا يقبل طأطأة الرؤوس.

الثانية: هي تسجيل الافتخار والثناء على هذا التعاون الفريد بين ثلاث مؤسسات علميّة كبيرة في الأردن وهي: المعهد العالمي للفكر الإسلامي، والمجمع الملكي لبحوث الحضارة الإسلامية (مؤسسة آل البيت)، وجميعة الدراسات والبحوث الإسلامية. فإن دل هذا التعاون على شيء، فإنما يدل على نضج التجربة، وتجاوز ما كان يحدث في دنيانا المليئة بالتطلعات الفردية والحساسيات غير المبررة، حتى كاد العمل الجمعي أن يصبح

رابع المستحيلات. ولكن الحمدلله ها أنتم تقدمون لعالَمِنا المثقل بالحساسيات أنموذجاً فريداً في التعاون حول قضية فكرية هامة، وهي تثمين العطاء الفكري لداعية هذا العصر الملهم المرحوم محمد الغزالي، أجزل الله له العطاء في الفردوس الأعلى.

أيها الأخوة الكرام: كان من حسن الطالع لي أن أهبط عمان بعد مشاركتي في مؤتمر ببيروت، حول القدس الشريف -لعل بعض الحضور لهذه الندوة قد شاركوا فيه أيضاً، لأجد أمامي هذه الحلقة الدراسية، وكلنا طلاب علم ودراسة حتى آخر أيامنا، وقد جاء بي بشارة الدعوة لها في مقر نزولي من الأخ الكريم الأستاذ الدكتور فتحي ملكاوي، فأشكر له هذا الاهتمام، كما أشكر له أن وصلتني ورقة «الجوانب الخلقية والنفسية للشيخ محمد الغزالي -رحمه الله- التي كتبها أستاذنا الكبير العلامة المبارك الدكتور أحمد العسال، الذي تشرفت بمعرفته منذ أكثر من ربع قرن في بريطانيا، وكان لنا نِعْمَ المعلِّم القدوة، والأخ الكبير الحاني على إخوانه الصغار في محنة الغربة، التي أحلناها معاً إلى واحة إخاء، وساحة لقاء للفكر الإسلامي المتجدد مع الوافدين لطلب العلم من شتى البقاع.

بعد هذه المقدمات الضرورية، والانطباعات الشخصية، التي طالت بعض الشيء، أجدني في موقف عجيب؛ إذ كيف يعلق التلميذُ على ما كتبه شيخُه؛ ولكن على طريقة القدماء دعوني أقول: إنها هوامش موجزة على متن ما كتبه الشيخ أطال الله في عمره.

الهامش الأول: عن أهمية موضوع الجوانب الخُلُقية والنفسية للشيخ محمد الغزالي، حيث إن دراسة هذه الجوانب يستمد منها هذا الجيل والأجيال اللاحقة الروح الحية، والقدوة المرجوة، حتى يسير على درب الدعوة الطويل المليء بالصوارف والمشكلات، التي تحتاج إلى عزائم الرجال للثبات على الحق. ومَنْ مِثْلُ الإمام محمد الغزالي يمكن أن يعطينا النموذج العصري الفريد للقدوة الحسنة لمثل هذه المواقف؟

الهامش الثاني: أن الشيخ الدكتور أحمد العسال هو أعرف الناس بالمحتفى به، وبفكره، ومواقفه؛ لأنه عاصره فترة تاريخية في عمر الدعوة، كان الإمام الغزالي أحد فرسانها؛ بل من أجرأهم على المواقف التي تظهر فيها السمات الخلقية والنفسية العالية

لرجل مثله. وإني أدعو شيخنا العسال إلى كتابة أوسع وأعمق عن الإمام الراحل الغزالي، يخاطب بها جيل الدعوة الحالي، وعبر كل الأجيال اللاحقة، حتى تبدو القدوة الأسوة ظاهرة ليقول قائلهم:

فتشبهوا إن لم تكونوا مثلهم إن التشبه بالكرام فلاح

الهامش الثالث: إنني أتفق اتفاقاً تاماً مع فكرته القائلة بأن فكر العلماء الربانيين إنما خلدته سيرتهم الحميدة، وخلقهم الكريم، مما جعل كلماتهم حركة الروح واستمرار التأثير، وفي ذلك يقول الشهيد سيد قطب عليه رضوان الله: «إن كلماتنا تظل عرائس من الشمع حتى إذا ما متنا في سبيلها دبت فيها الحياة». لقد صدق الله الشهيد وَعْدَه فعاش فكْرُه، حيث ماتت آراء وأفكار كانت للترويج أو للتهريج. كما سيعيش فكر الإمام محمد الغزالي لأنه لاقى ربه صادعاً بالحق، ثابتاً على المبدأ.

الهامش الرابع: وهي أن الدعوة في فكر الغزالي كانت مرتبطة بواقع الحياة لتعالج قضايا الناس المعاشية، ومن ثم كانت كتاباته تُصَدّر بعبارة «في سبيل الله والمستضعفين». وما أجلّه من شعار ينبغي أن يكون دائماً ومستمراً هدفاً لأي كاتب أو مفكر؛ لأن الدعوة إنما جاءت لتخرج الناس من عبادة العباد لعبادة رب العباد، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام، ومن ضيق الدنيا إلى سعة الآخرة. وأيّة دعوة لا تحس بآلام البؤساء، ومواجع الضعفاء، وإن استقام لها الأمر، فإلى حين، وهكذا علمتنا تجارب التاريخ القريبة والبعيدة.

الهامش الخامس: أضعه على شكل تساؤل هل ولّى زمان الفرد

وأصبحت الرعاة بكل أرض على حكم الرعية سائرينا

كانت هذه أمنية عزيزة ولا تزال... أمنية تراءت للإمام الغزالي وهويخرج من معتقل الطور في نهاية الأربعينات، وهي لا تزال كذلك، ونحن في نهاية التسعينات. إن الجهاد في سبيل تحقيق هذه الأمنية ما يزال مطلوباً الآن أكثر من أي وقت مضى، ونحن نعايش عدم تداول السلطة إلا بالدماء والثورات. يحدث ذلك في العالم الإسلامي، في حين أن جيراننا

من غير المسلمين «على حكم الرعية سائرينا»، فيتداولون السلطة بالاحتكام إلى الجماهير في انتخابات لا تشوبها شائبة تزوير (على نمط ٩٩.٩٪).

الهامش السادس: هذه الفضيلة التي يتحلى بها الشيخ الغزالي، وهي فضيلة الصدع بالحق، أنّى لنا بها، سواء كان ذلك أمام المتسلطين، أو كان ذلك داخل شوارع الدعوة أو بين دهاليزيها.. وكيف بنا أن نُفهِمُ بعض من نحبهم أن الجرأة في الحق لا تعني قلة الأدب، أو أن الصدع بالحق لا يعني العداء الشخصي، ومن جانب آخر كيف يستقر في أذهان من يريلله مقالاً في حالة ما، أنّ مقاله يقع من القلوب بموقع إذا جاء بأسلوب رصين «بالحكمة والموعظة الحسنة»؟ كيف نقنع بعض من توجه لهم كلمة النصح، أنّ الناصح ليس خارجاً من الصف، وإذا كان نصحه في غير موضعه، هل ينبغي علينا أن نعين الشيطان عليه، أم نواجهه بنصح أبلغ من نصحه، ونستل منه سخائم نفسه بدل تصنيفه وطبعه بطابع اللجاج.

الهامش السابع: يقودني إليه بيت الشاعر الحكيم الذي كان يردده الشيخ:

ولا أحمل الحقد القديم عليهم وليس زعيم القوم من يحمل الحقدا

كم يكون حالنا متغيراً في بلاد العرب والمسلمين لو أن سُراتنا عملوا بهذه النصيحة؟! لو أن دعاتنا تمثلوا هذا السمو الروحي الذي يقود إلى العفو والمسامحة، وتجاوز الطعنات التي لا تخلو منها دنيا البشر. وهل إذا لم يحمل أحد الحقد القديم يتهم بأنه غبي أو حمار؟ لا أعتقد ذلك في مجتمع متحضر. فكم شهدنا في التاريخ أنبياء وزعماء ورؤساء صبروا على ما كذّبوا، وأوذوا، ولسان حال مادحهم يقول مع القائل:

ليس الغبي بسيد في قومه لكن سيد قومه المتغابي

الهامش الأخير: حول منهج العبادة القويم الذي سلكه الشيخ الإمام محمد الغزالي، فانكبابه على تلاوة القرآن الكريم وتمثله لسيرة الصالحين، وحبه لطلاب العلم، وسخاؤه وجوده على الناس أجمعين هي السمات التي يتربى بها المتربون، ويعمل لنَيْلِها العاملون، ويسير على دربها القاصدون إلى الله رب العالمين.

إنها حلقة دراسية لها مغزاها، فجزى الله القائمين على تنظيمها، فهي بحق وقفة إجلال لعالم جليل.

جعلنا الله من محبيه على ما قدّم من عطاء. والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

تعقيب د. أحمد الأصبحي/ اليمن
على ورقة د. علي جمعة

بداية أعتذر للباحث الدكتور علي جمعة على هذا التعقيب، الذي لم ير ورقته القيّمة حتى يفيَها حقها في المناقشة. على أن ملازمة الباحث الفاضل لفقيد الأمة والإسلام المرحوم الشيخ محمد الغزالي، وعملهما معاً سنوات طويلة في حقل العمل الفكري، والإشراف على مكتب المعهد العالمي للفكر الإسلامي بالقاهرة، جعل ورقة العمل التي استمعنا إليها، عامرة بدقة المعلومات وصحة الأفكار، وقد استوفى بها تحديد معالم رؤية الغزالي المنهجية للفكر الإسلامي والإنساني.

وحَسْبُ المعقب في تعقيبه أنه واحد من بين آلاف عديدة، صحب مؤلفات الشيخ الجليل منذ الستينات، وقد تكوّن لديه، ولمن حظي بقراءة هذه المؤلفات، تصور متكامل حول رؤيته المنهجية. وسأوجز بحجم هذا الهامش الضيق أبرز ملامح الرؤية المنهجية في فكر شيخنا الجليل طيّب الله ثراه.

فقد عمل الشيخ محمد الغزالي منذ بواكير نشاطه الفكري على ترسيخ المبادئ الأساسية للفكر الإسلامي، كي تكون الانطلاقة قوية، وفي مسارها السليم، وهو من استوعب مناهج الأصوليين، ومناهج الفقهاء، ومناهج المتصوفّة، ومناهج اللغويين، ودقق، ومحّص، وغربل، وقارب، واستخلص؛ فجاءت رؤيته المنهجية تعمق الركائز الإيمانية، وتجذر أصول العقيدة، وتعيد المسلم إلى المنابع الصافية من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ؛ فالتوحيد مبدأ كل شيء، وغاية كل شيء وأساس وحدة الخلق، وعليه يقوم بناء الكون، والحياة، والإنسان، والكائنات؛ والخليقة كل متكامل، والنظام الكوني تضبطه السنن

والقوانين؛ والوعي بهذه السنن، والأخذ بها شرط لازم للنظام المعرفي والعلمي، وضمان لاستقامة الحياة وعمرانها، ولاستقامة خلقِ المسلم وانضباط سلوكه اتساقاً مع هذه السنن، وإعمالاً لها.

لذا فقد ذهبت رؤية الغزالي المنهجية إلى تأكيد الوعي بالسنن القرآنية، سنن الله وقوانينه في المجتمعات البشرية، والأخذ بها، ومن ذلك سنة التداول الحضاري وسنة المدافعة، وسنة التسخير، وقانون السببية، وقانون النصر، وسنة التغيير . وحذر من مغبة تعطيل الأخذ بهذه القوانين والسنن، وبيّن الآثار المدمرة لتعطيل قانون السببية، فقد ترتب على شيوع فلسفة الجبر التي عطلت قانون السببية تخلف أمتنا في عمارة الأرض، وانطفاء جذوة التفاعل والعطاء تحت تأثير سيادة التواكل، وتعطيل السنن الكونية والنفسية، وأصبحت الأمة تتلقى الانتصارت والهزائم دون وعي ودون استفادة، ودون البحث في أسباب النصر وعوامل الهزيمة. لذا فالشيخ الغزالي يدعو في منهجه إلى التعامل مع النصوص، وإعمال العقول وفقاً لقانون السببية بوعي وإدراك، حتى يتحول الإنتاج الفكري إلى طاقة حركية فاعلة، تغيّر الواقع وترقى به إلى الأفضل، وهذا هو الفقه المطلوب لآيات الله وسننه في الأنفس والآفاق.

وذهبت رؤيته المنهجية إلى ضرورة الربط بين العلم والسياسة، بين الثقافة والسلطة، حتى يكتسب القرار قوته ونجاحه، وتحتفظ الأمة بمتانة نسيجها وتماسكها. ويعيد الشيخ الغزالي أسباب وعوامل المشكلة الفكرية وأزمتها الحاضرة إلى بدايتها المبكرة عقب الخلافة الراشدة، عندما أخذ العلم ينفصل عن الحكم، فقد ترتب على ذلك تجمد الفقه السياسي والدستوري، وتجمد فقه العلاقات الاقتصادية والمالية، ثم تجمد فقه العلاقات الدولية، وما تلاه من إغفال للفروع الأخرى من فقه الحياة كفقه العمل والعمال وسواه.. وتعمقت الهوّة بين الثقافة والسياسة، وساد التخلف، وباتت المشكلة الفكرية تتعامل مع النصوص من واقع التخلف، وتشكلت الأزمات، وتشعبت، وحدث الفراغ الذي اتسعت هوته، وأضحى هذا التراث الموروث عاجزاً عن تلبية متطلبات العصر، فكان التغريب والاستلاب الفكري أحد الأبدال الانفعالية المحدثة.

لذا فقد فَرَّقَتْ رؤيةُ الشيخ الغزالي المنهجية بين الفكر والمنهج؛ فأزمة الأمة هي أزمة في الفكر، وليست أزمة في المنهج، فهناك معارف إسلامية صحيحة طوتها عصور التخلف والانحطاط، فلم تقدّم للأمة، أو عرفها القليل، وكان ينبغي أن تعرفها جماهير الأمة. وهناك خرافات علمية وخلقية وعقدية فشت في كل البقاع، وتوطنت وما كان ينبغي أن تظهر، ولا أن تبقى طويلاً إذا قُدّر لها وجود. «وهناك تقاليد إسلامية عريقة لو سمع الجمهور بها لفغر فاه في دهشة، فهي غريبة عليه، بينما حلت مكانها تقاليد ما أنزل الله بها من سلطان، فإذا حاولت تغييرها –والحديث هنا للشيخ الغزالي– سمعت صيحات الفزع كأنك تغير مآثر الدين، لا مآثر الجاهلية».

ويمكن أن نَلْمَحَ رؤيةَ الشيخ النقدية التصحيحية للفكر الإسلامي في صريح عبارته التي يقول فيها: «وما أَحْسَبُ أمةً أهدرت ثروتها، وأرخصت رجالهاكمسلمي القرون الأخيرة، فلا جرم أنهم يحصدون اليوم عقبى ما فرّطوا واستهانوا. لقد جاء الأولاد بعد الآباء، وجاء الأحفاد بعد الأجداد، وهم جميعاً يتناولون أغذية ناقصة، ويحيون في أجواء معنوية موبوءة، فذبلت حياتهم، وضمرت أعوادهم، وكان أن سار العالم، وقعدوا، ووثب، وما زالوا يَحْبُون. وما ننكر أننا كنا مرضى،و ليس لنا في ميدان الإنتاج أثر، ولا في زحام الدنيا جهد، واتسعت الهاوية بين الحكومات والشعوب، وبين هؤلاء جميعاً والإسلام نفسه، فعمّت الفوضى وساد الارتباك كل شيء، وأضحى الإسلام الحق لا يكاد يبين في زحمة الموروثات التافهة، والعوج المطرّد، وفي زحمة الرّجس الجديد الذي وقع مع الاستعمار الغربي، حتى إن الفقراء إلى الحقيقة وهم يبحثون عن الإسلام تدمى أظافرهم في التنقيب عنه، فلا يجدون إلا ثقافة مغشوشة، أو أمماً إسلامية لا تدري الكثير عن دينها، وربما كانت زاهدة في المواريث التي خصّها القدر بها».

وهو في رؤيته المنهجية للفكر الإسلامي المعاصر، لا يحمّل جيل الحاضر كل أوزار الاضطراب القائم وأزماته الراهنة فيقول: «إن الاضطراب في المستوى الثقافي والسياسي لأمتنا لا يُسأل عنه جيل واحد، فنحن المسلمين الذي يسوؤنا ما يلقاه الإسلام اليوم من حظوظ سيئة وما نلقاه نحن من متاعب ثقيلة، إنما نجني تفريط أناس سبقونا، ونحصد ما

حظوظ سيئة وما نلقاه نحن من متاعب ثقيلة، إنما نجني تفريط أناس سبقونا، ونحصد ما غرسوا، دون أن يُغفل ذكر دور أعداء الإسلام في تلويث سمعته وحجب أنفس ما فيه، وتجسيم أسوأ ما يتّهم به».

وينتقل من النقد وتشخيص الداء إلى بعض الأمل في النفوس عبر سلسة من الرؤى والأعمال، ومن ذلك دعوته إلى تصحيح النظر إلى التاريخ.

فهو يرى أن التاريخ ليس سجلّ معارك حربية، منتصرة أو منكسرة، قدر ما هو سجلّ مستويات عقائد وأخلاق، وقدرة على تطويع الحياة للقيم الرفيعة، وآباؤنا الأوائل نماذج عملية لذلك كله.

ويصحح النظر إلى الحضارة المعاصرة والمدنية الحديثة التي لن تكون البديل الأنسب والأمثل للبشرية، ولن ترقى إلى مستوى إشباع متطلبات الروح وتحقيق التوازن في حاجات النفس الإنسانية، بل هي على العكس من ذلك، فقد حوّلت البشر إلى عبيد للتراب، وجعلت جماهير غفيرة تحيا ليومها، وتذهل عن آخرتها، وتكدح لمآربها القريبة، ولا تفكر تفكيراً جاداً في مرضاة الله والعمل له. وقد طوعت المدنية الحديثة التقدم العلمي والتقني في جانبها السلبي لخدمة أخس الغرائز، وهيّأت العالم لحروب متلاحقة، لا يخرج من إحداها إلا ليستعد لغيرها، وعقلت القلوب بأطماع غير متناهية.

وهو لذلك ولسواه يهيب بأمتنا أن تقوم بدورها الرسالي، داعياً إلى المقاربة بين المذاهب والتيارات والقوى الفكرية الإسلامية المختلفة، سعياً إلى تحقيق وحدة الكلمة، ووحدة الصفوف؛ إذ لا ينبغي أن يكون الخلاف في الفروع سبباً في تقويض ما وحدته الأصول.

ورؤيته المنهجية في المقاربة تحض هذه القوى والتيارات على النهوض بمسؤولياتها إزاء الأمة، وتحثها على تكثيف الجهود وتجميعها في وحدة ثقافية، ودستور جامع ينظم شتى شؤون الحياة ومجالاتها الفكرية، والثقافية، والسياسية والاقتصادية، والاجتماعية، والنفسية وغيرها من مجالات العمران وبناء القوة والنهوض الحضاري.

وقد ضرب من نفسه مثلاً في ما كتب، وتحدث، ودعا، وحمل هموم الأمة ومقدساتها وحرماتها وكيانها، ودافع عن دينها ودحض الشبهات التي روّج لها أعداء الحق والحياة، وتصدى لما يحاك ضد الأمة من المؤامرات، ووقف على العديد من قضاياها الأساسية والملحة التي تتصل بالحياة المعاصرة، ودعا إلى تجديد الفكر وتطويره، وأدلى بدلوه إزاء مسائل الهوية، وحقيقة القومية العربية، وتطبيق الشريعة، ومفاهيم الشورى والديمقراطية والعدل الاجتماعي، وغيرها من القضايا والمسائل التي تشغل بال المسلم المعاصر، ونافح عن حقوق الإنسان وحرياته، وتحريره من الاضطهاد والاستعباد.

وهومع الآخر يؤمن بالحوار امتثالاً للهدى الإلهي الداعي إلى الحوار: ﴿وجادلهم بالتي هي أحسن﴾ ﴿ قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين﴾، فإن من أساسيات الوجود الإنساني التسليم عن يقين بالوحدة الحيوية لجميع أفراد المجتمع الإنساني، وذلك وحده يكفي أن يكون دافعاً قوياً إلى حوار ثقافات لالتقائها على كلمة سواء. وبحوار الثقافات نتدارك عجز التقنية التي لا تقوى على حل مشكلات الإنسان، لكونها في حد ذاتها مصدراً للقلق الدائم، وبحوار الثقافات نشخص كثيراً من المشكلات والمعضلات، ونكتشف الأسباب التي قد لا تعدو في معظمها عن أن كون مجرد انطباعات خاطئة متبادلة بين الثقافات.

وأخذاً بقانون المدافعة يرى الشيخ الغزالي أن المعرفة الإنسانية، والرفعة الاجتماعية لم تحتكرها على مر العصور قارة من القارات، وقلّما بقي جنس من الأجناس قديراً –لأمد الطويل– على قيادة العالم، وإنارة الطريق أمامه. فالأمم لا تطيق البقاء على أسباب المجد، والعظمة، أزمنة متواصلة، وسرعان ما تتسلل إليها جراثيم الوهن وتدب في كيانها علل التخلف، لكن العناية العليا لا تدع الشعلة المضيئة تسقط على الأرض، ويعم الظلام، وإنّ أمماً أخرى تهيئها ظروفها للبروز إلى الميدان، والعمل مكان الذين انسحبوا، ولا تزال تعمل في جد حتى يصيبها بدورها ما أصاب غيرها، فيعيد التاريخ نفسه، وبهذا السباق في ميادين الحياة تصلح الحياة. ﴿ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض، ولكنّ الله ذو فضل على العالمين﴾.

ولقد لفت نظرَ الشيخ الغزالي من هذه النقائض قولُ جبران: «الناس رجلان: رجل نام في النور، ورجل استيقظ في الظلام». لذا فإنه يؤكد في رؤيته المنهجية للفكر الإسلامي والإنساني على وعي الزمن، ودوره في التغيير، إذا ما تم الأخذ بأسباب الدعوة وواجب التبليغ، فيقول: «لم ينتظر الخالق من الجماهير أن تستجيب لرسوله فور سماعها له، ومن ثم أوجب عليه أن يبذر، وأن يترك النضج لزمان لا يُعرف مداه، وزمان يصحو فيه الغافل على مهل، زمان يعطى المخطئ فرصاً كثيرة للعودة إلى الصواب، زمان تنحل فيه العقد المنحدرة مع الوراثة، أو الوافدة مع البيئة، زمان تمحّى فيه الأعذار التي أقامتها الحياة الفاسدة، وسيطرت بها على المشاعر والأهواء، وذلك سر الوصايا الرقيقة التي حفل بها القرآن الكريم في صدر الدعوة الأولى: ﴿فذكر إنما أنت مذكر لست عليهم بمسيطر﴾، و ﴿إن الساعة لآتية فاصفح الصفح الجميل﴾ و ﴿واصبر على ما يقولون،واهجرهم هجراً جميلاً﴾. وفي أهل المدينة: ﴿ فأعرض عنهم وعظهم وقل لهم في أنفسهم قولاً بليغاً﴾. وفي من وصلت إليهم الهداية يذكرهم بقوله تعالى: ﴿كذلك كنتم من قبل، فمنّ الله عليكم، فتبيّنوا إن الله كان بما تعملون خبيراً﴾.

لقد جاء العطاء الفكري للشيخ الجليل متدفقاً من ينبوع الهداية، متصلاً به، ومتواصلاً مع الماضي والحاضر والمستقبل، متلمساً هموم الأمة ومتطلبات حياتها المعاصرة، بسعة أفق فكري وعلمي وخلقي، وبمنهجية إسلامية تحسن التعامل مع القرآن ومع السنة النبوية، ومع التراث الإسلامي والإنساني، جاهدة ما وسعها الجهد في بناء نظام معرفي متكامل، يتغيّا بناء المجتمع الإسلامي والإنساني، بناء استخلاف، وعمران حضاري، تنعم به البشرية جمعاء.

وهو في عطائه الفكري الثر لا تجده يثير حفيظة، ولا يشعل فتنة، ولا يقود إلى تزمت، ولا يحمل على تطرف، ويضع الآخر في موضع الحوار دون استعداء أو تهميش أو غمط لجهد أحد.

وأختتم التعقيب بالترحم على الشيخ الجليل، وأعتذر له، وللدكتور الباحث وللأخوة الحاضرين جوانب التقصير، خاصة وأن الفترة المحددة للتعقيب محدودة.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

تعليق د. عبدالغني قاسم/ من جامعة صنعاء: اليمن

١. في ظلال دراسة فكر الشيخ محمد الغزالي، وهو علم من أعلام التجديد الإسلامي في هذا القرن، أرى أن تتاح الفرصة لسائر أعلام الفكر الإسلامي لإعداد عشرة من القيادات الإسلامية في كل قطر عربي، وإسلامي، يتكامل إعدادهم فلا تجد نواقص معينة في شخصياتهم، فإن أمكن إعداد المئات من تلك القيادات فهو أفضل، فإن تكاثر العدد ليشمل الألوف فهذه بركة. المهم أن تختفي الشروخ، والنواقص، والخلاف الممزوج بالجرح والخدوش، حيث تجد شخصية تعتبر حجة في عِلْمٍ ما، أو تكون بارزة في خُلُقٍ ما، ولكنها قاصرة في جوانب أخرى ذات أهمية علمية أو خلقية، وتجد خلافات تحيّر الجيل في حدتها وعصبيتها. هذا مقترح أرجو أن يتبناه أهل الفكر هنا ثم ينقلوه إلى خارج القاعة، لإعداد القادة واستمرار إعدادهم بشكل متكامل.

٢. هناك جوانب كثيرة يجب تغطيتها في جولة قادمة تجلّي معالم هذه الشخصية المجددة العملاقة تشمل:

- البعد السياسي، والبعد الاقتصادي.
- وموقفه من التيارت، كالتبشير، والماسونية، والشيوعية.
- وموقفه من الفكر الديني، كالنصرانية واليهودية.
- وتنظيره لعوامل النهوض وعوامل الانهيار في التاريخ الإسلامي وفي الحياة الإسلامية.

- وتنظيره لعلاقة التيار الإسلامي، والحركة الإسلامية بالأنظمة الحاكمة ولا سيما ما ذكره في كتابه «الطريق من هنا».

هذا وغيره من أبعاد تحتاج إلى ندوة قادمة.

٣. وهناك جولة ثالثة نحتاجها يقوم بفعالياتها المتخصصون في كل علم من العلوم، التي ألف فيها الشيخ ونظّر، بحيث نتجاوز الثناء عليه كمجدد وداعية، لنقف وقفات موضوعية ناقدة من كل ما يمكن أن يتسع للنقد العلمي المنصف سواء ما تعلق بالمصطلحات كالديمقراطية، والاشتراكية... أو ما اتصل بمنهجية التعامل مع السنة النبوية، أو ما تطرق إلى قضايا معينة كقضية المرأة، فنقول: هنا أصاب، وهنا أخطأ، وهنا اجتهد كما اجتهد غيره وهناك متسع للخلاف.

٤. بالنسبة للديمقراطية، أراد الشيخ المرحوم أن يقول: إن المسلمين يعيشون حياة الاستبداد نتيجة تراكم القهر التاريخي الذي يمارسه حكامهم، ونتيجة التراكم التربوي للتطبيع الاستبدادي، ولم يكن المرحوم الغزالي يريد التبشير بالمنطلقات والقيم الغربية التي تشيع في حياة إنسان الحضارة الغربية.

وآخر دعوانا أن الحمدلله رب العالمين

تعليق د. علي سعود عطية/ جامعة الزرقاء الأهلية.

بسم الله الرحمن الرحيم وبه نستعين، أبتدئ هذه الكلمة أو التعقيب السريع بشكر الأخوة القائمين على هذا اللقاء، لقاء العطاء الفكري للشيخ محمد الغزالي، في المجمع الملكي لبحوث الحضارة الإسلامية والمعهد العالمي للفكر الإسلامي وجمعية الدراسات والبحوث الإسلامية. أسعدني أن أستمع في هذا اليوم إلى الكلمتين اللتين تفضل بهما الأستاذ الدكتور أحمد العسال والأستاذ الدكتور علي جمعة. والحقيقة أن الكلمتين مكملتان لبعضهما البعض من حيث إنّ الأستاذ العسال أشار إلى نشأة الأستاذ الغزالي -

رحمه الله- وكيف أن هذه النشأة صبغت حياته فيما بعد بطابعها وعلمته المطالبة بالحرية والعدالة والانصاف والقوة، المعاني التي يستمدها الإنسان من حياة القرية والبيئة البسيطة التي ينشأ فيها، ثم إن الأستاذ على جمعة تحدث أيضاً إضافة إلى هذا عن منهج الغزالي. والحق أقول إن الكلمة التي تفضل بكتابتها الدكتور علي جمعة على صغر حجمها تعتبر بداية قوية ومبدعة في السير بهذا الاتجاه في معالجة فكر الغزالي -رحمه الله- معالجة علمية موضوعية فقهية قانونية نفسية، وأنه كان يتجاوز الألفاظ إلى المعاني وأن كلمة الديمقراطية لم تشغل ذهنه كثيراً، بل ذهب إلى معناها وفحواها الحقيقي، وهو الشوري وأن اتجاهه في الاجتهاد كان اتجاهاً إلى القطعي وليس الظنّي، وهي المعاني، التي نحتاج إليها في حياتنا وفي منهجنا في تناول القرآن والدعوة بوجه عام. على أن البعد الأهم في نظري الذي خلد الغزالي وجعله عَلَماً من أعلام العصر هو كونه داعية، فالصحوة الإسلامية تحتاج إلى الدعاة فهذه المرحلة هي مرحلة دعاة، وإذا تشكل لدينا الداعية المسلم، فقد تشكل لنا رأس مال كبير نستطيع أن نستثمره، ونستطيع أن نستكمل المرحلة. وشكراً لكم.

د. يوسف علي غيطان/ مدير المركز الثقافي الإسلامي/ الجامعة الأردنية

بسم الله الرحمن الرحيم والصلاة والسلام على سيد المرسلين:

يا صاحب الهم إن الهم منفرج ... أبشر بخير فإن الفارج الله

إذا بُليت فثق بالله وارض به ... إن الذي يكشف البلوى هو الله

فالله يُحدث بعد العسر ميسرة ... لا تجزعن فإن الكافي الله

والله مالَكَ غير الله من أحد ... فحسبك الله في كل لك الله

الشكر والتقدير لكل القائمين على تنظيم هذه الحلقة الدراسية عن الداعية العظيم الشيخ محمد الغزالي، الكلمتان اللتان ألقيتا من قبل الأستاذين الفاضلين كانتا رائعتين. ذكّرنا الأخ الدكتور علي جمعة بما كان يدعو إليه فضيلة الشيخ الغزالي، وبخاصة ما يتعلق

بالدعوة العالمية، فهو أساس الإسلام، فالغزالي كان ينقد الدعوة الشخصية والدعوة المكانية، كثير أولئك الذين لا نذكرهم بالجميل إلا بعد مماتهم، أما في دنياهم فربما كنا نعترض عليهم أو نقلل من أهميتهم. إلا أن الشيخ الغزالي –رحمه الله– كان كبيراً وعظيماً في دنياه ونرجو أن يكون كبيراً أيضاً في أخراه عند ربه وعند إخوانه المسلمين، ثم الشكر والتقدير للأخ الذي عقّب على ذلك عندما قال: حبذا لو وجد عشرة في كل بلد إسلامي من أمثال الشيخ الداعية محمد الغزالي، وهذا بلا شك كلام ودعوة صحيحة، نتمنى على الله أن يوجد عشرة أو أكثر في كل بلد إسلامي كأمثال الشيخ محمد الغزالي، كان ينقد ويحارب وبشدة الذاتية والأنانية والخلاف، وبالأخص بين السادة الدعاة. وأذكر كلمة قالها في إحدى مدرجات الجامعة الأردنية، حيث قال: عندما زرت إحدى الولايات الأمريكية حصل خلاف بين المسلمين حول وضع اليدين في الصلاة، هل تضع اليد اليمنى فوق اليسرى، تحت الصرة أم على الصدر، أم أن الأفضل إسبال اليدين؟ وما يتعلق بحكم اللحية وطولها هل تكون طويلة بمقدار قبضة أو أكثر أو أقل؟ ووصل الشجار والاقتتال بين الدعاة أنفسهم في داخل ذلك المسجد إلى أن أمر حاكم تلك الولاية بإغلاق المسجد، لكثرة الخلاف والاقتتال الذي يحصل بين الدعاة أنفسهم في داخل المسجد. فحبذا لو تمثلنا بإنسانية الداعية الذي ينظر إلى الإنسان كإنسان. لو فعلنا ذلك لما كنا في ما نحن عليه من الهوان والضعف. كما قال عليه السلام: «لم يغلب اثنا عشرة ألفاً من قلة». ألا يوجد اثنا عشر ألف في عالمنا الإسلامي الواسع؟ حبذا لو وجد كأمثال فضيلة الشيخ محمد الغزالي.وشكراً وبارك الله فيكم.

اقتراح من د. يونس محيي الدين/ كلية الشريعة/ الجامعة الإسلامية بغزة.

عملاً بسنة فضيلة الشيخ القرضاوي في الكتابة عن شيخه الغزالي في حياته، ووفاءً لبعض حقه. أقترح أن ينبري أكثر من صاحب قلم من تلاميذ الشيخ القرضاوي للتدوين في مآثره في حياته.

سؤال من ناصر محمد عكور/ مديرية تربية إربد الأولى:

هل هناك فكر واضح للشيخ الغزالي عن العمل الإسلامي الجماعي، كسبيل لتحصين الأهداف الإسلامية وللتمكين لدين الله في الأرض؟ وهل يمكن للداعية الفرد، مهما كان ترحاله ومهما كانت أسفاره وندواته، أن تغني عن العمل الجماعي الإسلامي المنظم؟ وهناك من النصوص الشرعية من القرآن والسنة ما يدعم العمل الجماعي. مثل قوله تعالى: ﴿قل هذه سبيلي أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني وسبحان الله وما أنا من المشركين﴾.

سؤال من د. محمد غوزي/ الصحافة العربية في أوروبا:

هل يمكن لسعادة د. علي جمعة أن يساعدنا في فهم الموقف الصحيح للإمام الغزالي من قضية الجن والسحر؟ عِلْماً بأنها حسب معلوماتي المتواضعة من الأمور القطعية.

سؤال من طالب رضا الله:

لماذا لا يكون هناك مؤسسة عالمية أو دولية لصناعة وإنتاج أئمة وعلماء وعباقرة بمراتب مختلفة، وفي كل الميادين الريادية والقيادية؟ فالعبقرية والنبوغ والإبداع كلّه أوجلّه لا يأتي بجهد فردي وشخصي، أفلا يظهر إلى الوجود مثل هذا الكيان أو المعلم بأيد قادرة وواعية ومخلصة، بحيث يكون مزوداً بطاقات متحدة تعمل معاً لهدف واحد، ألا وهو رفعة الأمة الإسلامية؟ وشكراً.

تعقيب وسؤال مكتوب من أحد الحضور:

لا بد أولاً من أن نقدّر للقائمين على هذه الحلقة الدراسية فكرتهم الخيّرة وجهدكم المبارك. وحتى لا تتحول الحلقة الدراسية حول فكر هذا الداعية إلى مجرد حفل تأبين، أرى أننا بحاجة إلى قراءة واعية محللة ناقدة لهذا المفكر الكبير، فنبين المراحل المختلفة

من فكره والمنعطفات التي سار فيها، والمؤثرات التي دفعته إلى ذلك. وما الذي دفعه إلى مخالفة قرار الإخوان حين أعلنوا أنهم لن يشاركوا في حكومة الثورة المصرية؟ فخالفهم وشارك في الحكومة. وما الذي دفعه إلى أن يغير آراءه حول المرأة ١٨٠ درجة في المرحلة الأخيرة من حياته؟

التعقيب على تعقيبات الجلسة الأولى

د. أحمد العسال

بسم الله الرحمن الرحيم، شكر الله للأخوة الكرام المعقبين. العمل الإسلامي مزدحم ومحتاج لجهود كبيرة، ولذلك كانت فرصة طيبة أن نتحدث عن الشيخ الغزالي كنبراس للدعاة وللشباب. والعلماء العاملون هم امتداد للنبوة لأن العلماء ورثة الأنبياء، لأن الأنبياء لم يورثوا ديناراً ولا درهماً، وإنما ورّثوا العلم، وكلما اقترب الإنسان من عالم صالح كلما وجد رائحة النبوة، والتجديد في الأمة الإسلامية هو تجديد في العلم الذي خلفه النبي ﷺ، خاصة أن النبوة قد ختمت، وأن القرآن الكريم هو امتداد للنبوة، لذلك عندما أراد الغربيون أن يقطعوا الطريق على الأمة أسّسوا القاديانية التي تدّعي النبوة دائماً. والشيخ الغزالي صنعه محراب القرآن ومحراب العمل الجماعي. وبسبب أن الأمة الإسلامية في مرحلة ما بعد زوال الخلافة دخلت في الأطر الوطنية، ودخلت في الظروف غير الصحيحة، فقللت من تواصل المسلمين وصار المسلم يقول: عليك بنفسك. والحقيقة أن الإسلام لا يقوم إلا بالأمة، والأمة أساسها الجماعة، وذلك كانت صلاة الجماعة تفضل صلاة الفرد بسبع وعشرين درجة، بل إن النبي ﷺ هدد الذين يتخلفون في بيوتهم، أن تحرّق عليهم بيوتهم.

هنا سؤال: هل هناك فكر واضح للشيخ الغزالي عن العمل الجماعي؟ نعم الشيخ الغزالي ما انفك عن العمل الجماعي طيلة حياته، بل إنه دعّم كل عمل جماعي في العالم

الإسلامي سواءً كان نقابياً أو اتحادات أو نوادٍ أو ما شابه ذلك، وخطة أعداء الإسلام هي أن يفرّقوا المسلمين، والتفريق يبدأ بالهزيمة النفسية؛ هذه الكلمة الرائعة التي رددها الشيهد سيد قطب الهزيمة النفسية واستعلاء الإسلام في نفس المسلم تنبع من عبادته لله وحده، ولهذا فإن عزة المسلم قوة تتضاءل دونها القوى، فمن اعتز بالله أصبح سيداً في نفسه، سيداً في مكانه، الشيخ سعيد النورسي لم يرض أن يطأطأ للقائد الروسي وهو منهزم، واحترمه القائد الروسي، هذه قضية أساسية، فقضية العمل الجماعي قضية أساسية في فكر الشيخ الغزالي، وقضية أساسية في نبع الإسلام وفي حركة الإسلام، وما دار الأرقم أو نادي الأرقم، ودور سقيفة بني ساعدة، وما دور اجتماع إمامة الدين والدنيا في الخلافة الراشدة إلا دليل على ذلك. ومن أفضل ما قاله الأخ الدكتور علي جمعة هو مفهوم الزوجية القائم على الوحدة، ﴿ألا له الخلق والأمر﴾ وحدة الكون ووحدة الواحد. هل هناك من النصوص الشرعية والسنة ما يدعم فكرة العمل الجماعي؟ نعم، النصوص الشرعية كلها ﴿ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير﴾ ﴿واعتصموا بحبل الله جميعاً﴾ «إن كنتم ثلاثة فأمّروا أحدكم» «الجماعة رحمة والفرقة عذاب» كل ذلك يدعم العمل الجماعي.

الشيخ الغزالي كان عظيماً في ما يدعو إليه في فقه النسب، ولكن العمل الجماعي لا يعني أن تتلاشى الفروق الفردية، لأننا نريد أمة مبدعة، فإذا تلاشت الفروق الفردية وأصبح الناس يدخلون في غيرهم، لا يمكن أن تكون أمة تستطيع أن تبدع، لذلك كان يدعو إلى فقه النسب؛ لا بد أن يكون هناك نسبة للفرد، نسبة للأمة، نسبة للمجتمع. «فقه النسب»، هذه الكلمة كان يرددها كثيراً، واقترح الشيخ الغزالي تربية ذاتية ثم نفسيّة ذاتيّة فردية، وتربية نفسية اجتماعية، فهذه الأمور كلها تؤكد منهج الشيخ الغزالي في العمل الجماعي.

د. علي جمعة

بسم الله الرحمن الرحيم، شكراً للمتحدثين والمعقبين، وأريد أن أشير إلى كلمة د.أحمد الأصبحي، فهناك فارق في ذهني بين أصول الرؤية المنهجية، وفروع الرؤية المنهجية، وأظن أنه قد تكلّم في ورقته القيّمة عن فروع الرؤية المنهجية، وهو أمر هام،

ولكنني أريد أن أجرد هذا، بأن أسأل لماذا ذهب الغزالي -رحمه الله- إلى القول بكذا وكذا وكذا، فحاولت أن أجرد وأن أبحث عن تلك الأمور التي لم يصرح بها، ولكنها تعدّ منطلقات وأسساً وأصولاً، ينطلق منها القول بالسنن الإلهية، القول مثلاً بالسببية، فالذي جعله يقول هذا، هي قضية القراءات، كأساس لإفراز هذا الفكر، وهكذا. وهذه نقطة طيبة ومهمة أيضاً عندما يريد باحث من الباحثين أن يستفيد من هذا الاجتماع وهذه الندوة أن يفرق ما بين الأصول والفروع في الرؤية المنهجية للعَلَم الذي يريد أن يحلل مذهبه وكلامه وفكره.

هناك سؤالان، الأول: هل يمكن مساعدتنا في فهم الموقف الصحيح للإمام الغزالي من قضية الجن والسحر. علماً بأنه حسب معرفتي المتواضعة من الأمور القطعية.

أنا لا أعلم أن الإمام الغزالي قد أنكر الجن كما أنكره بعضهم، ولا أنكر السحر ووقوعه، ولكنه ذهب إلى القرآن الكريم ووجد قوله تعالى: ﴿إن كيد الشيطان كان ضعيفاً﴾ ووجد ﴿ولا يفلح الساحر حيث أتى﴾ ووجد ﴿يخيل إليه من سحرهم أنها تسعى﴾ ووجد المسلمين في واقعهم أن أغلبهم قد لبسه الجن وهذا أمر غير معقول. فقال: هذا خبَل، لا تتلبس الجنّ هكذا بالأمم، لا يوجد أمة في الأرض لبسها الجن، وقد تأثرت بالسحر إلا المسلمين؟ هذا كلام الشيخ الغزالي. الشيخ الغزالي يريد أن يحرر الناس من الشعوذة، يريد أن يحرر الناس من قلة الأدب فقط لا غير، من الادعاء على الله ورسوله وعلى الدين حتى لا يظهر أن كل المسلمين متلبسين بالجن، ومن يتتبع هذا الأمر تتبعاً يسيراً لا يتجاوز الساعات، يرى أن جميع النساء والرجال الذين لبسهم الجن يتكلمون بأمور تتعلق بمشكلات اجتماعية يعيشونها، فالأمر إما أن يعود به إلى الخلل العقلي أو إلى الدَعْوَى التي من ورائها يستفيد هؤلاء الناس، أما إن نصدق بكل سذاجة أن كل هذا الكم الهائل من المسلمين يتلبّسهم الجن دون غيرهم من الناس، فهذا غير معقول، وهو أمر يظهر أيضاً في صورة ظواهر اجتماعية، وفي ظروف اجتماعية واقتصادية معينة يكثر الجن، بعد سنة ١٩٨٠،٧٩ يكثر الجن ثم بعد ذلك يختفي الجن، وبعد نتنياهو يكثر ثانية؟!

فالشيخ الغزالي لم ينكر أصل الجن أو أصل السحر، لأن هذه أمور غيبية، ونحن نتكلم الآن عن الأمور العقلية التي نريد أن يعي المسلمون بها عالم اليوم، وأن يغزو بهم هذا العصر المتفجّر وأن يضع المسلمون أقدامهم في خريطة العالم.

سؤال آخر يقول: ذكر أ.د. علي جمعة التزام الغزالي بما ثبت من الحديث الصحيح، فأرجو توضيح رد الغزالي لحديث الذبابة، واقتلاع موسى لعين مَلَك الموت، وهما في البخاري.

الإمام الغزالي الذي عرفناه يطبق القواعد التي كتبها ابن الصلاح والخطيب البغدادي وغيرهم عبر القرون في نقد الحديث، والتي يقول إن بعضها لم يطبقه العلماء. وهو مجتهد، وهذا الاجتهاد استلزم عنده أن ينقد السند والمتن، فالدارقطني استدرك على البخاري ولم يُخرِج أحدٌ الدارقطني من المحدثين العلماء الفقهاء. وكثير جداً من العلماء، بل الأئمة الأربعة تركوا أحاديث في البخاري، منها قطع الصلاة بالمرأة والكلب والحمار، لا يقول بها الأئمة الأربعة وهي في البخاري. وبعضهم ترك الجمع بين الصلاتين بدون عذر في الحضر، وهي في مسلم وهكذا كثير. وأبو الزبير المكي عند روايته عن جابر وما اكتنفها من كلام بين العلماء وردود إلى آخره في مسلم. فالقضية هي قضية : هل هذا الحديث قاله الرسول ﷺ. كل الأحاديث الآحاد محل ظن، ظن؛ أي إدراك الطرف الراجح، أي أن هناك ٧٠٪ أنه قالها رسول الله، فإذا أنا قلت إن هناك احتمال ٣٠٪ لا أعتقد أن رسول الله ﷺ قال هذا، فأنا في حل من الأخذ بالحديث، وهكذا شأن الأئمة عبر العصور، وهذا هو شأن الصحابة، في ردهم الروايات، قالوا ما كنّا نترك كتاب الله لأعرابي يبول على عقبيه، ولأمرأة لا ندري أصدقت أم كذبت..الخ.

فالقضية ليست قضية الاحتجاج بالحديث لأن كون الحديث حجة؛ لأن هو محل اتفاق بين جميع الفرق الإسلامية، بين أهل القبلة كلها، ولكن القضية هل ثبت هذا عن رسول الله ﷺ أم لم يثبت، فكان الإمام يطبق ما عليه العلماء، ونظر إلى هذا الحديث أو ذاك وقال إن هذا مخالف عندي لأصول العقيدة ...الخ، وعلى ذلك فأنا في سعة من أمري

لكنه لم يرد البخاري هكذا بما فيه، إنما رد بعض الأحاديث، كما ردها كثير من الأئمة، لأمور عنده قد نختلف وقد نتفق معه فيها.

سؤال آخر: لماذا لا تكون هناك مؤسسة عالمية أو دولية لصناعة وإنتاج أئمة وعلماء وعباقرة بمراتب مختلفة في كل الميادين الريادية والقيادية؟

طبيعة العبقرية هي التفرد، وهذه موهبة ربانية، ولا يمكن إنتاج مؤسسة لتفريخ العباقرة، فالأمر بيد الله، وهناك العملية التعليمية مكونة من خمسة أركان: الأستاذ، الطالب، الكتاب، المنهج، الجو العلمي. ولمّا أن كان هذا متوافراً في حياة المسلمين، ظهر الأئمة المجتهدون، وكثروا. ولما تفتّت العملية التعليمية قلّ إخراج العباقرة.

اقتراح وسؤال من أحد الحضور:

تتضمن مداخلة الأخ تقدير الفكرة الخيّرة للقائمين على الحلقة الدراسية واقتراح إجراء قراءة واعية وتحليلية لإنتاج الغزالي والمراحل التي مرّ بها. وسؤال عن مخالفته لقرار الإخوان بعد الثورة ودخوله الوزارة...الخ.

يجيب على ذلك الدكتور أحمد العسال، لكنني أعلم يقيناً أن فضيلة الإمام الغزالي لم يشترك في الحكومة في أي عهد من العهود، ولا أعلم من أين أتى الأخ السائل بهذه القضية. ونريد أن نبين أن هذا اللقاء في يوم واحد إنما هو لاستثارة الفكر، وليس لإنتاج عمل متكامل، بل هو لاستثارة الفكر، لدراسة علم من أعلام الأمة، وأن يكون هذا اللقاء نموذجاً يُحتذى به للتعامل مع علماء الأمة، ومحاولة استخلاص أسس أفكارهم ومحاولة تنشيط الدراسات حولهم ومحاولة تفعيل هذه الدراسات في أرض الواقع، حتى نحوّل العلم إلى العمل. وشكراً لكم. والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

جلسة العمل الثانية

رئيس الجلسة: د. علي جمعة

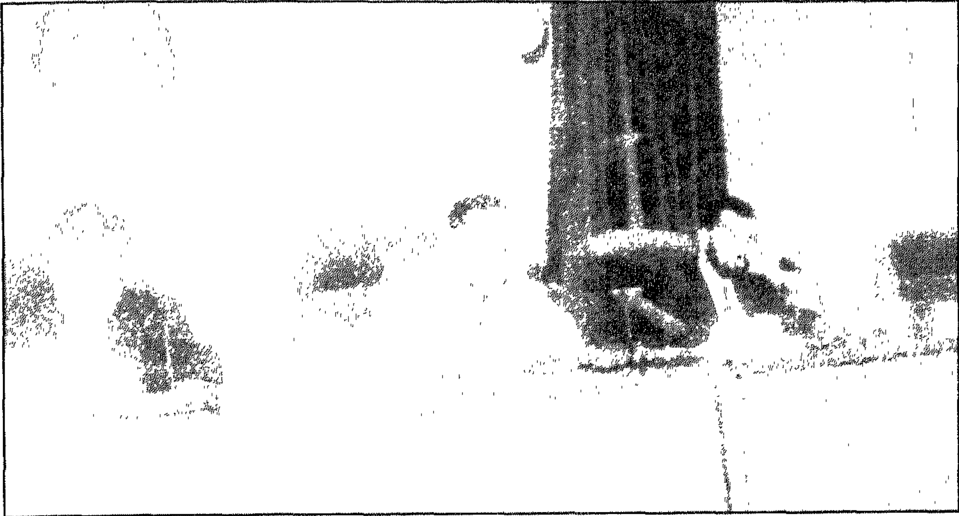
١. الورقة الأولى: السنة النبوية في فكر الشيخ الغزالي ومؤلفاته.

الدكتور عبدالجبار أحمد سعيد

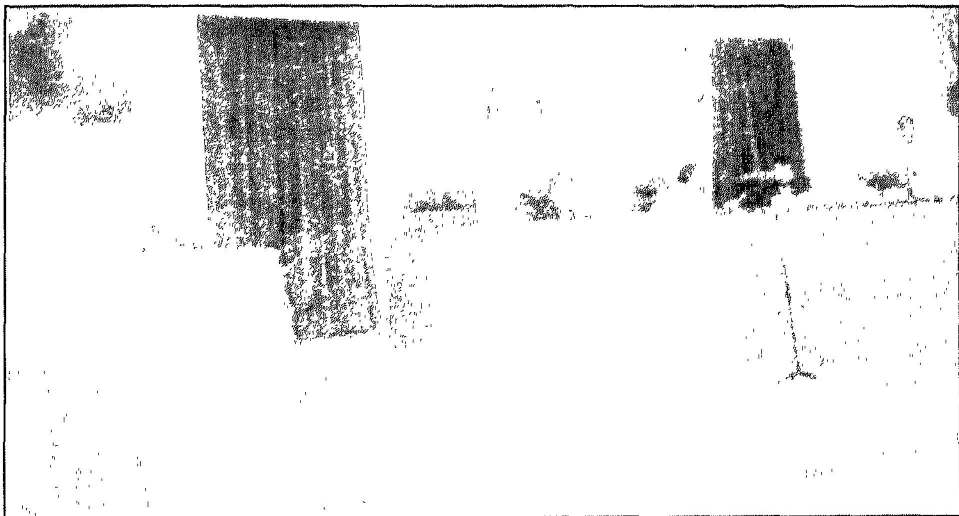
٢. الورقة الثانية: منهج الشيخ الغزالي في دراسة السنة النبوية الشريفة.

الدكتور عزت خليل العزيزي

٣. مناقشات الجلسة الثانية.



الجلسة الثانية: رئيس الجلسة: د. علي جمعة وعن يمينه الدكتور عزت العزيزي وعن شماله د. عبدالجبار سعيد



الأستاذ زهير الشاويش يعقب في الجلسة الثانية

السنة النبوية في فكر الشيخ الغزالي ومؤلفاته

الدكتور عبدالجبار أحمد محمد سعيد

باحث ومحاضر غير متفرغ

مقدمة:

الحمد لله ربّ العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء وخاتم المرسلين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه والتابعين ومن تبعهم بإحسان وبعد:

فإنّ الله سبحانه تكفل بحفظ دينه وصونه من كل تحريف، فكان القرآن الكريم ضمانة هذا الحفظ؛ إذ حوى بين دفتيه الرسالة والمعجزة، فكان المصدر الأول للمعرفة والتشريع، وكانت السنة النبوية المصدر الثاني للمعرفة والتشريع أيضاً، وقد قيّض اللهُ لهذا الدين عبر كل قرن جمعاً من العلماء الأخيار - بعد رسول الله ﷺ وصحابته الكرام - ينفون عنه تحريف الغالين، وتأويل الجاهلين وانتحال المبطلين، وهذا من حفظ الله لدينه. وعالِمُنا وشيخُنا فضيلة الشيخ محمد الغزالي -رحمه الله- كوكب دُرِّيّ في منظومة العلماء الذين جاهدوا بأقلامهم، ليحفظوا للإسلام عزته، ويعيدوا إليه بريقه، ويَسْعَوْن لإصلاح ما أفسد جهلة المسلمين، والمتنطعون من العلماء، من تنطع وانتحال ومغالاة، وإبراز للقضايا الهامشية الثانوية على حساب الكليات الكبرى، والمحاور الرئيسية من القضايا التي عالجها الإسلام.

وكان أنْ تعرّضَ الشيخُ -رحمه الله- لحملات إساءة وتشويه من فئات معيّنة، كان الشيخ قد جنّد قلمه لمحاولة العودة بعقولهم إلى جادة الصواب، ووضع الأمور في ميزانها الصحيح، وإعادة ترتيب الأولويات في البحث والمناقشة والطرح، فعدا عليه كثيرون، إما بدافع التعصب للذات أو بدافع الجهل والتقليد أحياناً أخرى. حتى وصل الحد ببعض هؤلاء

أن يتهم الشيخ –رحمه الله– بمخاصمة السنة والعمل على تعطيلها عن دورها. وقد نسي هؤلاء أنهم بمثل هذا الافتراء يخرجون عن منهج السلف، الذي يزعمون الانتماء إليه، في احترام اجتهاد الآخرين وقبول رأيهم، ما دام يُعْرض في إطار الإسلام وتحتمله العقول، فما كان صفوة السلف ليتتبعوا زلات العلماء، وما كانوا لينسوا فضل أهل الفضل ولا سابقة السابقين – (لعل الله اطلع على أهل بدر فقال افعلوا ما شئتم قد غفرت لكم)، بل كانوا يفترضون إمكانية الخطأ في رأيهم والصواب في رأي غيرهم – (رأيي صواب يحتمل الخطأ ، ورأي غيري خطأ يحتمل الصواب). ثم إنّ الشيخ رحمه الله، ما أراد إلا الذّب عن السنّة النّبوية، ووضعها في مكانها الذي يليق بها، مدركاً واجبه تجاه سنة حبيبه ﷺ، متألماً، وهو يرى من الغلمان وصغار العقول من الاجتهادات ما يسيء للإسلام، ويُشغل عقول المسلمين في معارك جانبية تصرفهم عن معركة الإسلام الكبرى. وقد عزّ عليه، رحمه الله، أن تُشغَل عقول المسلمين بطول الجلباب وقصره، وبطول اللحية وقصرها، وأن يحصر الدين في قمقم اجتهادات فجّة من قوم أخذوا دور الفقهاء وهم ليسوا بفقهاء، باتوا يجتزئون الفهم ويرون ظاهر حديث ما كافٍ لاصدار حكم يعمم ويلزم به المسلمون، وما عداه فَضَلال وزيغ عن عقيدة السلف، فيعيدون الناس إلى ظاهرية جديدة، قصرت همم أصحابها عن سبر أغوار النصوص، وكلّت عقولهم عن الجمع بين النصوص في المسألة الواحدة، ونسوا أو تناسوا أن السنّة ينبغي أن تفهم في ضوء كتاب الله سبحانه. وأنها تأتي بعده، فعمل –رحمه الله– على أن يكشف زيغ هذه الفئة من الناس (الذين ينتسبون زوراً لأهل الحديث وما هم منهم ولا حتى قريبين، لا من منهجهم ولا من أخلاقهم)، فعزّ عليهم أن تكشف سوأتهم، وأن تظهر الهالة التي بنوها حول أنفسهم سراباً خادعاً، فعجزوا عن مقارعة الحجة بالحجة، فلجأوا إلى الشتم تارة، وإلى التهكم أخرى، فكان الغزالي– رحمه الله– أكثر انتساباً للسنة منهم، مترفعاً بخُلُقِه عنهم ، وقد نقل الدكتور القَرَضَاوي –حفظه الله– قول الشيخ: «وقد شتمني بعض الناس، فوجدت الإعراض أولى، ومن مِن الانبياء لم يشتم؟ فليتأس بهم أتباعهم في الصبر والتجاوز، لكن الشتم الذي أوجعني، اتهامي بأني أخاصم السنة النبوية، وأنا أعلن أن الله ورسوله أحب إليَّ مما

سواهما، وأن إخلاصي للاسلام يتجدد ولا يتبدد، وأنه أولى بأولئك المتحدثين أن يلزموا الفقه والأدب، فغايتي تنقية السنة مما قد يشوبها»[1].

ولست أحاول في هذه الصفحات أن أدافع عن الشيخ الغزالي، فعَلَمٌ مثلُه لا يحتاج لدفاع مثلي والحق أبيّنُ من أن يُدافع عنه، وإنما أحاول أن أتلمس معالم منهج لتعامله مع السنة وأن أجمع أطراف السنة ومواقعها في فكره رحمه الله.

وقد تضمنت هذه الدراسة المباحث التالية:

* المبحث الأول : حجية السنة.
* المبحث الثاني : خبر الآحاد.
* المبحث الثالث : الاحتجاج بالضعيف.
* المبحث الرابع: علاقة السنة بالقرآن.
* المبحث الخامس : أسباب ورود الحديث.
* المبحث السادس : جمع روايات الموضوع الواحد.
* المبحث السابع : المجاز في فهم السنة.
* المبحث الثامن : مقاصد الشريعة والسنة.
* المبحث التاسع : السنة بين الوسائل والغايات.
* المبحث العاشر : نقد الحديث.
* المبحث الحادي عشر : نماذج تطبيقية ، أحاديث الفتن، والصفات.
* المبحث الثاني عشر: السنة بين أهل الفقه وأهل الحديث
* الخلاصة .
* الهوامش.

هذا وأشكر جزيلاً المجمع الملكي لبحوث الحضارة الإسلامية، والمعهد العالمي للفكر الإسلامي، وجمعية البحوث والدراسات الإسلامية على إنجازهم المتمثل في عقد هذه التظاهرة الفكرية لدراسة فكر الغزالي -رحمه الله- وجهوده العلمية، فالشيخ -وإن مات- حيٌّ بما خلّف وراءه من علم يُنتفع به. وأسأل الله تبارك وتعالى أن يجزيهم خيراً على جهودهم، كما أدعوه سبحانه أن يكتب هذه العلوم والمؤلفات التي نتدارس مضامينها اليوم - ثقيلة في ميزان حسنات شيخنا، وأن يعوض الأمة عن فقدانه خيراً، وأن ييسر لها من يحمل راية الذبّ عن قرآنها وسنة نبيها، كما كان الشيخ، رحمه الله، وأنا على ذلك من الشاهدين.

المبحث الأول : حجيّة السنة:

تبرز أهمية البحث في هذه المسألة في فكر الشيخ الغزالي بعد ما علمنا ما تعرض له -رحمه الله- من حملة تشويه واتهام بخصومته للسنة وإنكاره لحجيّتها، هذه الحملة التي بلغت أوجها بعد صدور كتابه «السنة بين أهل الفقه وأهل الحديث»، وكما أشار د. يوسف القَرَضَاوي -حفظه الله- فإن «الكتاب ليس كما تصوره الحملة عليه، كأنه كتاب ضد السنة، ولا كما تُصوِّر مؤلفه وكأنه ينكر السنة، فهذا ظلم بَيِّنٌ للشيخ الذي طالما دافع عن حجّية السنة المشرفة، وهاجم خصومها بعنف، وإنكار حديث أو حديثين أو ثلاثة وإن ثبت في الصحاح - لا يعني بحال إنكار السنة بوصفها أصلاً ثانياً ومصدراً تالياً للقرآن»[٢].

وقد أنبرى قلم الشيخ، رحمه الله، للذود عن حياض السنة النبوية والرد على منكري حجيتها، كما بين أن «السنة النبوية تواجه هجوماً شديداً في هذه الأيام وهو هجوم خال من العلم ومن الإنصاف، وقد تألفت بعض جماعات شاذة تدّعي الإكتفاء بالقرآن وحده، ولوْ تم لهذه الجماعات ما تريد لأضاعت القرآن والسنة جميعاً، فإن القضاء على السنة ذريعة للقضاء على الدين كله»[٣].

بل إن الشيخ –رحمه الله– ربط دوماً بين القرآن والسنة من حيث الحجية ومن حيث الالزام لطاعة رسول الله ﷺ، حيث أشار إلى أن «القرآن هو قانون الإسلام والسنة هي تطبيقه، والمسلم مكلف باحترام هذا التطبيق، تكليفه باحترام القانون نفسه، وقد أعطى الله نبيه حق الاتباع فيما يأمر به وينهى عنه؛ لأنه في ذلك لا يصدر عن نفسه، بل عن توجيه ربه، فطاعته هي طاعة لله، وليست خضوعاً أعمى لواحد من الناس ﴿من يطع الرسول فقد أطاع الله ومن تولى فما أرسلناك عليهم حفيظاً﴾ (النساء :٩٠). إن السير في ركاب المرسلين هو الخير كله، ومن ثم كانت سنة محمد ﷺ مصدراً لشريعته، مع الكتاب الذي شرفه الله به، وجمهور المسلمين على هذا الفهم» (٤).

وقد تشرب رحمه الله أهمية ومدى العناية التي لقيتها السنة النبوية، مما جعلها أكثر النصوص دقة وتمحيصاً، فليس من العلمية ولا من الموضوعية في شيء إهمال السنة وإقصائها عن مناحي الحياة. فإن «الدنيا لم تعرف بشراً أحصيت آثاره ونقدت بحذر ومحصت بدقة، كما حدث ذلك في آثار محمد بن عبد الله، فكيف ترمى بعد ذلك في مطارح الإهمال ... إن في السنة كنوزاً من الحكمة العالية لو نسب بعضها إلى أحد من الناس لكان من عظماء المصلحين، فلماذا تضيع على صاحبها ويحرم الناس خيرها» (٥).

ويحذر –رحمه الله– من اتخاذ نقد السنة (سنداً أو متناً) غطاءً للطعن لا في السنة فحسب، بل لرفض الدين، والعمل على ضياع الإسلام، فقد بيّن في كتابه (ليس من الاسلام) أن الطعن – هكذا خبط عشواء – في الأسانيد والمتون، كما يصنع البعض، ليس القصد منه إهدار حديث بعينه، بل إهدار السنة كلها، ووضع الأحكام التي جاءت عن طريقها في محل الريبة والازدراء. وهذا –فوق أنه غمط للحقيقة المجردة– يعرض الاسلام كله للضياع، إن دواوين السنة وثائق تاريخية من أحكم ما عرفته الدنيا)(٦).

وقد تحدث الشيخ طويلاً تحت عنوان (السنة حق)، وهو يبين حجّية السنّة، مميزاً بين نقد السنة، نقداً علمياً منضبطاً، بمقاييس وصفها بانها عقلية جيدة، وبين تكذيب السنة – خبط عشواء. كما تحدّث عن الزعم بأن القرآن حوى كل شيء، واعتبر أن إنكار

المتواتر من السنن العملية خروج عن الاسلام وإنكار المروي من سنن الاحاد – لمحض الهوى – عصيان مخوف العاقبة، بل إن الشيخ يؤكد على أن اتهام حديث ما بالبطلان، مع وجود سند صحيح له، لا يجوز أن يدور مع الهوى، بل ينبغي أن يخضع لقواعد فنية محترمة[٧].

المبحث الثاني: خبر الآحاد:

أما الخلاف في خبر الآحاد فقديم قدم البحث في هذه المسألة، ولا خلاف بين المحققين من العلماء أن خبر الآحاد ظنّي الثبوت، ولا خلاف بينهم أيضاً في أنه يفيد العلم والعمل في الأحكام والفروع، وقد وقع الخلاف في جانب العقائد، وقد حُكي الإجماع على أن العقائد لا تؤخذ من أحاديث الآحاد، وحقيقة الأمر أن المسألة ليست محل إجماع، بل هي محل خلاف، ولعل الأشهر والأرجح هو أن خبر الأحاد لا يفيد علماً يقينياً وبذلك لا يفيد اعتقاداً جازماً، وإنما يصلح أن يستأنس به في مجال العقائد والغيبيات استئناساً، ويعتبر ما فيه إذا صح سنده، وسلم من المعارضة، وخلا من الشذوذ والعلة... ولم يقل أحدٌ من العلماء حتى من الذين قالوا بأنه يفيد علماً في العقائد، لم يقل أحد بأن خبر الآحاد فوق النّقد وفوق الطعن، إنْ في سنده أو في متنه، وما عليه المحققون أن رد حديث من أحاديث الآحاد لفهم ما، أو لطعن في السند، ونحو ذلك، ليس من قبيل الإيمان والكفر، وإنما هو في مجال الاجتهاد والخلاف الفكري المجرد. ويرى الشيخ الغزالي، رحمه الله، «أن البعد عن منهج السلف يرجع إلى انتشار مقولة لم يكن لها رواج بين الفقهاء القدامى، وهي أن حديث الآحاد يفيد اليقين العلمي الذي يفيده المتواتر.

إنّ الحديث الصحيح له وزنه، والعمل به في فروع الشريعة له مساغ وقبول، وتركه لأدلة أقوى منه أمر مقرر مأنوس بين فقهائنا، أما الزعم بأنه يفيد اليقين كالأخبار المتواترة فهي مجازفة مرفوضة ... وعلى أية حال فإن الإسلام عقائده على المتواتر النقلي والثابت العقلي، ولا عقيدة لنا تقوم على خبر واحد أو تخمين فكر»[٨].

والغزالي يقرر ما قرره العلماء الأوائل من أن حديث الأحاد يفقد صحته بالشذوذ والعلة القادحة، وإن صح سنده [٩]. وقد سبقت الإشارة إلى تحذير الشيخ من أن يكون إنكار المروي من سنن الآحاد خاضع لمحض الهوى، واعتباره ذلك من قبيل العصيان. وإنما يريد الشيخ أن يؤكد، كما يقول «مرة ومرتين أنه ليس لروايات الآحاد أن تشغب على المحفوظ من كتاب الله وسنة رسوله، أو أن تعرِّض حقائق الدين للتهم والريب»[١٠].

وقد أشار في موضع آخر إلى أن المحققين يرون «أن سنن الآحاد تُرفض إذا خالفت ظواهر الآي وعموم النص، أو خالفت قياساً يعتمد على أحكام القرآن نفسه، وأنهم يفرقون بين الاحاديث التي يرويها رجال فقهاء والتي يرويها رجال حفاظ» [١١].

أما رفض الشيخ لاعتماد أحاديث الآحاد في إثبات العقائد فقد أشار الدكتور يوسف القَرَضَاوي –حفظه الله وأمد في عمره– إلى أنه «مؤسس على أمرين:

١ أن العقائد لا بد أن تبنى على اليقين لا على الظن.
٢ أن أحاديث الآحاد – وإن صحت – لا تفيد اليقين ، بل لا يفيد اليقين إلا المتواتر.

ونصوص القرآن تؤيد الأمر الأول فإن الله تعالى ذم المشركين بقوله : ﴿وما لهم به من علم إن يتبعون إلا الظن وإن الظن لا يغني من الحق شيئاً﴾ (النجم : ٢٨).

وأقوال جمهور علماء الأصول: أصول الدين وأصول الفقه، وعلماء الحديث أنفسهم تؤيد الأمر الثاني، واستثنوا ما احتفت به القرائن، كأن يكون في الصحيحين، وتلقته الأمة بالقبول وسلم من المعارض، ونازع في ذلك بعض المحدثين والحنابلة وقد أشار الدكتور القَرَضَاوي إلى أن محققي الحنابلة في صف الغزالي» [١٢].

وأما ما رده الشيخ الغزالي من بعض الأحاديث الصحيحة من أحاديث الآحاد، فإن «ما رده الشيخ من هذا النوع رداً صريحاً ليس بكثير، إنما هي أحاديث قليلة محدودة، وهو لم يردها لهوى في نفسه، ولا لوهن في دينه، ولا لتنكر للسنّة، ولا لتنقص للوحي، بل حرصاً على الدين نفسه، أن يجد العلمانيون واللادينيون فيه ثغرة ينفذون منها للطعن فيه،

والتشكيك في قضاياه، وتوهين أصوله. فردُّه لتلك الأحاديث القليلة إنما هو دفاع عن الدين، في مواجهة خصومه وأعدائه الكائدين له والمتربصين به. وهذه الأحاديث التي ردها الشيخ -كما يقول القَرَضَاوي- لا يتوقف عليها أي أمر من أمور الدين، فلو مات المسلم ولقي ربه دون أن يقرأها أو يعرف عنها شيئاً، ما نقص من إيمانه ذرة، مثل حديث لطم موسى عليه السلام لعين ملك الموت حتى فقأها(١٣).

إنّ العالِمَ لا يضره في دينه ردّه لبعض الأحاديث التي لم تثبت عنده، فما من إمام من أئمة المسلمين إلا ردّ أحاديث صحت عند غيره ولم تصح عنده، والبخاري يشترط لقبول الحديث شروطاً لا يشترطها غيره من أئمة الحديث، حتى تلميذه مسلم في صحيحه، والإمام علي بن المديني أشد من البخاري في شروطه ... فالمبدأ مسلّم به، والخلاف إنما هو في التطبيق. وربما قبلوا أشياء لم يَرَوْها مخالفة للعقول أو مناقضة للأصول في عصرهم، ولكنّا تبينا من الأمور ما لم يتبين لهم، وقد انكشف لنا من العلم ما لم ينكشف غطاؤه لهم، فهنا يختلف موقفنا عن موقفهم، لاختلاف المعلومات لا لاختلاف المنهج»(١٤).

المبحث الثالث : الاحتجاج بالضعيف :

أما الاحتجاج بالحديث الضعيف فقد حرص الشيخ -رحمه الله- على أن يسُدّ ثغرة في هذا الشأن من أخطر الثغرات إساءة لديننا وسنة نبينا، مع أن الذين قالوا بالاحتجاج أشاروا إلى أنه في فضائل الأعمال على الأشهر، وميّزوا بين ضعيف يتقوى، وآخر واهن أو شديد الوهن. وهذا الأخير لم يرَ الاحتجاج به أحدٌ من ذوي العلم والدراية في السنة، والإدراك لأثر انتشار الحديث الضعيف على البنية الفكرية للأمة، خاصة إذا علمنا أن الاحتجاج بالحديث الضعيف الذي يتقوى لم يقف عند فضائل الأعمال، بل تجاوز ذلك إلى كافة ميادين الفكر الإسلامي والاحكام التشريعية، حتى إننا نجد العديد من المسائل الفقهية أنشئت فيها الأحكام، وإذا دققنا النظر في أدلتها، وجدناها لا تعدو أن تكون أحاديث ضعيفة الأصل لا يحتج بها، كما أننا نستمع إلى الخطيب المفوه يتحدث بالخطبة

على المنبر نصف ساعة من الزمن أو يزيد، ما يذكر من الأحاديث إلا ضعيفها، بل والموضوع منها. وجزى الله الغزالي خيراً حين يرى أن «من حق المهتمين بالاحاديث الضعيفة أن يذكروها بعيداً عن دائرة العقائد والأحكام التشريعية، فإن الدماء والأموال والأعراض أكبر من أن تتداول فيها شائعات علمية، وكذلك أصول التربية وتقاليد المجتمع والشعائر، التي يشخص اليها الرأي العام، وتعد منارات على حقائق الإسلام وأهدافه في الحياة، يمكن الإكتراث بالاحاديث الضعيفة في قضايا هامشية أو حيث تكون زيادة تنبيه إلى ما قررته الأدلة المحترمة في كتاب الله وسنة رسوله. وهذا هو منهج علمائنا من قديم، ولكن طوائف من العوامّ أو من ذوي الأغراض حادوا عن هذا المنهج، فرأينا أشياء تحتاج لها جماهير ما كان السلف الأول يأبه لها ... وتم ذلك على حساب حقائق الإسلام الكبرى في مجال العقيدة والشريعة، ومجال الإدارة والاقتصاد والسياسة ، بل أستطيع القول بأنه تم على حساب الأخلاق والتزكية، التي بُعِثَ بها صاحب الرسالة العظمى. والبعد الذي لاحظناه عن منهج السلف يرجع إلى انتشار الأحاديث الضعيفة»[١٥].

المبحث الرابع : علاقة السنة بالقرآن

سبقت الإشارة عند الحديث عن حجية السنة إلى اعتبار تكذيب السنة احتجاجاً بأن القرآن حوى كل شيء بدعة جسيمة الخطر – في نظر الشيخ رحمه الله– لأن الله عز وجل ترك لرسوله السنن العملية يبينها ويوضحها، وقد ثبتت هذه بالتواتر الذي ثبت به القرآن فكيف تُجْحَد؟ بل كيف تجحد وحدها ويعترف بالقرآن؟ وكيف نصلي ونصوم ونحج ونزكي ونقيم الحدود، وهذه كلها ما أدركت تفاصيلها إلا من السنة. وفي علاقة السنة بالقرآن، فقد بين أن الرسول ﷺ يبلِّغ عن الله، ويوضح مراده، ويكمل الأحكام في الصور الجزئية الكثيرة، التي ليس من شأن الدستور العام (القرآن) أن يتعرض لها... وللسنة عدا هذا النطاق التشريعي ميدان أوسع، وينبغي أن نطيل التأمل فيه»[١٦] وقد أشار الشيخ إلى هذه العلاقة العضوية التي تربط السنة بالقرآن فقال : «لقد كنت عندما أحب الاستشهاد بالكتاب والسنة في موضوع ما ألاحظ هذه الحقيقة، وأجد طائفة كبيرة من الأحاديث

تطابق في معانيها وأهدافها، ما تضمن القرآن الكريم من معان وأهداف، وأن هذه الأحاديث قد تقرر المعنى نفسه الذي احتوته الآية أو تقرر معنى آخر، يدور في فلكه وينتظم معه في اتجاه واحد، وإن بدا للعين المجرّدة أن الصلة بينهما بعيدة» (١٧) وقد رتب الشيخ– رحمه الله– على فهمه لطبيعة العلاقة بين السنة والقرآن أمرين:

أولاً : فهم السنة في ضوء القرآن: فقد أشار الشيخ الغزالي –رحمه الله– إلى أن «فهم القرآن لا يتم إلا بمعرفة السنة»(١٨). ولهذا قال رسول الله ﷺ «ألا إني أوتيت القرآن ومثله معه»(١٩) يعني السنة وهذا صحيح، فإن حياة محمد ﷺ كانت تطبيقاً عملياً لتوجيهات القرآن، كانت سيرته في العبادة والخلق والجهاد والمعاملة قرآنا حيّاً يغير الأرض ويصنع حضارة أخرى، ولولا هذه السنة العملية والقولية لكان القرآن أشبه بالفلسفات النظرية الثابتة في عالم الخيال(٢٠).

وأثبت الشيخ الغزالي حرصاً قل نظيره في العصر الحديث على تعميق الصلة والربط بين السنة والقرآن ولفت أنظار الباحثين إلى متانة هذه العلاقة وعمقها، مبيناً أن «كل ما يحرص عليه شَدُّ الانتباه إلى ألفاظ القرآن ومعانيه، فجملة غفيرة من أهل الحديث محجوبون عنها، مستغرقون في شؤون أخرى تعجزهم عن تشرب الوحي ... والفقهاء المحققون، إذا أرادوا بحث قضية ما، جمعوا كل ما جاء في شأنها من الكتاب والسنة ... وبعض المشتغلين بالحديث يستوعب تدبير القرآن ودراسة دلالاته القريبة والبعيدة، ويستسهل سماع حديث ما، ثم يختطف الحكم منه فيشقي البلاد والعباد» (٢١).

وقد بين الشيخ –رحمه الله– أن الأصل عدم وجود التعارض بين السنة والقرآن فقال: «إنه ليست هناك سنة تعارض حكماً قرآنياً ما، بل إنه من المستحيل أن يوجد حديث يعارض أحكام القرآن خاصة أو قواعده العامة(٢٢) وإن حصل شيء من هذا التعارض فمما لا شك فيه أن الخلل سيكون غالباً في أفهام الناس أو في ثبوت السنة التي يظهر أنها تتعارض مع النص القرآني»، ولذلك فقد رأى الغزالي «أنّ من لا فقه لهم يجب أن يغلقوا أفواههم لئلا يسيئوا إلى الإسلام بحديث لم يفهموه أو فهموه وكان ظاهر القرآن ضِدّه»(٢٣)

وقد عقد الغزالي فصلاً في تطبيقات هذا الفهم في كتابه السنة النبوية تحت عنوان فقه الكتاب أولاً عرض فيه لأحاديث الجهاد والزهد [٢٤].

ثانياً : عدم نسخ السنة للقرآن: ومن الآراء العجيبة التي قال بها بعض من قالوا بالنسخ نسخ السنة للقرآن، ووجه العجب فيه أن يقال عن حديث أو رواية ظنية الثبوت وهي وإن صح سندها أخبار آحاد، بأنها تنسخ آية من القرآن القطعي الثبوت لتواتره. فكيف ينسخ الظني القطعي والآحاد المتواتر؟! وفي ظني أن الشيخ وصف هذا القول بما يستحق عندما قال: «وقد رأيت الجهل بالقرآن الكريم يبلغ حداً منكوراً عند شرح حديث مسلم «كل ذي ناب من السباع فأكله حرام» [٢٥] فإن شارح الحديث زعم أن الحديث قيل في المدينة وأنه نسخ ما نزل بمكة من قوله تعالى ﴿قل لا أجد فيما أوحي إلي محرماً على طاعم يطعمه إلا أن يكون ميتة أو دماً مسفوحاً أو لحم خنزير فإنه رجس أو فسقاً أهلَّ لغير الله به﴾ (الأنعام ١٤٥). والزعم بأن حديث آحاد ينسخ آية من القرآن زعم في غاية الغثاثة [٢٦].

المبحث الخامس : أسباب ورد الحديث :

علم أسباب ورود الحديث من العلوم المهمة المرتبطة بالسنة النبوية، وقلّ من كتب في هذا العلم. وهو من الأهمية للسنة وفهمها بمكان علم أسباب النزول للقرآن الكريم وفهمه، فهو يسهم إلى درجة كبيرة في فهم الحديث الوارد عن رسول الله ﷺ ويبين ما كان من النصوص له خصوصية معينة بزمان أو شخص أو مكان، وما كان وارداً على العموم دون أي تخصيص. وقد وضع الشيخ الغزالي يده على مكمن الداء في كثير من سوء الفهم الذي يعتري بعض الأحاديث النبوية، فهو يرى أن «فهم السنة لا يصح إلا بمعرفة المناسبات الحكيمة التي سبق من أجلها التوجيه النبوي، وإذا لم تكن لدينا إحاطة شاملة بالأزمنة والأمكنة والوقائع التي أرسلت فيها هذه الأحاديث، فقد تكون في الإحاطة بجملة السنن عوض لسد هذا النقص، فإنك أمام كثرة المرويات وتعدد معانيها لا ترى بُدّاً من تنسيقها وترتيبها، ووضع كل حديث بإزاء ما يوافقه من أحوال. ولقد بلغني أن هناك

مؤلفات في أسباب الحديث. طبعت في الشام على غرار «أسباب النزول» التي امتلأت بها كتب التفسير، ونحن نأسف لبُعد هذه المؤلفات عن متناولنا، فإن إشاعتها ضرورة لخدمة السنة وصد الهاجمين عليها ...» (٢٧).

قلت: والمؤَلَّفُ في هذا العلم قليل، وهو علم يستحق الإهتمام الكبير ولعل أحدث ما صدر فيه كتاب بعنوان أسباب ورود الحديث من سلسلة كتب الأمة للدكتور محمد رأفت سعيد، والشيخ الغزالي عندما يشير إلى أهمية هذا العلم، فإنما يُذَكّر بثغرة لا بد أن يبادر المهتمون بالسنّة لسدها، ولعل تعقيبه على حديث «خاب قوم ولّوا أمرهم امرأة»(٢٨) يدل على مدى اهتمامه بهذا الأمر حيث قال: (وقد تأملت في الحديث المروي في الموضوع مع أنه صحيح سنداً ومتناً، ولكن ما معناه؟ عندما كانت فارس تتهاوى تحت مطارق الفتح الإسلامي كانت تحكمها ملكية مستبدة مشؤومة، الدين وثني، والاسرة المالكة لا تعرف شورى، ولا تحترم رأياً مخالفاً... وكان في الإمكان وقد انهزمت الجيوش الفارسية؛ وأخذت مساحة الدولة تتقلص، أن يتولى الأمر قائد عسكري يقف سيل الهزائم، لكن الوثنية السياسية جعلت الأمة والدولة ميراثاً لفتاة لا تدري شيئاً، فكان ذلك إيذاناً بأن الدولة كلها إلى ذهاب. في التعليق على هذا كله ، قال النبي الحكيم كلمته الصادقة فكانت وصفاً للأوضاع كلها ... وكل ما أبغي هو تفسيرُ حديثٍ وَرَدَ في الكتب ومَنْع التناقض بين الكتاب وبعض الآثار الواردة، أو التي تفهم على غير وجهها، ثم منع التناقض بين الحديث والواقع التاريخي ... ثم أشار إلى تجربة الهند وبريطانيا وإسرائيل في حكم النساء) (٢٩).

قال الدكتور يوسف القَرَضَاوي –حفظة الله– معقباً على رأي الشيخ محمد الغزالي في هذه المسألة بعد أن عرض تفاصيل رأيه فيها : (هذا هو موقف الشيخ الغزالي من النص في هذه القضية، فهل خرج فيها على الإجماع؟ نحن نعلم أن في الإجماع كلاماً طويل الذيول والأكمام: في إمكان وقوعه، وفي إمكان العلم به إذا وقع، وفي حجيته، وفي دعاوى الإجماع الكثيرة ولا إجماع، حتى روي عن الإمام أحمد: من ادعى الإجماع فقد كذب، ما يُدريه لعل الناس اختلفوا أو هو لا يدري، فإن كان ولا بد فليقل: لا أعلم. الناس

اختلفوا! وعلى هذا نرى كثيراً مما يقال فيه: لا أعلم فيه خلافاً يثبت فيه الخلاف. المهم أن قضية عدم تولي المرأة للوظائف العامة، لم يثبت فيها إجماع. بل ثبت فيها الخلاف، فالحنفية يجيزون للمرأة أن تتولى القضاء في الشؤون المدنية والشخصية وغيرها، ما عدا الأمور الجنائية التي لا تُقبل عندهم شهادتُها فيها. والطبري وابن حزم والظاهرية يجيزون لها تولي القضاء بصفة عامة، بل ابن حزم يجيز لها تولي جميع الوظائف فيما عدا منصب الخليفة أو الإمام الأعظم. وأود أن أقول هنا: إن منصب الخلافة أو الإمامة العظمى أكبر من مجرد رياسة دولة إقليمية. فهذا في نظر السياسة الشرعية يعتبر والياً على إقليم، وأين هذا من الخليفة أو الإمام العام للأمة الإسلامية؟) [٣٠].

المبحث السادس : جمع روايات الموضوع الواحد

وهذا أمر يغفل عنه كثيرون؛ إذ أن مقتضى البحث الموضوعي والمحقّق في المسألة قيد الدراسة أن تُجمع الروايات الواردة فيها جمعاً شافياً وافياً للتمييز بين الناسخ والمنسوخ فيها إن وجد، ولدرء التعارض والتناقض إن وجد، وإعطاء الفهم المناسب لكل رواية من الروايات وإدراك ظروف روايات المسألة، كل هذا بعد تنقية الأحاديث وثبوت صحتها سنداً ومتناً، حتى لا تكون الأفهام أو الأحكام الصادرة في المسألة مبتورة ومجتزأة، هذا فضلاً عن الربط بين مجموع الروايات والآيات المتصلة بها من القرآن كما أسلفنا، وهذا عمل (الفقهاء المحققين، إذا أرادوا بحث قضية ما، جمعوا كل ما جاء في شأنها من الكتاب والسنة، وحاكموا المظنون إلى المقطوع، وأحسنوا التنسيق بين شتى الأدلة؛ أما اختطاف الحكم من حديث عابر، والإعراض عما ورد في الموضوع من آثار أخرى فليس عمل العلماء ...) [٣١].

وقد عالج الشيخ –رحمه الله– هذه المسألة معالجة واضحة حيث قال : (ثم إن الحديث الواحد لا نأخذه على حدة عند الاستدلال؛ بل يجب أن نأخذ كافة الأحاديث التي وردت في موضوع واحد، ثم نلحقها بما يؤيدها ويتصل بها من الكتاب الكريم، ولن

نعدم هذه الصلة، أما الاستدلال هكذا خبط عشواء، بما يقع تحت أبصارنا من حديث، قد نجهل الظروف التي قيل فيها، والمدى الذي يعمل فيه، فهو ضلال عانى المسلمون قديماً مغبته ويعانون الآن أضراره)[٣٢] ثم عرض سلسلة من الأحاديث مرتبة ترتيباً تصاعدياً، حسب الأزمنة التي قيلت فيها، ليتصور القارىء أي تخبط يقع فيه المسلم لو اقتطع الأحاديث الأولى أو أحدها من هذه السلسلة وزعم أن العمل عليها وتجاهل ما بعدها[٣٣].

وهذا الفهم من الشيخ رحمه الله في غاية العمق والسداد؛ إذ لا يخفى على الكثيرين مدى الخلل الذي يخلفه اجتزاء حديث من بين الأحاديث التي تعالج مسألة من المسائل، وقصر الفهم عليه، وما الذي يعانيه المسلمون من فهم في مسألة تقصير الملابس وغيرها، إلا خير دليل على خطورة هذا الاجتزاء للنصوص في الفهم.

المبحث السابع : المجاز في فهم السنة :

والغزالي –رحمه الله– لا يرفض الحديث لمجرد فهم طارئ، أو أي تعارض ظاهري، وإن فُهِمَ هذا من بعض عباراته أحياناً، إلا أن تعامله مع العديد من الأدلة والأحاديث، يدلُّ على قبوله وقوع المجاز، وإمكانية تأويل الحديث لإزالة التعارض الظاهر أحياناً، فقد أشار –رحمه الله– وهو يناقش اعتراض عائشة على رواية عمر لقول النبي ﷺ في سماع الموتى له عندما خاطبهم... (ما أنتم بأسمع لما أقول منهم...)[٣٤] اعترضتها عائشة بالآية الكريمة ﴿وما أنت بمسمع من في القبور﴾ (فاطر: ٢٢). قال الغزالي : (.. ولكن عائشة رضي الله عنها لا تقبل ما يعارض – في ظاهره– لفظ القرآن، فالموتى عادة لا يُكلمون ولا يسمعون، وإنما يعلمهم الله بما يشاء، فإذا كُلِّموا فكأنهم سمعوا، والعبارة مقبولة على طريق المجاز)[٣٥]. كما تجلى هذا الأمر لديه وهو يعقب على آثار أوردها، في ظاهر كثير منها جبر الإنسان على الفعل، ورأى أنه لا بد من دراستها، وقال: (إن ظواهر الجبر في هذه الآثار كلها مرفوضة عند علماء الإسلام، وأمامنا أمران لا ثالث لهما، إما صرف هذه الظواهر إلى تأويل قريب مقبول، وإما اعتبارها آثاراً بها علة قادحة تسقطها من

درجة الصحة، وإيرادها في مجال التربية والتعليم لا يجوز ... وقد استطعت بشيء من التكلّف أن أصرف شبهة الجبر عن آثار شتى، لكنني لم أستطع إصلاح عقول تريد أن تسوق الإسلام كله إلى أحاديث غير واضحة، تظهر عليها العلل القادحة) [٣٦] فالغزالي لا يتسرع برد الحديث لمجرد هوى في نفسه، أو لمجرد تعارض ظاهري بينه وبين أحاديث أخرى أو آيات أو حقائق، وإنما يلجأ للتأويل والفهم المجازي للحديث إن أمكن ذلك، بل إنه أقرّ أنه كان يتمحّل ويتكلف التأويل أحياناً.

المبحث الثامن : مقاصد الشريعة والسنة :

والسنة النبوية، باعتبارها المصدر الثاني للتشريع، جاءت لتحقق مقاصد القرآن الكريم، وبهما تكتمل مقاصد الدين من الحفاظ على النفس، والدين، والعقل، والمال والنسل؛ وبالتالي فلا بد من فهم النصوص النبوية في ضوء تحقيق هذه المقاصد، ولذلك عقب الشيخ الغزالي على عدة روايات متناقضة في شهادة المرأة – قائلاً : (... ورأيت حتى أستنقذ نفسي والناس من هذه اللجّة أن أعتصم بالمتواتر من الكتاب والمشتهر من السنة، وأن أقرر قبول شهادة المرأة في كل شيء وفق النّصاب الثابت في ديننا... ومن حق كل مسلم أن يتجاوز ما وراء ذلك غير متهم ولا مريب. ولي أن أتساءل: هل من مصلحة الأمن العام إهدار شهادة المرأة في قضايا يقع ألوف منها بمحضر النساء ![٣٧]... وعقب على بعض الآثار التي تفيد الجبر بقوله (وكل أثر مروي يشغب على حرية الإرادة البشرية في صنع المستقبل الأخروي يجب الا نلتفت إليه، فحقائق الدين الثابتة بالعقل والنقل، لا يهدها حديث واهي السند أو معلول المتن)[٣٨].

المبحث التاسع: السنة بين الوسائل والغايات :

وهذا مبحث مهم للباحثين في السنّة النبوية؛ إذ لا بد للناقد البصير من أن يفرق بين الوسائل والغايات، ومن المعلوم، لدى جمهرة العلماء، أن النظرة للقول والفعل النبوي وهو

إمام، تختلف عنه وهو مشرع، أو وهو بشر، والحديث في هذه القضايا أوضح ما يكون إذا تحدثنا عن الزراعة والتجارة والصناعة، من حيث التصرف والممارسة، لا من حيث أحكام الحلال والحرام، وكذلك مجمل الأحاديث الواردة في الطب. فلم يكن غرض النبي ﷺ أن يصف أدوية للمرضى، إذ لم يبعثه الله طبيباً، وكان يكفيه أن تمس يده الشريفة موطن الألم؛ فيزول بإذن الله، ولكن وصفه لبعض العلاجات يندرج كله في إطار تأكيد ضرورة الأخذ بالأسباب، والبحث عن العلاج، وعدم التواكل، وبيان أن البحث عن العلاج لا يتنافى مع الإيمان بالقدر، وغير هذا من الغايات، التي تحققها مجمل الأحاديث النبوية. وكذلك يمكن أن يقال في رؤية شهر رمضان، والحسابات الفلكية وغيرها، مما لا مجال لتفصيله. وقد عقد الشيخ الغزالي فصلاً في كتابه السنة النبوية بعنوان الوسائل والغايات عرض فيه للشورى، والجهاد، والروايات الواردة في شأنهما، وبين ضرورة التفريق بين الثابت والمتغير في هذين الميدانين. وقال في بدء الفصل (ذكرنا في بعض ما كتبنا الحديث الشريف وهو: (أنتم أعلم بشؤون دنياكم)[٣٩] وقلنا: إن شؤون الدنيا تتبع اجتهاد البشر؛ مؤمنهم وكافرهم، وأن الأنبياء لم يبعثوا ليعلموا الناس الحرف وفنون الصناعات وأنواع الزراعات، كما لم يبعثوا مهندسي معمار أو طرق وجسور، وكذلك ما بعثوا أطباء بطون وعيون. إن صميم رسالاتهم هو شرح العقائد والعبادات والأخلاق وتزكية النفس والمجتمع، وبث التعاليم التي تحكم صلات الناس بربهم، وصلة بعضهم بالبعض الآخر، وتعدهم للعودة إلى الله أتقياء بررة. وهناك ميادين أخرى تشبه ميادين الدنيا في حرية الحركة والاختراع والمنافسة، هي ميادين الوسائل التي لا بد منها لتحقيق غايات دينية مقررة ترك الشارع للمؤمنين كيفية بلوغها ولم يذكر فيها أحكاماً ملزمة)[٤٠].

المبحث العاشر: نقد الحديث:

لاحظ الشيخ الغزالي – رحمه الله – العديد من مظاهر الخلل في التعامل مع سنة رسول الله ﷺ وهي مظاهر فيها من الإساءة لسنة رسول الله ما فيها، فضلاً عن التطاول

على جهود العلماء السابقين وقد عبّر –رحمه الله– عن مظاهر الخلل هذه في مواطن عدة ومنها قوله:

* (وقد ضقت ذرعاً بأناس قليلي الفقه في القرآن، كثيري النظر في الأحاديث، يصدرون الأحكام ويرسلون الفتاوى، فيزيدون الأمة بلبلة وحيرة، ولا زلت أحذر الأمة من أقوام بصرهم بالقرآن كليل، وحديثهم عن الإسلام جريء، واعتمادهم كله على مرويات لا يعرفون مكانها من الكيان الإسلامي المستوعب لشؤون الحياة)[٤١].
* (أكثر الظلم الذي وقع على السنّة أصابها من أن حديثاً من الأحاديث قدر له أن يعمل في نطاق معين، فجاء بعض القاصرين وحرّفه عن موضعه، بالتعميم والاطلاق)[٤٢].
* (وما أكثر الأحاديث المنتشرة اليوم بين الشباب، يستنتجون منها أحكاماً سيئة، إن قبلنا سندها على إغماض فإن متنها لا يصح قبوله)[٤٣].
* (وزاد الطين بلة أن قيل للشباب الساذج: نحن لا نريد أقوال الرجال ولا مذاهب الأئمة، نريد الاغتراف مباشرة من الكتاب والسنة ... وأنا أكره التعصب المذهبي وأراه قصور فقه، وقد يكون سوء خلق ، لكن التقليد المذهبي أقل ضرراً من الاجتهاد الصبياني في فهم الأدلة)[٤٤].

وبعض مظاهر الخلل هذه دفعت بالشيخ الغزالي –رحمه الله– إلى التصدي لمحاولات الإساءة للسنّة، دافعاً بمجموعة من القواعد المتعلقة بنقد السنن في أسانيدها ومتونها، ليعيد الكثيرين ممن أساءوا، إلى جادة الصواب، وهو يحاول أن يصب اهتمامه على ضرورة الفهم السليم للمتن ونقده، ولكنه لا ينسى نقد السند. ويدل على هذا ما قاله رداً على منكري السنة وحجيتها من (أن السلف اهتموا بالاسانيد وحبسوا نشاطهم في رجالها، ولم يهتموا بالمتون أو يصرفوا جهداً مذكوراً في تمحيصها ... وهذا خطأ فإن الإهتمام بالسند لم يقصد لذاته وإنما قصد منه الحكم على المتن نفسه، ثم إن صحة الحديث لا تجيء من عدالة رواته فحسب، بل تجيء أيضاً من انسجامه مع ما ثبت يقيناً من حقائق الدين الأخرى، فأي شذوذ فيه أو علة قادحة يخرجه من نطاق الحديث الصحيح ...

على أن اتهام حديث ما بالبطلان مع وجود سند صحيح له، لا يجوز أن يدور مع الهوى، بل ينبغي أن يخضع لقواعد فنية محترمة، لهذا ما التزمه الأولون وما نرى نحن ضرورة التزامه)[٤٥].

وهو لا يترك هذا النقد لكل هاوٍ أو ناقد وإنما يرى أنه (للناقد البصير أن يتكلم في حديث ما من ناحيتي متنه وسنده، وأن يرده لأسباب علمية يبديها)[٤٦].

كما أنه يرفض أن يكون البحث في صحة نسبة السنة خاضعاً للافتعال والتكلف؛ فهو يرى أنه (لا خلاف بين المسلمين في العمل بما صحت نسبته لرسول الله ﷺ، وفق أصول الاستدلال التي وضعها الأئمة وانتهت إليها الأمة، إنما ينشأ الخلاف حول صدق هذه النسبة أو بطلانها ... وهو خلاف لا بد من حسمه. ولا بد من رفض الافتعال أو التكلف فيه)[٤٧].

وقد عرض الشيخ -رحمه الله- لقواعد قبول الأحاديث النبوية سواء ما يتعلق منها بالسند أو بالمتن فقال: (وقد وضع علماء السنة خمسة شروط لقبول الأحاديث النبوية، ثلاثة منها في السند واثنان في المتن:

١- فلا بد في السند من راوٍ واعٍ يضبط ما يسمع ويحكيه بعدئذ طبق الأصل.

٢- ومع هذا الوعي الذكي لا بد من خلق متين وضمير يتقي الله ويرفض أي تحريف.

٣- وهاتان الصفتان يجب أن يطردا في سلسلة الرواة فإذا اختلتا في راوٍ أو اضطربت احداهما فإن الحديث يسقط عن درجة الصحة[٤٨].

(وننظر بعد السند المقبول إلى المتن الذي جاء به، أي إلى نص الحديث نفسه).

٤- فيجب ألا يكون شاذاً.

٥- وألا تكون به علة قادحة.

والشذوذ أن يخالف الراوي الثقة من هو أوثق منه، والعلّة القادحة: عيب يبصره المحققون في الحديث فيردّونه به.

وهذه الشروط ضمان كاف لدقة النقل وقبول الآثار. بل لا أعرف في تاريخ الثقافة الإنسانية نظيراً لهذا التأهيل والتوثيق. والمهم هو إحسان التطبيق ... وقد توفر للسنة المحمدية علماء أولو غيرة وتقوى، بلغوا بها المدى وكانت غربلتهم للأسانيد مثار الثناء والإعجاب. ثم انضم إليهم الفقهاء في ملاحظة المتون واستبعاد الشاذ والمعلول)[٤٩].

فالشيخ –رحمه الله– يجعل النظر في السند مدخلاً للنظر في المتن، كما هو واضح، كما أنه يؤكد على ضرورة الفهم الحسن لما يثبت من السنة، فهو يرى أن (السنن المأثورة عرض لها ما يوجب اليقظة في تلقّيها ، فليس كل ما ينسب إلى الرسول ﷺ سنة تقبل، ولا كل ما صحت نسبته ، صح فهمه أو وضع موضعه ... والمسلمون لم يُؤْذَوْا من الأحاديث الموضوعة قدر ما أوذُوا من الأحاديث التي أسيء فهمها واضطربت أوضاعها)[٥٠].

وقد اعتبر الشيخ الغزالي نقد متن الحديث في ضوء القرآن أساساً لمحاكمة الكتب الصحاح، ويظهر هذا جلياً في مناقشته لموقف عائشة رضي الله عنها عندما سمعت حديث النبي ﷺ أن الميت يعذب ببكاء أهله عليه[٥١]، حيث يقول : لقد أنكرته وحَلَفت أن الرسول ما قاله، وقالت بياناً لرفضها إياه : أين منكم قول الله سبحانه ﴿ولا تَزِرُ وازرةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾ (الأنعام ١٦٤)

إنها ترد ما يخالف القرآن بجرأة وثِقَة، ومع ذلك فإن هذا الحديث المرفوض من عائشة ما يزال مثبتاً في الصحاح، بل إن «ابن سعد» في طبقاته الكبرى كرّره في بضعة أسانيد ... وعندي أن ذلك المسلك الذي سلكته أم المؤمنين هو أساس لمحاكمة الصحاح إلى نصوص الكتاب الكريم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ... من أجل ذلك كان أئمة الفقه الإسلامي يقررون الاحكام وفق اجتهاد رحب، يعتمد على القرآن أولاً، فإذا وجدوا في ركام المرويات ما يتسق معه قبلوه، وإلا فالقرآن أولى بالاتباع...)[٥٢].

قلت : ولا بد من التأكيد على ضرورة عدم التسرع في الرد لمجرد خلاف ظاهري بين الحديث والآية، فإذا أمكن الجمع بينهما فهو أولى. والقاعدة العامة أن إعمال النص أولى من إهماله. إذا كان إعماله ممكناً، بشيء من التوفيق أو التأويل الذي تحتمله اللغة.

والغزالي رحمه الله يقدم الرأي القويّ على الرواية المريبة فيما ساقه من نماذج، ويشتد عجبُهُ عندما يرى من يترك النقل والفقه معاً في بعض الأحكام(٥٣). وهو لا يعتبر هذا من قبيل الكفر والإيمان، وإنما هو داخل في مجال اختلاف الرأي، فهو يرى أنه (إذا استجمع الخبرُ المرويُّ شروطَ الصحة المقررة بين العلماء، فلا معنى لرفضه، وإذا وقع خلاف محترم في توفر هذه الشروط أصبح في الأمر سعة، وأمكن وجود وجهات نظر شتى، ولا علاقة للخلاف هنا بكفر ولا إيمان ولا بطاعة أو عصيان)(٥٤).

المبحث الحادي عشر: (نماذج تطبيقية) : أحاديث الفتن، والصفات

وموقف الغزالي –رحمه الله– من أحاديث الفتن جدير بالتأمل والتوقف عنده، وهو موقف ينسجم مع شخصيته الثقافية، ونهجه الفكري في التعامل مع قضايا الاسلام. وقد عزّ عليه – وهو الذي يغار على أمته – أن يراها راكنة إلى الأوهام، تستمريء الفشل، تعلّق هزيمتها على شماعة الاستعمار، وتتقبل ضعف المسلمين، وتعتبر تراجع الإسلام طبيعياً،؛ بحجة أن النبي أخبر بذلك، وبالتالي تعتقد أن تغيير الحال من المحال. ومجمل ما رُوِي في أحاديث الفتن، التي تنبئ بأحوال الضعف والانحسار للاسلام، والفتن التي تعتري المسلمين، هذه الأحاديث في مجملها تحتاج إلى توقف؛ أولاً لاثبات صحتها سنداً ومتناً ، وثانياً لفهمها الفهم الايجابي الصحيح الدافع للعمل، لا الفهم السلبي المتخاذل المستسلم للهزيمة، ولذلك فإن الشيخ الغزالي، قبل أن يعرض لعدة نماذج من أحاديث الفتن، بدأ يقرر (حقيقة واحدة هي أننا نحن المسلمين، نؤمن بإله لا حدود لمجده ولا منتهى لكمالاته ومحامده، ليس كمثله شيء وهو السميع البصير، خلقنا ورزقنا وكسانا وآوانا وعلمنا وربانا، وأفاض علينا من آلائه ما لا يحصى، وأننا سنظل نذكره ونعبده ما بقينا على ظهر

الأرض، مستعدين بذلك للقائه بعد الموت، لنستأنف حياة أخرى عنده، عامرة بالثناء عليه والتسبيح بحمده)[٥٥].

وقد أكد حقيقة انزعاجه من أثر نظرة المسلمين إلى أحاديث الفتن، بما سجله في «قذائف الحق» تحت عنوان «دين زاحف مهما كانت العوائق» فقال: «كلما قرأت أبواب الفتن في كتب السنة شعرت بانزعاج وتشاؤم، وأحسست أن الذين أشرفوا على جمع هذه الأحاديث قد أساؤوا –من حيث لا يدرون ومن حيث لا يقصدون– إلى حاضر الإسلام ومستقبله، لقد صوروا الدين وكأنه يقاتل في معركة انسحاب، يخسر فيها على امتداد الزمن أكثر مما يربح، ودونوا الأحاديث مقطوعة عن ملابساتها القريبة، فظهرت وكأنها تغري المسلمين بالاستسلام للشر والقعود عن الجهاد، واليأس من ترجيح كفة الخير؛ لأن الظلام المقبل قَدَر لا مهرب منه، وماذا يفعل المسلم المسكين وهو يقرأ حديث أنس بن مالك الذي رواه البخاري عن الزبير بن عدي، قال: شكونا إلى أنس بن مالك ما نلقى من الحجاج فقال: اصبروا فإنه لا يأتي عليكم زمان إلا الذي بعده شر منه حتى تلقوا ربكم » سمعته من نبيكم ﷺ [٥٦] وظاهر الحديث أن أمر المسلمين في إدبار وأن بناء الأمة كلها إلى انهيار على اختلاف الليل والنهار، هذا مع أن الحديث يخالف أحاديث صحاحاً كثيرة تحمل مبشرات بظهور الاسلام واتساع دولته وانتشار دعوته. كما يخالف الأحداث التي وقعت في العصر الأموي نفسه... (يعني انتشار الاسلام في الصين وأوروبا).

... ولقد أتى بعد أنس بن مالك عصر الفقهاء والمحدثين الذين أحيوا الثقافة الإسلامية، وخدموا الإسلام أروع وأجل خدمة، فكيف يقال: إن الرسالة الإسلامية الخاتمية كانت تنحدر من سيء إلى أسوأ ؟؟ هذا هراء ، الواقع أن أنساً رضي الله عنه كان يقصد بحديثه منع الخروج المسلح على الدولة بالطريقة التي شاعت في عهده ومن بعده، فمزّقت شمل الأمة، وألحقت بأهل الحق خسائر جسيمة، ولم تنل المبطلين بأذى يذكر. وأنس بن مالك أشرف ديناً من أن يمالىء الحجاج أو يقبل مظالمه، ولكنه أرحم بالأمة من أن يزجّ بأتقيائها وشجعانها في مغامرات فردية تأتي عليهم، ويبقى الحجاج بعدها راسخاً

مكيناً، وتصبيره الناس حتى يلقوا ربهم – أي حتى ينتهوا هم– لا يعني أن الظلم سوف يبقى إلى قيام الساعة، وأن الاستكانة الظالمة سنّة ماضية إلى الأبد، إن هذا الظاهر باطل يقيناً، والقضية المحدودة التي أفتى فيها أنس لا يجوز أن تتحول إلى مبدأ قانوني يحكم الأجيال كلها ؟؟ [٥٧]

ومما ينسجم مع نهجه الفكري –رحمه الله– موقفه من الأحاديث الواردة في بعض الأمور الغيبية وخاصة بعض أحاديث الصفات حيث قال معقباً على ما ورد في الحديث من أن الساق هي العلامة التي يعرف بها المؤمنون ربَّهم[٥٨]... قال: «الحديث كله معلول وإلصاقه بالآية خطأ» ﴿يعني الاية «يوم يكشف عن ساق﴾ (القلم : ٤٢)، وبعض المرضى بالتجسيم هو الذي يشيع هذه المرويات، وإن المسلم الحق ليستحي أن ينسب إلى رسوله هذه الأخبار، واضطراب القول يقع في الأمور الغيبية كما يقع في الأمور التكليفية العملية، ولا يضير الإسلام أن تتشابه الأمور على أحد الرواة، فالكتاب معصوم والسنة في جملتها سليمة، وليس العجب من غلط يقع فيه راو، وإنما العجب من قبول هذا الخطأ، ثم الحماس في الدفاع عنه، ولم يكن ذلك شأن الأئمة ولا منهج السلف والخلف)[٥٩].

وهذا المنهج عموماً عند الشيخ الغزالي يظهر في أكثر من مجال إذا أردنا متابعة الجانب التطبيقي له، ومن ذلك موقفه من كثير من المرويات الواردة في شأن المرأة، وتقليلها من الدور الرائد الذي ينبغي لها. وكذلك المرويات المتعلقة بصرع الجان للإنسان، ونحو ذلك مما يمكن استقصاؤه في كتابه «السنة النبوية بين أهل الفقه وأهل الحديث»، مما يدلل على حرص قلّ نظيره على تنقية الإسلام وصون سنة النبي ﷺ مما اختلط بها من الغلط، وسوء الفهم، واقحام العادات والاعراف الرديئة، والأفهام السقيمة واعتبارها وحدها الدين الذي لا يصح الإسلام لفرد إلا به.

المبحث الثاني عشر : السنة بين أهل الفقه وأهل الحديث :

لقد كان لهذا الكتاب أثر كبير في استفزاز خصوم الشيخ الغزالي –رحمه الله– كما لا يخفى على كثيرين، وقد استفزت بعض الأمثلة التي أوردها الشيخ رحمه الله وانتقدها، وانتقد تعامل من يزعمون لأنفسهم الانتماء لأهل الحديث معها وفهمهم لها، حتى طغت على المنهج الذي أراده الشيخ –رحمه الله– في إبراز مجموعة من القواعد والأصول العلمية في التعامل مع السنة إلى حيّز البحث العلمي، بعد أن غابت، إما لقصور فهم، وإما لتعصب مذهبي معين، أو لكليهما معاً، وكان غيابها على حساب حقائق الإسلام وقضاياه الرئيسية، وهو لم يحاول أن يطرح قواعد جديدة، ولا أن يبتدعها من عنده، وإنما أراد أن يدفعها إلى عقول الذين يرغبون في الدفاع والذّب عن سنة رسول الله، والدعوة إلى دينه بالحكمة، وعُذْرُه إن قسا في بعض ألفاظه كثرة ما عاناه وعايشه من فئة من الناس، تجمدت عقولها لا عند النصوص فحسب، وإنما عند أفهام الناس، الذين يزعمون أنهم يتبعونهم، للنصوص، والتطاول على الفقهاء والعلماء باسم الدفاع عن السنة، وهو ذا يقول (وفي عصرنا ظهر فتيان سوء، يتطاولون على أئمة الفقه، باسم الدفاع عن الحديث النبوي، مع أن الفقهاء ما حادوا عن السنة، ولا استهانوا بحديث صحّت نسبته وسَلِمَ متنه، وكل ما فعلوه أنهم اكتشفوا عللاً في بعض المرويات فردّوها وفق المنهج العلمي المدروس – وأرشدوا الأمة إلى ما هو أصدق قيلاً وأهدى سبيلاً)(٦٠).

وقد بيّن الشيخ –رحمه الله– دور الفقهاء – في نظره– إلى جانب علماء السَّنَد في ملاحظة المتون واستبعاد الشاذ والمعلول، ذلك أن الحكم بسلامة المتن يتطلب عِلْماً بالقرآن الكريم، وإحاطة بدلالاته القريبة والبعيدة، وعلْماً آخر بشتى المرويات المنقولة، لإمكان الموازنة والترجيح بين بعضها والبعض الآخر. والواقع أن عمل الفقهاء متمم لعمل المحدثين، وحارس للسنة من أي خلل قد يتسلل اليها عن ذهول أو تساهل ... وقد يصح الحديث سنداً ويضعف متناً، بعد اكتشاف الفقهاء لعلّة كامنة فيه)(٦١).

وقد سبقت الإشارة إلى عبارة الشيخ القَرَضَاوي –حفظه الله– في شأن هذا الكتاب وأنه من الظلم ل«لشيخ الغزالي تصويره كأنه ينكر السنة النبوية، فالكتاب ليس كتاباً ضد السنة، وإنما هو دفاع عنها (ومنطلقه فيه الدفاع عن السنة أمام فريق (العقلانيين). ولو أدى ذلك إلى رد بعض الأحاديث الثابتة في الصحاح إذا ناقضت منطق العقل أو منطق العلم، أو منطق الدين نفسه، حسبما يراه، والمبدأ مقرر لدى علماء الحديث أنفسهم، ولكن الخلاف في التطبيق. وربما أسرف الشيخ في رد بعض الأحاديث الثابتة»، ولا زال الكلام للدكتور يوسف القَرَضَاوي – «وكان يمكن تأويلها وحملها على معنى مقبول»، وربما قسا كذلك على بعض الفئات، ووصفهم ببعض العبارات الخشنة والمثيرة، وربما استعجل الحكم في بعض مسائل كانت تحتاج إلى بحث أدق، وإلى تحقيق أوفى، ... وهذا هو موقفنا من الغزالي، قد نخالفه في بعض آرائه في الكتاب ما قل منها أو كثر، وقد نخطئة فيها، فليس هو بمعصوم، ولكنا لا نتهمه في دينه، ولا في علمه، ولا نهيل التراب على تاريخه الحافل وكفاحه المتواصل في نصرة الإسلام. والواقع أن معظم ما تضمنه كتاب الشيخ ليس جديداً على فكره، بل هو مبثوث في مختلف كتبه، ضم شتاته في هذا الكتاب مع بعض أفكار جديدة، وكلمات شديدة، ولهذا أثار ما أثار من ضجيج) [٦٢].

قلت : وإنني إذ أتفق مع فضيلة الدكتور القَرَضَاوي فيما ذكر حول كتاب السنة بين أهل الفقه وأهل الحديث، فإنني أود أن أوكد على أن المعركة بين المحدثين والفقهاء إنما هي معركة مفتعلة من قبل صغارٍ متعصبين لمذهبيتهم، خارجين على منهج السلف في احترام رأي الآخرين، واعتبار ما صح من الحديث مذهبهم. دون أن يتطاولوا على غيرهم من أهل العلم، وبالتالي فلا بد من التأكيد على أن هذه المعركة المفتعلة –هذه الأيام– من قبل من يزعمون لأنفسهم الانتساب لمدرسة النبوة والذب عن السنة، إنما تدل على عدم الانتساب – حقيقة – لهذه المدرسة بأخلاقها وقيمها، وإن زعموا لأنفسهم ذلك، وبالتالي فهم ليسوا أهلاً لأن يُسمّوْا بأهل الحديث.

أما الأمر الآخر الذي أود التأكيد عليه وهو أن النظر في علل الأحاديث ونقد متونها هو مهمة المحدّثين بالدرجة الأولى، وليس مهمة الفقهاء؛ إذ تكمن مهمة الفقهاء بالدرجة

الأولى في استنباط الحكم من الدليل، وفق قواعد وأصول معتبرة لكل فقيه منهم، وبالتالي فلا بد من التمييز بين المهمّتيْن، ولا يصح ما نراه اليوم من خلط للحابل بالنابل، حيث يتصدّى من لا يملكون أدوات الاجتهاد في فهم النصوص، للفتيا وإصدار الأحكام بصورة فجّة تسيء للإسلام أكثر مما تحسن، وهذا لا يجعلهم فقهاء. على أنه لا بد من التأكيد على ضرورة سد الفجوة بين المحدثين وعلم الفقه، وبين الفقهاء وعلم الحديث، وهذا لا يتم الا بالتعاون فيما بين الفريقين، سواء من خلال المؤسسات وما يمكن أن نسميه بالعقل المؤسسي، أو من خلال تواصل كل فريق مع تخصص الآخر، ما أمكن، حتى يَقِلَّ بل ينتهي اعتماد الفقهاء في كثير من الأحيان على ضعاف الأحاديث، ويختفي تنطع المحدثين وتصدرهم للفتيا بغير علم. والله تعالى أعلم.

خلاصة

وبعد فيمكنني أن أخلص من التجوال السابق في نظرات الغزالي –رحمه الله– في مؤلفاته للسنة النبوية إلى ما يلي:

١. حرص الغزالي الشديد –رحمه الله– على الدفاع عن السنة وإثبات حجيتها في وجه المنكرين.
٢. أدراكه للعلاقة العضوية التي تربط القرآن والسنة، وحرصه على أن تفهم السنة في ضوء القرآن ورفضه للقول بأن السنة تنسخ القرآن الكريم.
٣. تأكيده على أن خبر الآحاد لا يفيد علماً يقينياً وبالتالي لا تؤخذ منه عقيدة.
٤. حرصه على أن تراعى أسباب ورود الروايات عند التعامل معها، وتأكيده على أهمية هذا العلم في فهم السنة المشرفة.
٥. دعوته إلى عدم الاجتزاء للنصوص والنظرة الشمولية لما ورد من الروايات في الموضوع الواحد . مع ضرورة التفريق بين الوسائل والغايات في السنة.
٦. تأكيده على ضرورة فهم السنة منسجمة مع حقائق الدين ومقاصد الشريعة.
٧. دعوته إلى الإهتمام بنقد المتن والنظر فيه إلى جانب الاهتمام بنقد السند، وفق القواعد والأصول التي قررها العلماء أصحاب الشأن.
٨. دعوته للاهتمام بقضايا الإسلام الكلية والعمل على إعادة أمجاد الاسلام، وإحسان التبليغ لدين الله، وعدم الانشغال بمعارك داخلية حول قضايا فرعية لا تقدم ولا تؤخر، لا في إيمان الفرد، ولا في ازدهار حضارة الإسلام.
٩. أكد الشيخ الغزالي –رحمه الله– بنفسه إنحيازه إلى سنة رسول الله والدفاع عنها، وتجاوزه عن شاتميه اتباعاً لرسول الله ﷺ.

١٠. دعوته الأمة الإسلامية لعدم الاستسلام لعوادي الدهر، وأسباب التخلف وإعادة النظر في ركام من أحاديث الفتن وغيرها. والاندفاع باتجاه الموقع الذي أراده الله للأمة ﴿كنتم خير أمة أخرجت للناس ، تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر﴾ (آل عمران: ١١٠).

وأود أن أختم بتعقيب الشيخ الغزالي على الأحاديث الواردة في نفخ الروح واختلافها في وقت النفخ[٦٣] حيث قال: (.. وبين الروايتين تفاوت واضح، فالأخيرة تفيد أن الكتابة المذكورة بعد أربعة شهور، والأولى تفيد أن الكتابة بعد اثنين وأربعين يوماً ... وندع أمر الترجيح والرد والقبول للمشتغلين بهذا الأمر، فإن أي مسلم لو ذهب إلى الله بإيمان واضح وعمل صالح، فلن يضيره الجهل بأحد الحديثين أو بهما معاً، إن قواعد الإيمان وأركان الصلاح مشروحة في الكتاب والسنة، وليس من بينها الإحاطة ببدء الخلق والأزمنة التي يستغرقها. وحسبنا ما أثبته القرآن الكريم في هذا المجال، وتتجه العزائم بعد ذلك إلى الجهاد، وما يهب رفيع الدرجات. إن القاصرين من أهل الحديث يقعون على الأثر لا يعرفون حقيقته ولا أبعاده، ثم يشغبون به على الدين كله دون وعي ... عندما كتبنا في أحد مؤلفاتنا أنه لا سنة بلا فقه، كنا نريد أن نمنع أناساً يشترون أحد كتب الحديث ثم يطالعون أثراً، لا يدرون ما قبله ولا ما بعده، ثم يُحْدِثُون فوضى قد تراق فيها الدماء[٦٤].

الهوامش

(١) د. القَرَضَاوي، يوسف: الشيخ الغزالي كما عرفته رحلة نصف قرن، دار الوفاء، ط١، ١٩٩٥ ص ١٤٧ – ١٤٨.

(٢) السابق ص ١٢٣.

(٣) الغزالي، محمد: دستور الوحدة الثقافية بين المسلمين، دار القلم –دمشق، ط١، ١٩٨٧. ص٢٩.

(٤) الغزالي، محمد : فقه السيرة، دار الريان للتراث، القاهرة، ط١، ١٩٨٧، ص٣٨ – ٣٩.

(٥) السابق ص ٤٠.

(٦) الغزالي، محمد: ليس من الإسلام ، مكتبة وهبة – القاهرة، ط ٦، ١٩٩١. ص٤١

(٧) السابق ص ٣٨ – ٥٠.

(٨) الغزالي، محمد : السنة النبوية بين أهل الفقه وأهل الحديث، دار الشروق، ط ٤، ١٩٨٩ ص ٦٥، ٦٦.

(٩) السابق ص ١٨.

(١٠) السابق ص ١٤٧.

(١١) الغزالي: فقه السيرة، ص ٤٥.

(١٢) د. القَرَضَاوي: الشيخ الغزالي كما عرفته ص ١٢٣ – ١٢٧

(١٣) رواه مسلم: كتاب الفضائل، رقم ٤٣٧٥.

(١٤) د. القرضاوي: الشيخ الغزالي كما عرفته ص١٢٧–١٣٠.

(١٥) الغزالي: السنة النبوية، ص ٦٤ –٦٥

(١٦، ١٧) الغزالي: ليس من الإسلام، ص ٣١، ٣٤

(١٨) السابق ص ٣٣

(١٩) أخرجه الإمام أحمد، مسند الشاميين، رقم ١٦٥٤٦.

(٢٠) الغزالي : السنة النبوية، ص ١١٩

(٢١) السابق ص ٢٤، ٢٦

(٢٢) الغزالي : ليس من الإسلام، ص ٣٦

(٢٣) الغزالي: السنة النبوية ص ٥٢

(٢٤) السابق ص١٠١

(٢٥) اخرجه مسلم، كتاب الصيد والذبائح، رقم ٣٥٧٠.

(٢٦) الغزالي: السنة النبوية، ١٠٣.

(٢٧) الغزالي : ليس من الإسلام، ص ٣٣، ٣٤.

(٢٨) أخرجه البخاري: كتاب المغازي، رقم ٤٠٧٣ وفيه أنه لما بلغ رسول اللهﷺ أن أهل فارس قد ملكوا عليهم بنت كسرى فذكر الحديث.

(٢٩) الغزالي : السنة النبوية ص ٥٠.

(٣٠) د. القَرَضَاوي، يوسف : نظرات في فقه الشيخ الغزالي ومرتكزاته، مجلة المسلم المعاصر، عدد ٧٥ ص٣٣.٣٤

(٣١) الغزالي: السنة النبوية، ص٣٥.

(٣٣,٣٢) الغزالي : ليس من الإسلام، ص ٣٦، ٣٧

(٣٤) أخرجه البخاري، كتاب الجنائز، رقم ١٢٨١.

(٣٥) الغزالي : السنة النبوية، ص ٢٤

(٣٦) السابق ص ١٥٩ – ١٦٠

(٣٧) السابق ص٦١

(٣٨) السابق ص ١٥١

(٣٩) رواه مسلم، كتاب الفضائل، رقم ٤٣٥٨.

(٤٠) الغزالي، السنة النبوية، ص١٣٢

(٤١) السابق، ص٢٢

(٤٢) الغزالي، ليس من الإسلام، ص٤٣

(٤٣) الغزالي، السنة النبوية، ص٣٠

(٤٤) السابق ص ١٠

(٤٥) الغزالي : ليس من الإسلام، ص ٤٠

(٤٦) السابق ص ٣٩

(٤٧) الغزالي : السنة النبوية ص ٢٦

(٤٨) قلت: ويسقط الحديث عن درجة الصحة، عدم ثبوت الاتصال في سنده، ولو كان كل الرواة عدول ضابطين، وشرط الاتصال هنا لم يتعرض له الشيخ -رحمه الله- وليته فعل.

(٤٩) الغزالي: السنة النبوية ص ١٤-١٥

(٥٠) الغزالي: فقه السيرة ص٣٩-٤٠

(٥١) أخرجه البخاري، كتاب الجنائز، رقم ١٢٠٦

(٥٢) الغزالي: السنة النبوية ص ١٧- ١٨

(٥٣) السابق ص ٣٢

(٥٤) السابق ص ٢٦

(٥٥) الغزالي : السنة النبوية، ص ١٢٢ - ١٢٣

(٥٦) أخرجه البخاري: كتاب الفتن، رقم ٦٥٤١.

(٥٧) الغزالي ، محمد : قذائف الحق، المكتبة العصرية - بيروت . ص ٢٠٦ - ٢٠٧

(٥٨) أخرجه مسلم: كتاب الإيمان، رقم ٢٦٩.

(٥٩) الغزالي : السنة النبوية، ص ١٢٧

(٦٠) السابق ص ١٥-١٦

(٦١) السابق ص ١٥

(٦٢) د. القَرَضَاوي : الشيخ الغزالي ص ١٢٢-١٢٣.

(٦٣) أخرجه مسلم: كتاب القدر، رقم ٤٨٧١، وانظر التوفيق بين الروايات في بحث حول نفخ الروح في الجنين، للدكتور شرف القضاة، في مجلة دراسات - الجامعة الأردنية، مجلد ١٣، عدد١٢، عام ١٩٨٦.

(٦٤) الغزالي: السنة النبوية ص ١٢٨-١٢٩.

منهج الشيخ محمد الغزالي
في دراسة السنة النبوية الشريفة

الدكتور عزت العزيزي

أستاذ التربية/ جامعة اليرموك

بين يدي البحث

هدفت هذه الدراسة إلى تقديم جهود الغزالي في دراسته للسيرة النبوية الشريفة. لقد حاول الباحث أن يقدم هذه الجهود من خلال أمرين، الأول: إبراز منهج الغزالي في دراسة السيرة، وهو منهج يقوم على الجمع بين سرد الحدث، وتحليله، ومقارنته بغيره من الأحداث، وأحياناً مقارنته بالواقع الذي تعيشه الأمة الإسلامية. وفي سرده لأحداث السيرة يتجنب الغزالي الروايات والقصص، التي يراها مخالفة لما جاء في القرآن الكريم، أو لمبادئ العقيدة الإسلامية، أو للمنطق والعقل، حتى ولو كانت تلك الروايات أو القصص مقبولة من المحدثين أو المؤرخين. وهو لا يبالي بكثير من تفاصيل الأحداث أحياناً، عندما لا يرى لمثل هذه التفاصيل أهمية في فهم الحدث أو أسبابه أو نتائجه؛ أما بالنسبة لتمحيصه للأحداث أو تحليله لها، فإنه على الرغم من محاولته تحري الدقة والموضوعية غالباً، يعترف أن علاقته بشخصية الرسول ﷺ أعمق وأبعد من أن يورد الأحداث المتعلقة به ببرود المؤرخ أو الباحث الذي يجرد نفسه من عواطفها، بل أنه يتمثل دائماً حبه الشخصي لرسول ﷺ وإعجابه به، وأنه عندما يكتب عنه فإنه يكتب عن قائده وقدوته، الذي تمتلئ نفسه إعجاباً به وحبّاً له.

فنظرته إلى الرسول ﷺ لا تعرف الحياد وإنما هو في كليّته معه، ولا يقدح ذلك في دقة بحثه، ولا يوجهه بأي صورة إلى المبالغة أو التدليس، إذّ أنّ عظمة شخصية الرسول ﷺ الحقيقية، التي لا يستطيع أن يماري بها أحد، تغني عن ذلك.

والأمر الثاني الذي تبرزه هذه الدراسة الطريقة التي قدم بها الغزالي بعض أحداث السيرة بمنهجه المتميز، بطريقة فيها تحري المؤرخ وإشراقة الأديب وعاطفه المحب. وقد حاول الباحث أن ينقل بإيجاز معظم الأحداث التي عالجها الغزالي، مبرزاً أحياناً تدفق عاطفة الغزالي في سرد هذه الأحداث، مثل حديثه عن اليهود في عهد النبيﷺ، وربطه ذلك بالمؤامرات اليهودية المعاصرة على الإسلام وعلى وطن المسلمين وبخاصة في فلسطين.

وقد نبّه الباحث في دراسته على بعض ما يظن أن الغزالي لم يُوَفّه حقّه من التحليل، من أحداث السيرة، مثل حديثه عن ميادين الدعوة الإسلامية في مكة، التي كان لها تأثير كبير على أهل مكة، وقد اعتبرها الغزالي أربعة هي: توحيد الله، والإيمان باليوم الآخر، وتزكيه النفس، وحفظ كيان الجماعة الإسلامية. ويرى الباحث أنه كان ينبغي الإشارة إلى أمور أخرى كان لها أثر كبير في سلوك أهل مكة تجاه الدعوة الإسلامية، مثل مبادئ الحرية والمساواة، وحقوق الإنسان، ومنع أنواع من المعاملات والشهوات، التي وجد فيها أهل مكة تهديداً لمصالحهم ونفوذهم.

إلا أن ذلك لا ينال من تحليق أستاذنا الغزالي، وسبقه في دراسته للسيرة، التي أصبحت فيما بعد نهجاً متميزاً، تابعه عليه عدد من الدارسين والباحثين، وكان للغزالي فضلُ السبْقِ في منهجه، وسيبقى كتابه «فقهُ السيرة» معْلماً للباحثين، ومنارة يَهْتدِي بها كل من يحاول فهم أو دراسة سيرة الرسولﷺ.

مناهج السيرة

كان معظم ما كتب في السيرة النبوية الشريفة في الماضي يتجه إلى تتبع الأحداث التاريخية وتسجيلها، وكانت أبرز الفروق بين دراسة ودراسة أو كاتب وكاتب في السيرة مقدار ما يسجل من تفاصيل الأحداث. فمنهم من كان يكتفي بأبرز الأحداث وأهمها،

ومنهم من كان يفصل فيها ويتتبع وقائعها وتفاصيلها، وهكذا يكون حجم الكتاب صغيراً أو كبيراً.

ومنهم من يُعْنَى الى جانب ذلك بتمحيص الأسانيد، وتصنيف الأحداث من حيث قوة ثبوتها أو ضعف سندها، ولكن دون تحليل للحدث أو تمعن في دراسته.

وهذا المنهج هو المنهج السائد عموماً في الدراسات التاريخية. والسيرة فرع عن دراسة التاريخ. لذا لا نجد فرقاً كبيراً بين الموسوعات التاريخية، أو الكتب التاريخية الموجزة في العصور السالفة، إلا من حيث المقدار والكم؛ بل إن معظم المختصرات التاريخية تتقيد بمصدر واحد توجزه وتختصر أحداثه، دون أي مقارنة بغيره من المصادر.

إلا أن الدراسات التاريخية المعاصرة اتجهت نحو منهج آخر يتعدى رواية الحدث إلى دراسته، وتحليله، وتعليله، والغوص بحثاً عن الأسباب والعلل وراء الحدث التاريخي، ودراسة نتائجه، وربط الحوادث المختلفة في سياق متماسك.

وقد سلك دارسو السيرة النبوية الشريفة المحدثون هذا المنهج، وكتب فيه عدد منهم منذ بدايات هذا القرن.

اختيار الغزالي للمنهج

أمّا شيخنا الغزالي فقد وصف منهجه في السيرة فقال: «لعلي هنا مزجت بين الطريقتين على نحو جديد، يجمع بين ما في كلتيهما من خير، فجعلت من تفاصيل السيرة موضوعاً متماسكاً يشد أجزاءَه روحٌ واحد، ثم وزعت النصوص والمرويات الأخرى بحيث تتسق مع وحدة الموضوع وتعين على اتقان صورته وإكمال حقيقته[1]».

الهدف من دراسة السيرة

الدارسون المنصفون الذين يتصدون لدراسة التاريخ يهدفون إلى تسجيل الوقائع وتمحيصها، ويتعاملون مع الروايات التي يصلون إليها، بموضوعية تنأى بهم عن التحيّز، يفتخرون أنهم يقصدون قبل كل شيء إظهار الحقائق المجردة كما هي.

أما شيخنا الغزالي، فعلى الرغم من أنه لم ينف عن نفسه صفة الموضوعية، إلا أنه أوضح بما لا مجال فيه للّبس، أن هدفه من دراسة السيرة تنمية الإيمان، وتزكية الخلق، وبعث الهمم، وإلهاب الكفاح في النفوس، وإغراء المسلم باعتناق الحق والوفاء له. ولا يخجل أن يصف نفسه مع السيرة بأنه ليس مؤرخاً محايداً مبتوت الصلة بمن يكتب عنه.

روح كتابته للسيرة النبوية

كان يسيطر على الغزالي، وهو يكتب السيرة، عاملان ينبعان من طبيعة علاقة الكاتب بالشخصية، وعلاقته بالواقع على النحو التالي:

أ- رسول الله محمد ﷺ بالنسبة لكل مسلم هو المثل الأعلى في كل شيء يتصل بالدين؛ فهو القائد، والمعلم، وأكمل البشر في إيمانه وعبادته ومعرفته بالله عز وجل.

ورغم أن شيخنا يكتب عن رسول الله ﷺ بقلم الدارس والمؤرخ، إلا أن عاطفته وعقله مفعمان بخصوصية منزلة الرسول ﷺ، ولا يتمثل نفسه معه إلا جندياً مع قائده، أو تابعاً مع سيده، أو تليمذاً مع أستاذه، فهو يكتب عنه دون أن يغيب عن وجدانه وعقله لحظة واحدة إيمانه الراسخ بنبوّته، وإعجابه وانبهاره بكمال شخصيته وعظمته، وفوق ذلك حبه العارم الذي يفوق حبه لكل ما سواه من البشر بما في ذلك نفسه.

ب- إ ن الصورة المقابلة لمثال العظمة والقوة والكمال المتمثلة بسيرة النبي ﷺ، هي صورة واقع الأمة الإسلامية، بكل ما ينقل هذا الواقع من تأخر عاطفي وفكري، انعكس على تخلف المسلمين في كل مجالات الحياة. ومن هنا كانت كتابته في السيرة محاولة ليبعث الأمة حتى تنفض عن نفسها غبار الخمول، وتنبعث من وهدة التخلف والتأخر، متأسِّية برسول الله ﷺ الذي بعث الأمة من سباتها، وحررها من كل ما كانت ترسف به وما تعانيه من تأخر عقلي وعاطفي وعلمي وحضاري.

من هنا فالغزالي لا ينفك عند قصصه وقائع السيرة، يعمد إلى أسلوب يومئ إلى الحاضر المؤسف، ويُحَمِّلُ كلَّ قصة شحنةً من صدق العاطفة، وسلامة الفكر، وجلال العمل؛ كي يعالج هذا التأخر المثير[٢].

جدية دراسة السيرة

من تلك المنطلقات التي أشرنا إليها، التي ألزم بها الغزالي نفسه، تكون دراسة السيرة عنده أمر في غاية الخطورة والأهمية، لا يجوز أن تحمل على محمل التسلية، أو اللهو بأي شكل من الأشكال وعلى الرغم من تكراره لحبه لرسول الله ﷺ، وتأكيده أنه لا يغيض حبه إلا من قلب منافق جحود، إلا أنه ينتقد بعنف شديد أولئك الذين يُعبرّون عن حبهم لرسول الله ﷺ، بتحويل سيرته إلى مجالس غناء وطرب، ولو كان ذلك تغنِّياً بمحاسن النبي ﷺ وشمائله. ويرى أن المسلمين ما جنحوا إلى هذا الاسلوب، في الإبانه عن تعلقهم بنبيّهم، إلا يوم أن تركوا اللباب الملئ، وأعياهم حَمْلُه، فاكتفوا بالمظاهر والأشكال؛ لذا فهو يرى أن الجهد الذي يتطلب العزمات، هو في الاستمساك باللباب، والعودة إلى جوهر الدين ذاته، فبدلاً من الاستماع إلى قصة المولد يتلوها صوت رخيم، ينهض المرء إلى تقويم نفسه، وإصلاح شأنه حتى يكون قريباً من سنن محمد ﷺ، في معاشه ومعاده، وحربه وسلمه، وعلمه وعمله، وعاداته وعباداته.

إن هذه النظرة الجدّية دفعت الغزالي إلى رفض مبدأ مزج الدين بالغناء والطرب مطلقاً، فإذا أراد أحد أن أن يغنّي أو يستمع إلى غناء فيلفعل، أما تحويل الإسلام نفسه إلى غناء؛ فيصبح القرآن ألحاناً عذبة، وتصبح السيرة قصائد وتواشيح، فهذا مالا مساغ له، ولا يقبله إلا الصغار الغافلون. وخير من هذا كله أن يستمع طلاب الغناء إلى اللهو المجرد والألحان، فإذا ابتغوا العمل الجاد المهيب طلبوه من مصادره المصفاة، قرآناً يأمر وينهى، وسنّةٌ تُفَصِّل وتوضِّح، ليُسار في هديها وينتفع من حكمتها، وسيرةً تنفح روادها بالأدب الزكي، والقواعد الحصينة، والسياسة الراشدة، وذلك هو الإسلام. [٣] وهنا أرى أن الغزالي قد اندفع أكثر مما ينبغي فالتغنيّ بالقرآن والتطريب بمدح الرسول ﷺ لا يتنافيان مع النظرة الجدية للإسلام، وأن المسلمين تقبلوا ذلك على مر العصور، وأن التغني بقصيدة مثل البردة للبوصيري أولى مما يشيع من الغناء والطرب بين المسلمين بكلمات فيها الخروج على الأدب وحتى على العقيدة.

منهجه في قبول الروايات

لقد أوضح الغزالي أنه ينطلق في كتابته عن سيرة الرسولﷺ من مجموعة من الثوابت والقواعد، التي لا مجال للشك فيها أولاً، هذه الثوابت التي قد تكون من مبادئ العقيدة؛ أي ما ثبت من الدين بالضرورة من عقائد، أو مستمدة من نصوص القرآن الكريم، أو ما ثبت قطعاً من السنة النبوية الشريفة.

وضمن هذا الإطار قد يقبل رواية لواقعة أوحديثاً نبوياً، في حين يرى علماء الحديث ضعفه ويرفضونه؛ لأنهم ينطلقون من قواعدهم في رفض الحديث الضعيف، المعتمدة على سنده، بصرف النظر عن موافقة معناه لمبدأ عام أو آية شريفة أو قاعدة فقهية ثابته. وقد يرفض رواية أو حديثاً ثبت صحته وفق قواعد أهل الحديث، لأنه يتعارض مع قاعدة ثابته، أو آية محكمة.

وعلى الرغم من أخذ نفسه بهذا المنهج، إلا أنه قَبِلَ أن يتولى أحدُ الملتزمين بمنهج أهل الحديث، وهو الشيخ محمد ناصر الدين الألباني تخريج الأحاديث، التي وردت في كتاب الغزالي «فقة السيرة»، وأن يطبق الألباني منهجه في القبول أو الرفض، وقد يعلّق الغزالي على ذلك تعليقاً سريعاً عابراً لبيان وجهة نظره.

وقد ضرب الغزالي مثلاً لكلا الموقفين بما يلي:

أ- استشهد الغزالي بحديث: «أحبوا الله لما يغذوكم به من نعمة، وأحبوني بحب الله». وأكدّ الشيخ الألباني أن هذا الحديث ضعيف الإسناد وغير صحيح، وأورد لذلك حججاً في أسباب ضعف إسناده وروايته. أما الغزالي فقال فيه أنه يتفق مع الآية الكريمة «قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم والله غفور رحيم»،ولأنه من فضائل الأعمال.

ب- رفض الغزالي رواية البخاري ومسلم للطريقة التي باغت فيها الرسول ﷺ بني المصطلق، وقد وردت على النحو التالي: «باغت القوم وهم غارّون، ما عرضت عليهم دعوة الإسلام، ولا بدا من جانبهم نكوص، ولا عرف من أحوالهم ما يقلق»

ويرى الغزالي أن هذه الرواية كما وردت تتعارض مع مبدأ ثابت في الإسلام، وهو أنه لا يحارب قوم إلا بعد إنذارهم وعرض الإسلام عليهم. ويرى الغزالي أن رواية البخاري ومسلم قد تكون ناقصة، وأن الأخذ بالغرة إنما كان بعد أن نشب الصراع، واتخذ كل فريق موقف المحارب. وذلك على الرغم من تصحيح كل رجال الحديث ومنهم البخاري ومسلم لتلك الرواية.

وقد دافع الشيخ الغزالي عن منهجه هذا، ونفى أن يكون فيه أدنى استهانة بالسنة فيقول: «ومعاذ الله أن نشغب على السنّة فهي الأصل الثاني للإسلام يقيناً، بيد أني تتبعت السُّنَنَ فعرفت أنها في جملتها تتفق مع القرآن الكريم، في أنه لا حرب إلا بعد دعوة وإنذار. وأكد أن هذا هو نهج الأئمة الفقهاء، فإنه ما من إمام فقيه إلا رد بعض ما صح، ايثاراً لما ظهر أنه أصح[٤].

لقد ناقش الغزالي بتفصيل أوفى موضوع قبول الأحاديث، في كتابه اللاحق على فقه السيرة، وهو كتاب «السنة النبوية بين أهل الفقة وأهل الحديث». وعلى الرغم من الفارق الزمني بين الكتابين، إلا أن منهج الغزالي بقي كما هو، فقد بين أن منهجه لا يخرج عن قواعد علماء السنة، الذين وضعوا خمسة شروط لقبول الأحاديث النبوية، ثلاثة منها في السند واثنان في المتن، فشروط السند أن يكون الراوي حافظاً وضابطاً لما يحفظ وعلى خلق وتقوى، وأن يضطرد ذلك في سلسة الرواة، فإذا اختل شرط في أي راوٍ من السلسة سقط الحديث عن درجة الصحة.

أما شرطا المتن فهما أن لا يكون الحديث شاذاً، ويكون الشذوذ إذا خالف الراوي الثقة في حديثه نصاً رواه من هو أوثق منه. وأن لا يكون في الحديث علة قادحه والعلة القادحة عيب يبصره المحققون في الحديث فيردونه.

وهنا يقف الغزالي وقفة متأنية في إيراد الأمثلة على رد عدد من الفقهاء لأحاديث لا يتطرق الشك إلى رواتها، إلا أنها تخالف قاعدة ثابته من قواعد الإسلام، مثل رد عائشة رضي الله عنها حديثا رواه عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وهو أنه لما طعن رضي الله

عنه، وعوّلت عليه ابنته حفصة وصهيب رضي الله عنهما، قال عمر لكل منهما: أما سمعت النبي ﷺ يقول: إن الميت يعذب ببكاء أهله عليه، تقول عائشة: لكن رسول الله ﷺ قال: «إن الله ليزيد الكافر عذاباً ببكاء أهله عليه، وأضافت: حسبكم القرآن ﴿ولا تزر وزارة وزر أخرى﴾.

ثم يورد بعد ذلك أمثلة أخرى لرد عدد من الفقهاء منهم أبوحنيفه، ومالك، ثم يأتي بأمثلة معاصرة، على ضيق نظر بعض الذين يزعمون تمسكهم بنصوص الحديث، فيقعون في أخطاء جسيمة في العقيدة وأمور حياتيه هامة. ويمكن لمن يريد التوسع في ذلك العودة إلـى كتابه الآنف الذكر [٥].

هذه أبرز معالم منهج الشيخ محمد الغزالي في كتابته في السيرة النبوية، وقد اختار – رحمه الله– مواقف معينة من السيرة تمتد من الفترة التي سبقت بعثة النبي ﷺ، إلى وفاته، دون أن يلزم نفسه بكل تفاصيل حياة النبي ﷺ. وسوف أستعرض في هذه الدراسة أبرز تلك المواقف التي عالجها الغزالي، وأنظر فيها في ضوء منهجه، وأشير إلى الخصائص التي استطاع الغزالي إبرازها في كتابه القيم «فقه السيرة».

ومع أن الغزالي، رحمه الله، له آراء ونظرات في السيرة النبوية مبثوتة في كتبه المختلفة، إلا أن هذا الكتاب جامع لهذه الآراء والنظرات، سيما وأنه ألفه في ظلال الحرم النبوي الشريف في جوار المصطفى ﷺ عندما أقام في المدينة المنورة. ويروي صديقه وتلميذه الدكتور يوسف القَرَضَاوي، جيشان عاطفة الغزالي أثناء تأليفه هذا السفر، وأنه كثيراً ما كان يكتب ودموعه تنهمر على الورق ليختلط الدمع بالمداد [٦]

مجالات بحث الغزالي في السيرة النبوية الشريفة

في الصفحات التالية سوف استعرض أهم الموضوعات التي تطرق إليها الغزالي في كتابته للسيرة النبوية الشريفة، وخصائص معالجته لتلك الموضوعات وما تميزت كتابته فيها.

تحليل الأوضاع السائدة عند البعثة النبوية:

معظم الذين كتبوا في السيرة، وبخاصة من المحدثين، استهلوا كتاباتهم بنبذة تاريخية عن أحوال البشرية، عندما ابتعث الله رسوله محمداً ﷺ، إلا أنهم تفاوتوا في ذلك، فمنهم من شمل تحليله أوضاع معظم الأمم من نواحي الحياة المختلفة، ومنهم من قصر ذلك على أوضاعها الدينية، ومنهم من اكتفي بتحليل واقع أهل الكتاب من اليهود والنصارى، بالإضافة إلى العرب، ومنهم من اكتفى بأحوال الجزيرة العربية. أما الغزالي فقد عالج عدداً من القضايا التي تتصل بأحوال البشر عند البعثة؛ مجملاً أحياناً؛ ومفصلاً أحياناً؛ وكانت أبرز القضايا التي تناولها بالتحليل والبحث عن تلك الفترة، القضايا التالية:

أ- الواقع الديني لدى الأمم

لم يعمد الغزالي إلى أي تفصيل في أحوال تلك الأمم، بل لم يذكرها على سبيل الاستقراء والاحصاء لها، بل اكتفى بالإشارة إلى بعض الأمم ذات الحضارة والمكانة في التاريخ، مبيناً ما آلت إليه أحوالها عموماً في أهم قضيتين اعتقد الغزالي بأهميتهما؛ وهما الوثنية والخرافة.

وهو لا يقف كثيراً عند الوثنية، بصورتها التقليدية المعروفة عبر التاريخ؛ من عبادة للأوثان والأصنام، ممثلة بعبادة تماثيل منحوته من الحجر أو مصنوعة من الطين أو الخشب، أو عبادة وتقديس الحيوانات، فهو يشعر أن البشرية قد تجاوزت ذلك، كما أن هدفه من الحديث عن الوثنية ليس لبيان بطلان الوثنية القديمة، التي كانت سائدة إبان البعثة فحسب، بل يتجاوز ذلك، وهذا هو الأهم عنده، إلى الواقع المعاصر الذي تعيشه البشرية اليوم، والذي تتخذ فيه الوثينة أشكالاً جديدة وصوراً أخرى قد لا تشبه الصور التقليدية للوثينة في الجاهلية الأولى؛ لذا جاء تعريفه للوثنية مغايراً لما كان معروفاً عنها؛ إذْ يقول:

«إن الوثنية هوانٌ يأتي من داخل النفس لا من خارج الحياة، فكما يفرض المحزون كآبته على ما حوله، وكما يتخيل المرعوب الأجسام القائمة أشباحاً جاثمة، كذلك يفرض

المرء الممسوخ صَغَار نفسِهِ وغَباءَ عقلِهِ على البيئة التي يحيا فيها، فيؤله من جمادها وحيوانها ما يشاء. ومن ثم كان العمل الأول للدين داخل الإنسان نفسه، فلو ذبحت العجول المقدسة، ونكست الأصنام المرموقة، وبقيت النفس على ظلامها القديم، ما أجدى ذلك شيئاً في حرب الوثنية.سيبحث العباد المفجوعون عن آلهة أخرى غير ما فقدوا. وما أكثر الوثنيين في الدنيا، وإن لم يلتقوا حولَ نُصُب[٧].

وكذلك الأمر بالنسبة للخرافة، إذ يرى أنها تتخذ أشكالاً خادعة تخفى على كثير من الناس: «فالخرافة لا تأخذ مجراها في الحياة وهي تعلن عن باطلها أو تكشف عن هرائها؛ كلا أنها تداري مجونها بثوب الجد، وتستعير من الحق لبوسه، وقد تأخذ بعض مقدماته وبعض نتائجه، ثم تتزين بعد ذلك للمخدوعين، وكذلك فعلت الوثنية، لقد أغارت على الدين الصحيح وحقائقه الناصعة، لا كما يغير النحل على أزهار الربيع، بل كما تغير الديدان وأسراب الجراد على الحدائق الغناء فتحيلها قاعاً بلقعاً»

ويمر الغزالي مراً سريعاً على الخرافات لدى الأمم، ولكنه يقف أكثر تأنياً عند النصرانية ويبيّن ارتباط الخرافة فيها بانحرافها عن عقيدة التوحيد إلى الشرك والوثنية التي اقتبستها النصرانية من الوثنيات السابقة واقتبست معها خرافاتها، ولا يغفل عن ربط هذه الوشائج الوثنية بالتاريخ الإسلامي، وكيف تآلبت قوى الشرك الوثنية مع أهل الكتاب على محاربة المسلمين، وإيذائهم [٨].

ب—طبيعةالرسالةالخاتمة:

اختار الغزالي صفتين تفرد بهما نبي الإسلام عمن سبقوه من الرسل وهما عموم الرسالة وديمومتها. ويتحدث الغزالي عن ذلك بأسلوب الأديب، ويسوق رأيه وكأنه يحكي قصة، ولكنه يندفع كعادته فيوجه نقداً لاذعاً لأولئك الذين يفهمون اتباع النبي ﷺ التصاقاً بمسجده وجواراً في مدينته فيقول عنهم:

«رأيت حشداً من الناس يتلمس جوار الروضة الشريفة، ويودّ أن يقضي العمر بجانبها، ولو خرج النبي حياً على هؤلاء لأنكر مرآهم وكره جوارهم. إن رثاثة هيئتم وقلة فقههم، وفراغ أيديهم وضياع أوقاتهم، وطول غفلتهم تجعل علاقتهم بنبي الإسلام أوهن من خيط العنكبوت»[٩].

وأرى أن هذه النظرة إلى أولئك المحبين الوالهين لرسول الله ﷺ على طريقتهم لا ينبغي أن ينظر إليها بهذه القسوة، فليسوا جميعاً كما وصفهم الغزالي، بل إن كثيراً منهم، على رثاثتهم وقلة ما في أيديهم، قد يكونون ممن امتلأت رؤوسهم وعقلوهم فقهاً وعلماً بالإسلام، إلى جانب امتلاء قلوبهم حباً لنبي الإسلام ﷺ، وعبروا عن حبهم وشوقهم برغبتهم بالالتصاق بمسجده والعيش بمدينته، ولا ينبغي أن نغفل في هذا المجال عن عدد من الأحاديث الشريفة في فضل المدينة المنورة والترغيب في العيش فيها، وأن بعض هذه الأحاديث مكتوبة على جدران مسجد رسول الله ﷺ يقرؤها زواره ويتأثرون بها، وتلهب أشواقهم وحبهم للمكان وصاحب المكان.

جـ- العرب حين البعثة

يركز الغزالي في حديثه عن أحوال العرب على محاولة فهم البيئة التي بُعث فيها النبي ﷺ. وهو يخالف الذين يرون مكة حين البعثة قرية منقطعة عن العمران في صحراء موحشة، بل كانت مدينة مترفة شبعت حتى بطرت. ومن هنا يوضح الغزالي مفهومه عن التقدم، والتخلف، ويؤكد أن مظاهر العمران المادي مهما بلغ ليس دليلاً على التقدم، وأن من أخطر مظاهر التخلف فساد القيم، ويقارن بين ما شاع لدى المجتمعات القديمة منذ عهد نوح، وبين المجتمعات الحديثة في باريس وهوليود، وبين ما كان شائعاً في مكة من مفاسد فيراها جميعاً وجهاً واحداً من فساد القيم ومظهراً لتخلف الفكر على الرغم مما كان يبدو على كل تلك المجتمعات من مظاهر التقدم المادي.

ويخلص من ذلك كله إلى أن وصول المجتمع العربي إلى تلك الحالة كان إرهاصاً لظهور المُصْلِح، وهي الحالة التي كان يعيشها أولئك النفر من أهل الكتاب، والعرب الموحدين، الذين كانوا يتوقعون ظهور النبي الذي بشر به الأنبياء السابقون.

وفي ثنايا حديثه عن رسول الله ﷺ يتحدث الغزالي عن اصطفاء الله للنبي، وصلته بالوحي، ونزول القرآن الكريم مفرقاً خلال ثلاث وعشرين سنة، وكيف كان تركيز القرآن الكريم على المبادئ، وليس على الأشخاص، كقوله تعالى :«قل أرأيتم إن أهلكني الله ومن معي أو رحمنا فمن يجير الكافرين من عذاب أليم».

د–عودة إلى موضوع السنة:

قبل أن يشرع الغزالي في تقديم أبحاثه عن السيرة، يمهد ببحث موجز عن علاقة السنة بالقرآن الكريم. وقد لا يكون موضع هذا البحث في هذا الموقع، إلا أنه أراد أن يؤكد على نقطة هامة في منهجه سبق أن أشرت إليها، وهي أنه ينظر إلى الروايات كلها، سواء جاءت تحت عنوان السيرة أم تحت عنوان السنة، من زاوية عرضها على كتاب الله تعالى. فهو، أي القرآن الكريم، روح الإسلام ومادته، قد تكفل الله بحفظه فصَانَ اللّهُ به حقيقة الدين وهو قانون الإسلام، والسنة هي تطبيقه .

ويرى أنه لا يجوز أن يشتغل بالسنة –ومنها السيرة– من لم يدرس علوم القرآن، وأن السنة قد ابتليت من قديم بمن يحفظ الكثير منها ولا يعي إلا اليسير، ويضرب أمثلة في ذلك من أقوال عائشة وعمر رضي الله عنهما، ويعرج على بعض الفقهاء ومنهجهم في التعامل مع السنة، ويأتي بأمثلة واجهها الغزالي بنفسه عانى منها سوء فهم بعض المعاصرين للإسلام، بسبب تمسكهم بظاهر حديث لم يحسنوا فهمه، أو لم يمحصوا روايته، ويلخص معاناه المسلمين من ذلك بهذه العبارات القوية:

هجر المسلمون القرآن إلى الأحاديث،

ثم هجروا الأحاديث إلى أقوال الأئمة،

ثم هجروا الأئمة إلى أسلوب المقلدين،

ثم هجروا المقلدين وتزمهتم إلي الجهال وتخبطهم[١٠].

هـ-النبيوخوارقالعادات:

يختم الغزالي أبحاثه الممهدة لدراسته للسيرة بحديث عن علاقة شخصية النبي ﷺ بالمعجزات والخوارق، ويؤكد على بشريةالرسول ﷺ، وأن حياته لم تخرج عن سنن الكون، فهو يجوع ويشبع، ويتعب ويستريح، ويحزن ويسر، وأن معجزته في القرآن الكريم، وأن الخوارق التي تنسب إلى الرسول ﷺ لم تكن في وقت من الأوقات دليلاً على نبوته. من هنا هاجم الغزالي بعنف أولئك الذين يحولون الإسلام إلى ركام من الأوهام بنسبة الخوارق، تحت عنوان الكرامات، إلى الصالحين. ويؤكد أن سنن الله تجري على كل البشر ومنهم النبي ﷺ، ويمثل لذلك بما أصاب النبيﷺ والمسلمين في غزوة أحد من الهزيمة، عندما قصَّرُوا في مراعاة السنن التي وضعها الله عز وجل.

حياة النبي من الميلاد إلى البعث

استعرض الغزالي حياة الرسول ﷺ في تلك الفترة كما فعل معظم كتاب السيرة مشيراً إلى أبرز الأحداث خلالها موضحاً منزلة أسرته في قريش، إلا أن الغزالي ذهب في فهمه وتفسيره لبعض الأحداث مذهباً تفرد به عن معظم كتاب السيرة وكان أبرزها:

أ- تحديديوم ميلاده:

مع أنه تبنى الشائع في ذلك، إلا أنه أوضح أن تحديد هذا التاريخ لا يرتبط به من الناحية الإسلامية شيء ذو بال، وأن الأحفال التي تقام لهذه المناسبة تقليد دنيوي لا صلة له بالشريعة، وكأنه يشير هنا إلى تميز النظرة الإسلامية، في هذا الأمر، عن المسيحية التي رتبت الكثير من الطقوس على يوم ميلاد المسيح عليه السلام.

ب-معجزات الميلاد:

أشار الغزالي إلى ما رواه كتاب السيرة عن أحداث خارقة حصلت عند مولده، مثل سقوط شرفات إيوان كسرى، وخمود نار المجوس، وانهدام بعض الكنائس حول بحيرة «ساوة»، لم يقطع بثبوتها، ورأى الغزالي أن هذه المظاهر كانت رمزاً لأحوال الظلم والطغيان التي تمثلها، وكان مولد النبي إيذاناً بزوالها وما صاحبها من ظلم وطغيان، وأن الناس بعد أن حررهم الإسلام من قيود العسف تخيلوا هذه الارهاصات وأحدثوا لها الروايات الواهيه،وأن محمداً ﷺ غنيٌ عن هذا كله.

جـ-رضاعه في البادية وحادثة شق صدره:

لم يقف الغزالي طويلاً في تحليل رضاعه في البادية، بل لم يعن بتحقيق المدة التي قضاها، وإنما عَرّج على حال الناس الذين يعيشون هذه الأيام في شقق ضيقة كالعلب، ورأى في عيش البادية عودة إلى الطبيعة. وأما حادثة شق الصدر، فإنه بعد أن يوردها كما رويت في كتب السيرة، يفسرها في ضوء الآية الكريمة «ألم نشرح لك صدرك» فيؤكد أن شرح الصدر الذي عنته الآيات ليس جراحة يجريها ملك أو طبيب، ويرى أن ذكر الشق من عبارات المجاز التي تقع في السنة.

د-قصة النبي مع بحيرا الراهب:

يرجح الغزالي أن قصة بحيرا، الراهب ليست ذات أهمية، على الرغم من أن كثيراً من رهبان النصارى كانوا يستشرفون بعثة نبي، تحقيقاً لبشارة عيسى عليه السلام، إلا أن الغزالي يرى أن معظم ما ورد في هذا الخصوص كان مضاهاة لما ورد في المسيحية نفسها من بحث أعداء عيسى عليه السلام عنه، وهو طفل، ليقتلوه، وكما حصل في ملاحقة أعداء بوذا له وهو طفل كذلك.

هـ-حياة النبي من صباه إلى بعثته:

استشرف الغزالي تلك الفترة من حياة النبي ﷺ من خلال معالم معينة، وقف عند كل منها وقفة قصيرة، دون أن يسهب أو يفصل، ابتدأها بالإشارة إلى الطريقة التي نشأ

فيها محمد ﷺ متصلاً بمعارف الكون من خلال التأمل والتعلم الذاتي، ولم يناقش مسألة هامة كانت مَعْلَماً في حياته، وهي الأمية، واعتقد أن المسألة جديرة بالبحث في مثل منهج الغزالي في التحليل والتعليل، وليس الاكتفاء بالسرد للأحداث.

ذكر الغزالي كذلك مشاركة محمد ﷺ بحرب الفجار، وحلف الفضول، وتوسع في الحديث عن الحلف وأسبابه، أكثر مما ذكر عن حرب الفجار، متابعاً في ذلك معظم كتاب السيرة الذين فعلوا الشيء نفسه.

وأبرز في فترة شباب محمدﷺ قوة نفسه، وبعده عن مثالب الجاهلية، من مجون في الخلق، أو تقديس للأصنام، ويتحدث عن زواجه من خديجة رضي الله عنها، ويقف عند فقد النبي لأولاده الذكور، ويرى أن تواصل آلام اليتم بآلام فقد الأولاد، أوجد عنده شفافية ورقة في مواساة المحزونين ومداواة المجروحين، دون أن يعرج على ربط ذلك بما أوضحه القرآن بقوله تعالى ﴿ما كان محمد أبا أحد من رجالكم﴾.

ويورد الغزالي شيئاً عن مشاركة محمد ببناء الكعبة معرجاً على شيء من تاريخ بناء المسجد الحرام، ثم يأتي على ذكر ما عانى بعض الرافضين لوثنية قريش، وبحثهم عن الدين الحق، ويمثل بواحد منهم هو زيد بن عمرو بن النفيل، وكيف أن أولئك النفر رفضوا دين قريش، ولكنهم لم يصلوا إلى المعرفة التامة لدين الحق، وكأن القدر يعد لهذه الرسالة الضخمة رجلها الضخم،وهو محمدﷺ الذي استمر في تأمله وبعده عن الواقع الديني لمكة، ملتزما البعد الكامل عن ذلك الواقع شهراً في السنة، يتحنث فيه بغار في راس أحد جبال مكة، يتعبّدُ، ويصقلُ قلبَه، وينقي روحَه، ويقتربُ من الحق جهده، ويبتعدُ عن الباطل وُسْعَه؛ حتى وصل من الصفاء إلى مرتبة عالية انعكست فيها أشعة الغيوب على صفحته المجلوة، فأمسى لا يرى رؤيا إلاّجاءت كفلق الصبح، إلى أن نزل عليه الوحي: «اقرأ باسم ربك الذي خلق * خلق الإنسان من علق * إقرأ وربك الأكرم * الذي علم بالقلم * علم الإنسان ما لم يعلم».

تلقي الرسالة

في حديث الغزالي عن نزول الوحي على رسول الله ﷺ يتوقف قليلاً عند حالة الخوف التي انتابت النبي ﷺ، وموقف خديجة رضي الله عنها، وعرضها ما حدث للنبي على قريبها ورقة بن نوفل، إلا أن الغزالي لم يناقش أو يعلق على ما دار بين ثلاثتهم، ويؤكد الغزالي على أهمية التغيير الذي يحدث للأنبياء عند ما يُوحَى إليهم، لكن استوقفني وصف الغزالي أن الله جعل محمداً يقرأ بعد ما كان أمياً (١١).

كان بودي أن يوضح الغزالي قصده من العبارة، لا سيما أن بعض المؤرخين وبخاصة غير المسلمين لهم رأي في موضوع أمية النبي ﷺ، فهل قصد الغزالي من قوله يقرأ أنه انتقل من حال الأمية التي تعني العجز عن القراءة والكتابة، إلى حدوث القدرة عليهما؟ أم أن المقصود قراءته خلف جبريل وترديده لما يقرأ عليه الملك؟

أمر آخر ذكره الغزالي كغيره من المؤرخين لتلك الفترة المبكرة من النبوة، وهو فتور الوحي، دون أن يبين مدة الفتور أو آثاره، ويمضي الغزالي في حديثه عن فترة العهد المكي من النبوة في فصل واحد.

إن هذه الفترة من مسيرة النبوة تشتمل على ثلاث عشرة سنة من مجموع المدة التي مكث فيها النبي ﷺ في الأرض، نبياً يوحى إليه؛ أي أنها تشكل ٥٦٪ من فترة النبوة، إلا أنها لم تأخذ من كتاب الغزالي فقه السيرة إلا ثلاث وخمسين صفحة من الكتاب البالغ خمسمائة وأربع صفحات أي بمقدار ١٠٪ من الكتاب فقط.

إن الغزالي لم يخرج عن توجه غيره، ممن سبق من معظم كتاب السيرة كذلك الذين كان تركيزهم على العهد المدني أكثر من العهد المكي . ويمكن قبول ذلك بسبب حالة الاضطهاد والشدة التي عانى منها الرسول ﷺ وأصحابه في تلك الفترة مما جعل نقل تفاصيلها أشد صعوبة. ولكني أرى أن الباحثين في السيرة عليهم أن يعيدوا البحث في تلك

الفترة، وأن تعطى ما يتناسب مع مقدارها في مسيرة الدعوة الإسلامية؛ إذ أنها لا تقل أهمية عن العهد المدني، على الرغم من كثافة الأحداث السياسية والعسكرية، التي حصلت في العهد المدني، ولا ينبغي أن يغرُب عن البال أن المكاسب التي تحققت فيه كان أساسها ومرتكزها على الإعداد المعمق للإنسان المسلم في العهد المكي .

لقد تناول الغزالي أحداث تلك الفترة مبرزاً المواقف والمعالم التالية منها :

ميادين الدعوة:

تحدث الغزالي عن أربعة ميادين للدعوة الإسلامية في تلك الفترة، هي: توحيد الله، والإيمان باليوم الآخر، وتزكية النفس، وحفظ كيان الجماعة الإسلامية.

ولكنني اعتقد أن ما شعر به أهل مكة من أخطار هذا الدين تعدو ذلك إلى المبادئ الإجتماعية والإقتصادية والسياسية التي دعا إليها محمد رسول الله ﷺ مثل تحرير العبيد، وإعلان المساواة، والدفاع عن حقوق الإنسان، ومنع الظلم بكل أشكاله، والثورة على الإستبداد والفساد؛ مما عدوا ذلك إفساداً للنظام الإجتماعي، وتهديداً لاستقرار الحياة على الوتيرة التي كانت قائمة، على ما فيها من ظلم الطبقة الدنيا من المجتمع، فقد كانت التهمة التي ترددها قريش ضد الرسول أنه فرق جماعتهم [١٢]، وأغرى بهم عبيدهم. وعندما راجع أبو بكر سادة قريش في تعذيب عبيدهم الذين اسلموا مثل بلال، كانوا يقولون أنت أفسدتهم فأنقذهم، فكان أبو بكر يشتريهم ويعتِقُهم [١٣].

الرعيل الأول ونماذج من فعل قريش وصبر المسلمين:

وقد أوجز الغزالي في التحدث عن بعض السابقين في الإسلام مثل خديجة، وزيد بن ثابت، وأبي بكر رضي الله عنهم، وكيف تطورت الدعوة من حال السر إلى الجهر بها، وما واجه المسلمين من أذى قريش، ودور أبي طالب في حماية رسول الله ﷺ. ثم استعرض نماذج ممن اضطهدوا في تلك الفترة من المسلمين اكتفى ببعض من كانوا عبيداً، مثل عمار وبلال وخباب، وكيف أخفقت محاولات قريش في منع انتشار الإسلام. سواء

في ذلك أسلوب التعذيب أو محاولة الإغراء، مما قاد إلى المرحلة التالية، وهي محاولة البحث عن بديل، وتمثلت في الهجرة الأولى للحبشة.

ثم يستعرض الغزالي ما نجم عن انتشار الإسلام بدخول بعض الشخصيات القوية فيه، مثل حمزة وعمر؛ مما قاد إلى مقاطعة قريش للمسلمين، ولكل من ساعدهم، حتى ممن لم يسلم مثل أبي طالب وبني هاشم.

ثم يسجل الغزالي عن تلك الفترة ما أصاب النبي من حزن شديد، وبخاصة عندما فقد عمه أبا طالب وزوجته خديجة، وفشلت محاولته مع أهل الطائف، ويتوقف عند حادثة الإسراء والمعراج، ويناقش الخلاف الذي وقع في طبيعة تلك الرحلة، وهل كانت بالروح أم بالجسد والروح، ولكنه يصرف النظر عن ذلك، ويؤكد على أهمية الإسراء والمعراج في فهم ارتباط الإسلام ونبيه بالنبوات السابقة، وأن الرحلة كانت تسلية للنبي، ورداً غير مباشر على مطالبة قريش بالمعجزات، وكان حديث الغزالي عن الإسراء خاتمة تحليله للعهد المكي؛ إذ انتقل بعد ذلك إلى حادث الهجرة إلى المدينة.

الهجرة

عقد الغزالي مقارنة بين مجتمع مكة ومجتمع المدينة؛ وكيف كان ارتباط أهل مكة بمصالحهم التي رأوها مهددة بالإسلام، وأن المدينة في احتكاكها مع أهل الكتاب من اليهود كانت مهيأة لقبول الدين الجديد.

وفي استعراضه لكيفية انتشار الإسلام في المدينة، يعقد الغزالي مقارنة بين دعاة الإسلام ممثلين بمصعب بن عمير، الذي تولى مهمة نشر الإسلام في المدينة، وبين المبشرين من النصارى. ويمكن القول أن ميزة الغزالي في عرضه لأحداث السيرة تحليلاً ودراسة برزت في حديثة عن الهجرة، مقدماتها ونتائجها، وميزته تذكر غالباً في العاطفة القوية والحماس الذي يشع من كلماته؛ فليست السيرة عنده مجرد حدث تاريخي يُروَى ببرود وموضوعية كما يقولون، وإنما هو عنده حياة متدفقة تملؤه حباً وغضباً في آنٍ واحد، وتدفع به إلى ربط الماضي بالحاضر، وحسبي مثالاً على ذلك المقارنة التي عقدها بين

هجرة المسلمين إلى المدينة وما قادت إليه من إقامة الدولة الإسلامية، وبين فعل اليهود في فلسطين فيقول:

«ما أبعد البون بين ما صنع اليهود اليوم أو بتعبير أدق ما صُنع لليهود وبين ما صنع الإسلام وبنوه لأنفسهم، يوم هاجروا إلى يثرب نجاة بدعوتهم، وإقامة دولتهم.

إن اليهود جاءوا على حين فرقة من العرب وغفلة وضعف، وحاكوا مؤامراتهم في ميدان السياسة الغربية الناقمة على الإسلام وأهله، فإذا العالم كله يهجم على فلسطين بالمال والسلاح والنساء والدهاء، فلم يستطع مليون عربي حصرتهم الخيانات في مآزق ضيقه أن يصنعوا شيئاً، فهاموا على وجوههم في الأرض، نتيجة اتفاق امريكا وروسيا وانجلترا وفرنسا، وملوك العرب على خذلان أولئك العرب الضعفاء.

وبذلك قام الوطن القومي لليهود..

أين هذا الحضيض من رجال أخلصوا لله طواياهم، وترفعت عن المآرب هممهم.. إن المدينة الفاضلة التي تعشقها الفلاسفة وجاءت في سطور الكتب لهي دون ما صنع المهاجرون الأولون[١٤]».

ويمضي الغزالي في حديثه عن الهجرة مورداً الحدث كا حصل، معلقاً بعاطفته على مواقف من الهجرة مثل اللجوء إلى الغار، وحديث سراقة، ودعاء النبيﷺ.

العهد المدني

استهل الغزالي حديثه عن سيرة الرسول ﷺ في هذا العهد، بالحديث عن مصاعب الاستقرار بالوطن الجديد، متابعاً كتّاب السيرة من قبله، في ذكر المصاعب الناجمة عن اختلاف المناخ والبيئة بين مكة والمدينة، وأنهم تغلبوا عليها بدعاء الرسول ﷺ. ولم يقدم لتحليل المصاعب الاقتصادية والاجتماعية، بل ركز بعد ذلك على منجزات الرسول في تثبيت دعائم المجتمع الجديد.

لقد تحدث عن بناء المسجد، والمؤاخاة بين المسلمين، وتحديد صلة المجتمع الإسلامي والدولة المسلمة بالفئات غير المسلمة، التي تعيش معهم، وخاصة اليهود، مبيناً بعض صفاتهم، وانحرافهم عن الدين الحق الذي جاء به أنبياؤهم.

لقد اختار الغزالي واقعة إقرار الأذان أنموذجاً لتَكَوّن الشخصية الإسلامية الشفافة المتجاوبة مع ما يريده النبي من المسلم، وتحدث عن العبادة من حيث أنها وفاء لحق الله، وكيف تطورت علاقة المسلمين بالرسول ﷺ، حتى أصبح القدوة لهم في كل حياتهم، وامتلأت قلوبهم بحبه، واستعداد الفرد المسلم لبذل نفسه وكل ما يملك، لفداء الرسول والدفاع عن الدين، لقد مهد الغزالي بتلك الموضوعات لتحليله لفترة العهد المدني منذ وصول الرسول ﷺ إلى المدينة إلى وفاته بعد عشر سنين.

قد يخيل للقارئ أن منهج الغزالي في تقديمه للسيرة بأسلوبه التحليلي، الذي لا يُعنَى بسرد الحدث فقط، أنه قد يلجأ إلى تقسيم الفترة إلى أحداث وموضوعات متجاوزاً التسلسل الزمني، مثل معالجة قضايا اليهود، أو المنافقين، أو الصراع مع قريش، وهكذا، إلا أنه اختار الالتزام بالنسق التاريخي للأحداث، كما وردت في كتب السيرة، ومع ذلك فلم يقيد نفسه بكل الوقائع والأحداث، التي أوردها كتاب السيرة، بل اختار منها ما كان يحس أنه يستطيع من خلاله إبراز قضية أو إيضاح مسألة مهمة، وبخاصة مما يمكن ربطه بواقع الإسلام والمسلمين.

وقد قسم الغزالي العهد المدني إلى ثلاثة مراحل زمنية:

الأولى من بدايته إلى غزوة الأحزاب، وبني قريظة؛ والثانية من صلح الحديبية إلى عام الوفود؛ والثالثة عن استقرار الإسلام في السنتين الأخيرتين من حياة النبي ﷺ.

الكفاح الدامي

لقد اشتمل حديثه في إطار هذا العنوان على الأحداث التي حصلت من بدء الاحتكاك العسكري مع أعداء الإسلام خارج حدود المدينة إلى ما قبل صلح الحديبية.

لقد كان تركيز الغزالي في دراسته لهذه الفترة على المعارك الرئيسة من غزوات أو سرايا، وفي كل حدث يحلله أو يؤرخ له، لا يغفل عن الإشارة إلى واقع الأمة الإسلامية وما تتعرض له من مخاطر على يد أعدائها.

ففي حديثه عن بدايات الصراع المسلح بين المسلمين وأعدائهم، يبرز الغزالي أهمية الإعداد الحربي للمسلمين اليوم، ويعرّج على اتهامات المستشرقين، بأن الإسلام إنما قام على الحرب، وأن المسلمين كانوا يشنون الحروب دون مبرر. ولا يتحرج عن إبراز موقف أو حادثة ، من أي موقع من العالم، لتأكيد ما ذهب إليه، أو ما أراد إبرازه من فكرة أو مبدأ من مبادئ الإسلام، ومثال ذلك عندما تحدث عن مبررات إعداد الرسول ﷺ أصحابه للقتال وتدريبهم عليه؛ يقول عن حملات المستشرقين :

«أما تخرص المستشرقين والحقد على الإسلام من أهل الأديان الأخرى، والادعاء بأن المسلمين جنحوا إلى القوة حيث لا مبرر لها، فذلك كله لغو طائش، وهو جزء من الحملة المدبرة لمحو الإسلام من الأرض، وإستبقاء أهله عبيداً للصليبين والصهيونية وما إليهما»[١٥].

ويستعرض الغزالي السرايا والغزوات التي سبقت معركة بدر باختصار، ثم يقف عند بدر، أولى مواقع الإسلام الهامة، فيفصّل في أسبابها وأحداثها ونتائجها، وتأخذ منه أكثر من ثلاثين صفحة، وساقها بأسلوب قصصي مشوق، وربط بينها وبين بدء الخصام بين المسلمين واليهود في المدينة.

وناقش بعض القضايا التي ذكرت مع هذه المعركة وتجنب الخوض في بعضها، فلم يناقش مسألة نصر الملائكة للمسلمين، ووقف عند مسألة الأسرى واختيار الرسول ﷺ الرأي القائل بعدم قتلهم.

وعلل ما جاء في القرآن بخطأ استبقائهم بأن أولئك الأسرى كانوا مجرمي حرب، وأن حكم الأسرى في الإسلام هو حسن المعاملة، ولم يذهب مذهب بعض المفسرين والعلماء

بأن ذلك الحكم كان في بداية الإسلام ثم نسخ. ولا شك أن اجتهاد الغزالي في هذه المسألة أصوب وأقرب إلى العدالة.

وفي تحليله للمعارك بعد ذلك ، يُسهِبُ في سرده لمعركة أحد، ودراسة ما حدث فيها، وما نتج عنها؛ إذ كانت نتائجها العسكرية عكس نتائج بدر، وكان من أخطر نتائجها جرأة أعداء الإسلام من أعراب البادية، وغيرهم من القبائل، على المسلمين؛ مما دفع الرسول ﷺ إلى تحريك عدد من البعوث والسرايا إثر أُحُد، لتلافي تلك النتائج، وقد استعرض الغزالي تلك البعوث في ظلال نتائج أحد. وعد منها سرية أبي سلمة على بني أسد، وقتل المسلمين لخالد الهذلي، وقتلى المسلمين في الرجيع الذين غدر بهم رجال من قبائل عضل والقارة، وهذيل، وكذلك مأساة مقتل سبعين من الدعاة وحفظة القرآن الذين غدر بهم عامر بن مالك –ملاعب الأسنة.

لقد كان إجلاء بني النضير عن المدينة بعد تلك الأحداث بمثابة رد اعتبار للمسلمين بعد هزيمة أحد، وأن الكفة بدأت بالميلان لصالحهم، فكانت بدر الآخرة، واخضاع دومة الجندل على تخوم الدولة الرومانية، ثم انتصارهم على بني المصطلق، وكلها كانت لصالح المسلمين.

ويهتم الغزالي بإبراز بعض الأحداث التي حصلت أثناء الغزوات والمواقع الهامة أو بينها، مثل زواج النبي ﷺمن حفصة بنت عمر بن الخطاب، وزواجه من جويرية بنت الحارث زعيم بني المصطلق، وموقف عبدالله بن أُبّي زعيم المنافقين، وحديث الأفك على عائشة رضي الله عنها.

وبقدر ما عني الغزالي ببدر، و أحد، وقف عند غزوة الخندق وما تبعها من إجلاء يهود بني قريظة، ورأى أن تلك الأحداث تشكل مرحلة هامة في تأسيس دولة الإسلام، انطلقت بعدها المسيرة إلى طور جديد.

طور جديد

عالج الغزالي تحت هذا العنوان، أحداث الحديبية، ويهود خيبر، وعودة مهاجري الحبشة، وسائر الأحداث بعدها إلى فتح مكة، وغزوة تبوك، وأول حج في الإسلام.

رأى الغزالي أن توجُّه الرسول ﷺ ومعه أعداد غفيره من المسلمين لزيارة دينية للمسجد الحرام من غير عنف أو حرب حقق ثلاثة أمور:

أولاً : إفهام المشركين أن المسجد الحرام ليس ملكاً لقبيلة، ولا يجوز لأحد أن يصد الناس عنه.

ثانياً : إقرار حق المسلمين بالدخول إلى مكة على الرغم من أنها واقعة تحت سيطرة قريش.

ثالثاً : الرغبة العميقة في السلم، ونسيان الماضي وتأسيس علائق أهدأ وأرق مع أعداء الأمس(١٦).

لقد قص الغزالي الأحداث التي وقعت في الحديبية حتى إبرام المعاهدة، وما نجم عنها من خروج عدد من المسلمين المستضعفين، وتكوينهم عصابة تقطع طريق تجارة مكة، وتدمر أهم مصدر لاقتصادها، حتى طلبت قريش نفسها إلغاء الشرط الذي ينص على عدم إيواء المسلمين من جاءهم من قريش وحلفائها مسلماً، ذلك الشرط الذي سبب قلقاً للمسلمين واعتبروه مجحفاً بحقهم.

وعندما أتى على ذكر موضوع النساء المؤمنات المهاجرات واستثنائهن من ذلك الحكم، علق الغزالي على ذلك بغمز المسلمين الذي ينتقصون المرأة، مؤكداً على إشارة الآية إلى ما كانت تتمتع به المرأة المسلمة من استقلال فكري وكيان أدبي محترم، ولو حدث ذلك اليوم لتساءل فريق كبير من المسلمين من الذي يمتحن؟ رجل أم امرأة؟ وهل تمتحن المرأة مباشرة أو من وراء حجاب؟(١٧)

واستعرض الغزالي أهم آثار معاهدة الحديبية وهو تصفية ما بقي من قوة لليهود في منطقتي خيبر وتيماء، ثم ذكر عودة مهاجري الحبشة، وأوضح توجه المسلمين إلى تأديب الأعراب، وبداية توحيد الجزيرة العربية تحت راية الإسلام، ثم انطلاق الرسول ﷺ إلى مخاطبة ملوك وأمراء بقية المناطق في الجزيرة العربية وخارجها، يدعوهم إلى الدخول في الإسلام.

وفي ثنايا حديثه عن رسائل النبي ﷺ إلى الملوك، يتحدث الغزالي عن نتائج رسالته إلى كسرى ملك الفرس، وكيف أرسل كسرى إلى عامله إلى اليمن أن يرسل اثنين من رجاله الأشداء ليأتياه بمحمد الذي تجرأ على مقامه، وعلى عادته يقارن الغزالي بين أتباع الملوك بالأمس، وبين أتباع جبابرة الأرض هذه الأيام فيقول:

«إن تأليه الملوك ضلال قديم، وبعد أن انتشر الإسلام ذهبت حقيقة التأليه، ثم عادت الآن آثاره وخصائصه، فالملك يلقب صاحب الجلالة، ولا يُسئل عما يَفْعل، ويُبطل شرائع الله ليقيم شرائع الهوى، ويمتد هو وبطانته لتنكمش أمامها أمته» (١٨).

وفي حديثه عن غزوة مؤتة يبرز موقفين فيها ويتمنى على مسلمي اليوم لو تعلموا منهما، أحدهما تصرف ثابت بن أقرد، الذي أخذ الراية بعد مقتل عبدالله بن رواحة، وقال: يا معشر المسلمين اصطلحوا على رجل منكم فقالوا له أنت، فقال: ما أنا بفاعل، لا نكوصاً بل شعوراً بوجود الأكفأ، يعلق الغزالي على هذا التصرف بقوله:

«ليت كل امرئ يعرف أقدار الناس ينزلهم منازلهم التي يستحقونها فلا يكلف أمته أن تحمل عجزه وأثرته»(١٩).

والموقف الثاني في تصرف صبيان المسلمين في المدينة عندما استقبلوا الجيش العائد من مؤته بحثو التراب والاستنكار، واتهامة بالفرار من القتال في سبيل الله، يعلق الغزالي على تَكَوّن ذلك الجيل فيقول:

« أي نجاح بلغته رسالة الإسلام في صياغة أولئك الأطفال العظام.. إن مسلمة اليوم بحاجة ماسة إلى أن تعرف هذه الدروس» (٢٠).

ويفصل في شرحه عن حدث الفتح الأعظم لمكة، ويقف في نهايته عند أولئك الرجال الذي ناضلوا لرفع راية الإسلام، عبر مسيرة نيف وعشرين عاماً، ولكنهم مضوا قبل أن يروا ثمرة الفتح فيقول:

«أنه ليس من الضروري أن يشهد كل جندي النتائج الأخيرة للكفاح بين الحق والباطل»[٢١].

وفي تعليقه على معركة حنين، وما تبعها من أمر غنائم الحرب وكيف رضي الأنصار بتصرف الرسول ﷺ، بمنحه الغنائم التي اغتنموها بتضحياتهم إلى مسلمي الفتح من الطلقاء، الذين لم يقاتلوا أو يضحوا، ويربط بين هذا الموقف وما حدث بعد نيف وثلاثين عاماً، عندما وقع الحكم الإسلامي في أيدي طلقاء الفتح، ويعني بني أمية، ويعلق على ذلك بقوله:

«غير أننا نتساءل أكان من مصلحة الرسالات نفسها أن تقع هذه الأثرة؟ أم كان من سوء حظ الإسلام.. فيُقْصَى أصحاب السبق وأولو النصرة، ويملك زمام الدين آخر الناس دخولاً فيه وبصرا به»[٢٢].

ويلاحظ أن الغزالي ها هنا يربط بين سيرة الرسول وبين ما حدث بعدها بسنوات، وهو منهجه في ربط التاريخ بما بعده إلى الواقع المعاصر.

ويتحدث عن تبوك وكيف كانت بداية لانتشار الإسلام وراء الجزيرة العربية، ويعلق على انبهار المنافقين آنذاك بقوة الدولة الرومانية واستهزائهم بمحاولة الرسول ﷺ التحرش بها، ويرى أن العرب كانوا ينظرون إلى دولة الروم نظرة أهل افريقيه اليوم ألى أوروبا وأمريكا؛ أنها القوة التي لا تنال ولا تناوش [٢٣].

وبعد أن تحدث عن قضية المنافقين، التي بتت فيها سورة التوبة بعد معركة تبوك، تكلم الغزالي عن الوفود التي بدأت تؤم المدينة من مختلف المناطق، تعلن إسلام أقوامهم أو تفاوض على ذلك، ولم يذكر جميع تلك الوفود تفصيلاً، بل اكتفى فيها بمثلين: أحدهما

يمثل أهل الشرك، وهو موقف زعيم قبيلة سعد بن بكر، ضمام بن ثعلبة، وهو أعرابي خشن جاء متعجلاً وانصرف مسرعاً نقلت كتب الحديث والسيرة حواره مع رسول الله ﷺ بما لا يزيد عن صفحة كتاب، انصرف بعدها مسلماً، وفور وصوله إلى قومه دعاهم إلى الإسلام بنفس القوة والصراحة التي سأل فيها رسول الله ﷺ، فلم يمس ذلك اليوم رجل ولا امرأة من قومه إلا مسلماً.

أما المثال الثاني فهو وفد نصارى نجران الذي لم يسلم، ولكن تم عقد معاهدة بينهم وبين المسلمين. ويورد الغزالي بعد ذلك المحالفات التي حصلت فيما بعد بين نصارى نجران في الجنوب، وبين المرتدين بقيادة الأسود العنسي، والمحالفات بين بني تغلب نصارى الشمال، مع مسيلمة الكذاب، ويسخر من تقارب أهل الكتاب مع مدعي النبوة السخفاء. وكنت أحسب الغزلي سيعقد مقارنة بين تلك الحال وبين التحالفات التي قامت في التاريخ المعاصر بين النصارى واليهود من جهة وبين أشباه الوثنيين من شيوعيين وهنود ووثنيي أفريقيا من جهة ثانية، على محاربة الإسلام. ولكنه لم يفعل على غير عادته.

أمهات المؤمنين

تابع الغزالي بعض كتاب السيرة فخصص الفصل قبل الأخير من كتابة للحديث عن ازواج النبي ﷺ.

لقد بدأ حديثه في الدفاع عن فكرة تعدد الزوجات، ثم عن تاريخ الحياة الزوجية للرسول، ومن زواجه الأول من خديجة رضي الله عنها، وأنه بقي معها سني شبابه من الخامسة والعشرين إلى أن بلغ الخمسين لم يتزوج سواها، وأن زوجاته الأخريات تزوجهن بعد وفاتها، ولخص الغزالي الحجج التي تساق في الدفاع عن زواجه من عدة نساء، حتى اجتمع عنده في وقت واحد تسع زوجات، مبيناً أن أسباب زواجه من معظمهن يرجع إلى مبررات تتصل بإدارته وتصريفه لشؤون الأمة، ولم يهمل الحديث عن شؤونه الأسريه الأخرى المتعلقة ببناته وأبنائة.

ولا يجد القارئ في ما قاله الغزالي في هذا المجال جديداً على ما أورده كتاب السيرة القدماء والمحدثون في هذا المجال.

وبعد ذلك أتى الغزالى على حجة الوداع، التي جاءت تتوجياً لانتشار الإسلام في الجزيرة العربية، واستقرار أحوالها في ظل الدولة الإسلامية. وبعث الرسول الولاة في كل ناحية، وبدأ يهيء الأمة الإسلامية لفراقه، حتى تعتاد اتباع نهج النبوة، من غير أن يكون النبي بين ظهرانيها، فمن ذلك قوله حين ودع معاذ بن جبل الذي ارسله والياً إلى اليمن:

يا معاذ إنك عسى أن لا تلقاني بعد عامي هذا، ولعلك أن تمر بمسجدي هذا وقبري، فبكى معاذ [٢٤]. وتكرر الموقف على مسامع أكبر تجمع إسلامي في حجه الوداع إذ كرر فيها: «لعلي لا ألقاكم بعد عامي هذا» [٢٥].

وعلى الرغم من شعور الرسولﷺ باقتراب أجله، واطمئنانه لاستقرار الإسلام في جزيرة العرب إلا أنه ما فتئ يتطلع إلى نشر الإسلام خارجها، من هنا كان آخر عمل قام به إعداد جيش بقيادة أسامة بن زيد، وأمره أن يوطئ خيله البلقاء (منطقة عمان في الأردن) وما حولها والداروم من أرض فلسطين [٢٦].

وأتى الغزالي على التحاق الرسولﷺ بالرفيق الأعلى بالصيغة التي أوردها كتاب السيرة ولم يعلق عليها. ولعله كان من المفيد لو بحث في بعض الأمور التي بقيت مثار خلاف مثل قوله للمسلمين أئتوني بصحيفة أكتب لكم فيها، وموقف عمر من ذلك، ويبدو أن الغزالي اختار عدم الخوض في هذه المسألة الشائكة، التي يعدها بعض المسلمين وبخاصة الشيعة من هفوات عمر، ولم يخض الغزالي في أي مما حدث بعد وفاة النبيﷺ، مثل بيعة أبي بكر الصديق.

واختتم الغزالي كتابه باستعراض موجز جداً لأحوال العالم وما يسوده من مواقف تجاه الإسلام والمسلمين وتساءل: هل العالم اليوم بحاجة إلى الإسلام ؟

وأجاب: إذا كان العالم بحاجة إلى أن يعرف الله، ويستعد للقائه، ويقدم حساباً على ما أدى في هذه الدنيا فلا بد له من الإسلام [٢٧].

وأوجه كلمة أخيرة إلى دارسي كتابه

«قد تظن أنك درست حياة محمد ﷺ إذا تابعت تاريخة من المولد إلى الوفاة، وهذا خطأ بالغ، إنك لم تفقه السيرة حقاً إلا إذا درست القرآن الكريم، والسنة المطهرة، وبقدر ما تنال من ذلك تكون صلتك بنبيّ الإسلام »(٢٨).

رحم الله الغزالي، وجزاه عن الإسلام ورسوله وأمّته خير ما يجزي العاملين المخلصين.

وإنّني لأ عتذر لشيخنا الذي أحببناه وقدرناه، إذا لم أستطع أن أوفيه حقه، فهو منارة علم، أنّى لمثلي أن يحيط بنورها. واستميح العذر إن اخطأت فذلك مني، وإن أصبت في شيء فمن الله، وله الفضل والمنة، وله الحمد أولاً وأخيراً.

الهوامش

(١) فقه السيرة ص٤.

(٢) فقه السيرة ص٥.

(٣) فقه السيرة ص١٠-١٢.

(٤) السنة بين أهل الفقه وأهل الحديث ص١٤-٣٣.

(٥) القَرَضَاوي، الغزالي كما عرفته ص١٩.

(٦) فقه السيرة ص١٧.

(٧) فقه السيرة ص١٨-٢٠.

(٨) فقه السيرة ص٢٢.

(٩) فقه السيرة ص٤٦.

(١٠) فقه السيرة ص٩٠.

(١١) سيرة ابن هشام ج١ حتى ٣١٦.

(١٢) ابن هشام ج١ ص٣٤٠-٣٤١.

(١٣) فقه السيرة ص١٦٥.

(١٤) فقه السيرة ص٢٢٢.

(١٥) فقه السيرة ص٣٤٨.

(١٦) فقه السيرة ص٣٨٩.

(١٧) فقه السيرة ص٣٩٨.

(١٨) فقه السيرة ص٤٠٠.

(١٩) فقه السيرة ص٤١٨.

(٢٠) فقه السيرة ص٤٣٠.

(٢١) فقه السيرة ص٤٣٤.

(٢٢) حديث صحيح، فقه السيرة ص٤٨٥.

(٢٣) فقه السيرة ص٤٨٧.

(٢٤) فقه السيرة ص٤٩١.

(٢٥) فقه السيرة ص٥٠٦.

(٢٦) فقه السيرة ص٥٠٨.

مناقشات الجلسة الثانية

تعقيب د. حمود عليمات/ قسم الاجتماع/ الجامعة الأردنية.

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، ليس تعقيباً، وإنما بعض الملاحظات على ورقة الدكتور عزت العزيزي:

الملاحظة الأولى: إن منهج السيرة النبوية وكذلك السنة النبوية الشريفة ليست أحداثاً وجزئيات منفصلة تُقرأ مجزأة، بل هي خيط وبناء محكم متسق ومتماسك، ينتظم منهجاً عاماً، وله رسالة عامة، يؤديها في هذا الوجود، فلا ينظر إلى أحداث السيرة ولا إلى السنة النبوية على أنها فُتات أو أجزاء، فهي بهذا الشكل لا تسير بها الحياة ولايقوم بها العمل والسلوك. إن من مشكلات المسلمين في هذا العصر الحاضر أنهم أخذوا بعض جزئيات السيرة النبوية، أو بعض الأحاديث المنفصلة، واتخذوها منهجاً لحياتهم في غفلة عن جملة السيرة أو جملة الأحاديث، وهي ليست كذلك.

الملاحظة الثانية: نظرة الشيخ الغزالي -يرحمه الله- للسنة النبوية والسيرة والقرآن الكريم على أنها متسقة مترابطة عضوياً ووظيفياً، فليست السيرة قصصاً وروايات تُحكى دون النظر إلى ما فيها من خطأ أو خرافات، بل يجب أن تُحكم السيرة بالقرآن الكريم، وكذلك السنة النبوية لأنها جميعاً تخرج من معين واحد، والقرآن الكريم هو الذي يوجهها. فلا تؤخذ السيرة ولا السنة النبوية كأجزاء، وبالتالي فإن السيرة النبوية تُفقه فقهاً، لذا سمّى الغزالي كتابه «فقه السيرة»، وهي محل للتعليل واستنباط المنهج منها.

الملاحظة الثالثة: بالنسبة لاستدراكات الدكتور عزت العزيزي، هي استدراكات جيدة وبخاصة منها ما لاحظه عن أبرز محاور العهد المكي، وقال إن هناك قضايا مهمة ينبغي تحليلها، منها قضايا حقوق الإنسان وقضايا تحرير الإنسان، باعتبار أن الرسالة النبوية

تحريرية، وهو بعد غائب في كتب السيرة، كما أشار إليه د. عزت العزيزي، فالبعثة النبوية أحدثت حركة تغييرية أثارت قريشاً وغيرت من واقعها أكثر مما أحدثته أية حركة في تاريخها.

الملاحظة الرابعة: قضية لوم الشيخ الغزالي للمعتكفين في المدينة، أعتقد أن هذا اللوم جاء بعد ذكر خصائص الرسالة الخاتمة وأنها تمتاز بالديمومة والعمومية، والخلود والعالمية، فلا ينبغي بالتالي أن يعتكف أناس في المدينة، ويتركون هذه السمة العالمية، بل لا بد أن ينطلقوا بها إلى العالم وينشروها.

الملاحظة الخامسة: وهي على كتاب السيرة: بشكل عام أن السيرة في الغالب عسكرية الطابع أو سيرة غزوات، يغلب عليها التفسير العسكري وليس التفسير للوقائع الاجتماعية والسياسية. هناك بعض الاستثناءات مثل كتاب عبدالحميد الكتاني –يرحمه الله– عن نظام الحكومة النبوية أو التراتيب الإدارية. والمجال لا يزال مفتوحاً لدراسات تغطي هذا النقص.

الملاحظة السادسة: للشيخ الغزالي، رحمه الله، تعليل لقضية النسخ ينبغي ذكره. مثال على ذلك قضية الأسرى فليس بالضرورة أن يكون اختلاف الحكم يعني النسخ ، بل هي حالات مختلفة، والنصوص جاءت لاحوال انسانية معينة في ضروف معينة، فإن لم تنطبق النصوص على الحالات، فهذا لا يعني نسخها، وإنما يعني أنها حالة تستدعي حكماً آخر.

تعقيب الأستاذ. زهير الشاويش على ورقة الدكتور عبدالجبار سعيد

الحمد الله والصلاة والسلام على رسول الله ﷺ وبعد،

فقد دُعيب لهذه المشاركة، واطّلعت على دراسة الدكتور عبدالجبار سعيد هذا اليوم، وأنا أعاني من المرض، أسأل الله أن يصرفه عني، ولذلك نظرت سريعاً فيما كتب الأخ الكريم جزاه الله خيراً، ورأيت أنه قد أحاط بموضوعه فيما نقل من كتب الشيخ الغزالي –رحمه الله– إحاطة كاملة، ونقل من نصوص الشيخ أكثر مما حلّل وناقش، وهذا من حقه،

وأعطى لبحثه التناسق والتوضيح لفكر الشيخ الغزالي في نظرته للسنة. كما جمع من نصوصه عدداً من المباحث بلغت أحد عشر أو اثنى عشر مبحثاً، وختمها بخلاصة، ونقل هوامشها كلها من كتب الشيخ الغزالي سوى أربعة من كتاب الدكتور القرضاوي -حفظه الله- ولم أجد لمن خاصم الشيخ جملة واحدة.

وقد ناقش الدكتور المتعرضين للشيخ -رحمه الله- بحملات الإساءة وتشويه ما نقلوا عنه، واتهامهم له بمخاصمة السنة وتعطيل دورها، وهم من الزاعمين الانتماء إلى منهج السلف، والمعطلين حقيقة لاجتهاد الآخرين، والرافضين لقبول رأيهم، وإن كان يطرح في إطار الإسلام وتحتمله العقول، وبعضهم زعموا الاعتماد على النقول، غافلين عن موافقة المعقول للمنقول عند شيخنا، وأضاف الدكتور إلى ذلك عمل السلف الصالح في ترك التتبع لزلات العلماء.

والحق أقول: إن ما قاله الدكتور عبدالجبار سعيد ،ونقله عن الشيخ الغزالي، ورقة صالحة لعرض فكر الغزالي في موضوع السنة النبوية، ولكن هل يبحث هذا الفكر من غير نقل الأفكار المخالفة له؟ وهي موجودة بين الناس في كتب ومقالات وخطب ودراسات. ولعل عذر الدكتور في الإعراض عنها ما جاء في بعضها من هجوم على الشيخ الغزالي وعلى الصحوة الإسلامية -بكل أنواعها- وعلى الجهاد والاستشهاد والثبات على أرض الإسلام، وعلى من هم من السلف أو الخلف، عقلاً ونقلاً، وحملاً للراية والدفاع عنها.

ولكن يبقى في كلام خصوم الشيخ الغزالي -بعد حذف الشتائم- ما يصلح للعرض والمناقشة بالجملة، إذا تركنا ألفاظ الذين لا همّ لهم إلا هُجر القول!! لذلك فإنني أستميح الأخ الدكتور -الذي لم أعرفه قبل اليوم- أن لا أوافقه على بعض ما جاء في بحثه ودراسته، ولا يضر دراسته أن يخالفه أخ له نظر فيها سريعاً. وظني أن أستاذنا الغزالي -لو كان حياً- لما وافقه، لأنني أعرف أن الشيخ الغزالي كان يحب أن يناقش فكر خصمه، بعد عرض ما عنده كاملاً، كما فعل الإمام الغزالي الأول وشيخ الإسلام ابن تيمية رحمهما الله تعالى.

والشيخ الغزالي -رحمه الله- مع واسع علمه، وكبير عقله، وغزارة إنتاجه لم يكن يلزم غيره بكل ما وصل إليه، بل يجعل كتبه محل خلاف معه، وأنها عرض لوجهة نظر يسمح بمناقشتها مع أحبابه -ولعلي منهم- أو مع خصومه في هذا الجانب أو جوانب أخرى فيما قدم من فكر.

ولعل الدكتور في عدم نقله لكلام المخالفين لأنهم -غالباً- ما كانوا في الدعوة إلى الإسلام -كل الإسلام- علماً وجهداً وتأصيلاً وتفصيلاً في شيء، بل إن بعضهم يتبرأ مما سبق وعمله في هذا المضمار -مضمار الدعوة- لا تراجع إيمان بفكر واعتقاد جديد، أو اجتهاد لا يخالفه عليه أحد، ما دام أمراً خاصاً به، بل بإنكار ما كان منه، وهو معروف عند الناس ملموس محسوس؛ ومنظور ومكتوب. ووجد منهم أيضاً أتباع كل ناعق في تحطيم كل داعية من أهل الخير، بالكذب والافتراء عليه.

ووجد الأخ الدكتور أن الغزالي يبقى كبيراً بما قدم من علم وخير، وجهاد، وإن كانت عليه مآخذ تضيع -إن شاء الله- في واسع ما قدم.

ويبقى الذين خاصموا الدعوة ورجالها الكثر:

كناطح صخرة يوماً ليوهنها فما وهنت وأوهى قرنه الوعل

ولما كان الموضوع هو «السنة النبوية في فكر الغزالي» فقد وجد الدكتور ممن ركب سرج السنة النبوية والدفاع عنها، ووجدنا معه ممن هم أهل منزلة علمية، وعلم يصلح للعرض والأخذ والرد، لو أن كلامهم سلم من نقول الأتباع، من غير أن يطلعوا هم عليها، بل كانوا مرددين كحاطب الليل، معرضين عما أمر الله به بمخاطبة المسلمين بعضهم لبعض ﴿وقولوا للناس حسناً﴾، وقبلها ﴿إن جاءكم فاسق بنبأ﴾.

ولو وجد هؤلاء ما وجد الشيخ ناصر الألباني عند الشيخ الغزالي يوم أن خرّج أحاديث كتابه «فقه السيرة» بناء على طلبي، فما كان من الشيخ الغزالي إلا القبول واحترام وجهة نظر الألباني المخالفة أحياناً لما عند المؤلف. وأثبت تلك التخريجات كلها في كتابه.

وكذلك وجد الألباني من الغزالي سعة صدر في بعض ما كتب عنه في سنة ١٣٠٤ هـ، فبعث إليه معي برسالة يذكر فيها اختلاف وجهات النظر، وكانت الرغبة في الجمع بينهما لكن قدّر الله وما شاء فعل، فلم يتم اللقاء.

ولكن الشيخ الألباني افتخر بهذه الرسالة بأن الشيخ الغزالي يثني على علم الألباني في الحديث!! ووضعها في الكتاب المؤلف عن حياته: «الألباني وحياته». ويكون الألباني بذلك يشهد للغزالي بأنه محدث وفقيه، وكما وجد عند علامتنا القرضاوي من ترحيب عندما طلبتُ من الشيخ الألباني تخريج أحاديث كتاب «مشكلة الفقر وكيف عالجها الإسلام» وكتاب «الحلال والحرام»، وصدر بذلك كتاب «غاية المرام في تخريج أحاديث الحلال والحرام»، والعجيب بعد ذلك أن الشيخ الألباني أنكر أنه كتب كلمة واحدة في تخريج الكتاب! وهذا له دلالته على أمور يمنع الأدب والذكرى الطيبة عن التحدث بها! ولو اتبع الشيخ الألباني غير ذلك، من لقاء مع الغزالي والقرضاوي لكان لوحدة علماء الأمة أمر آخر غير الذي نجده.

وليس المجال يتسع لما تم عليه التفاهم مع العلامة الجليل الشيخ محمد أبوزهرة، رحمه الله، في لقاء مع عدد من العلماء في داري بدمشق، ومنهم الشيخ الألباني يوم أن شرّفنا الشيخ أبوزهرة لحضور أسبوع شيخ الإسلام ابن تيمية.. وتم فيه الاتفاق على عدد من الأمور، غير أننا -هذه الأيام- نسمع النقد والتجريح لكل عالم ومجاهد، ومنهم: أبوزهرة والغزالي والقرضاوي ولله في خلقه شؤون!!.

ومع الأسف فإننا نجد اليوم ما لا يسر، من تجهيل العلماء وأهل العمل للإسلام، ومن وصول بعضهم إلى ما يشبه التكفير والتضليل، لا لأفراد كبار العلماء... بل لكل المؤسسات العاملة للإسلام، ومنها الأزهر، وكليات الشريعة في كل البلاد وحتى الجامعة الإسلامية في المدينة المنورة!!.

وأصبحت السلفية، بل والإسلام حكراً على واحد من الناس؟! الأمر الذي ما كان للصحابة ولا للتابعين!! لقد ضيّقوا واسعاً.. فحق للدكتور السعيد أن لا ينقل أقوالهم، وليته لم ينقل الاعتراض عليهم.

وما قالوه في الغزالي لا ينال منه، ولا من غيره ممن تُوجّه إليهم الشتائم، شيء يؤذيه أو يؤذيهم، بل لعل الله يأجرهم على ذلك، والوزر على القائل الظالم الشاغب على الناس من أهل العلم، ومنهم الشيخ الغزالي -رحمه الله- رجل العلم والجهاد لأكثر من ستة عقود.

ويأتي اليوم من يحاسبه على هنات له فيها وجهة نظر، تاركاً حسناته الكثيرة، مع أنا نسلم بأن كل واحد يؤخذ من قوله ويترك، ولكن بالأدب والخلق الحسن.

وأنا أعلم أن مع كل معترض على الشيخ الغزالي، أو معترض عليه من الشيخ الغزالي من العلم الشيء الكثير، لو قدّم بالروح الإسلامية، بعيداً عن التنافر والتباغض، وبالروح التي كان عليها سلفنا الصالح، من التابعين وحتى يومنا هذا، لو جعلنا نصب أعيننا كلمة الإمام ابن القيم والتي نقلها عنه العلامة الشيخ محمد رشيد رضا، وشهرها الإمام الشهيد حسن البنا: «نتعاون فيم اتفقنا عليه، ويعذر -أو ينصح- بعضنا بعضاً فيما اختلفنا فيه».

وختاماً أقول:

لقد كان الشيخ الغزالي الأوسع صدراً ممن خالفهم منذ سنة ١٩٥٤ وحتى اليوم، وأنه لم يكن معصوماً فيما قال. وليس بعيداً عن المنهج القديم كما زعم الخصوم.

وأشهد أن عند بعض خصومه من العلم والحديث والفقه ما ينفع الناس، ولكن أفسده عليه الهمج والغوغاء من اتباعهم فضاع علمهم في خضوعهم للرعاع، وابتعادهم عن أهل النصح والسداد.

رحم الله الشيخ الغزالي رحمة واسعة، وعوّض المسلمين خيراً، فإن الله لا يقبض العلم انتزاعاً ولكن يقبض العلم بقبض العلماء، حتى إذا لم يُبق عالماً اتخذ الناس رؤوساً جهّالاً، فأفتوا بغير علم فضلّوا وأضلّوا. ولله ما أخذ ولله ما أعطى، وكل شيء عنده بأجر وثواب.

وأشكر الدكتور عبدالجبار سعيد، والمراكز العلمية الثلاث: المعهد العالمي للفكر الإسلامي، والمجمع الملكي لبحوث الحضارة الإسلامية، وجمعية الدراسات والبحوث الإسلامية. وهذا الجمهور الكريم المشارك في الاحتفال.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

د. محمد عيد الصاحب/ كلية الشريعة، الجامعة الأردنية

(رئيس جمعية المحافظة على الحديث النبوي الشريف)

بسم الله الرحمن الرحيم والحمد الله رب العالمين والصلاة والسلام على سيد المرسلين وبعد:

فإنني أشكر الجهات المنظمة لهذه الحلقة الدراسية، التي تبرز جهد الشيخ العالم محمد الغزالي. وأرجو أن تكون هذه الحلقة بداية لسنة دائمة، تُبرز الاهتمام بعلماء المسلمين ودورهم في بناء حضارة الأمة. وفيما يخصّ القول بأن الغزالي –رحمه الله– يخاصم السنة، فهو قول عظيم في حق الغزالي –رحمه الله–، الذي توفي وهو يحمل لواء الدفاع عن الإسلام وعقيدة المسلمين، وما قاله في بعض قضايا السنة إنما هي قضايا مختلف في الكثير منها بين العلماء قديما، وليست بالأمر الجديد، وهو أمر اختاره لنفسه في بعضها، وربما يخالفه المختصّ في الحديث في بعض ما وصل إليه، ولكن اختلاف الرأي لا يقلّل من منزل الشيخ –رحمه الله–.

هنالك ملحوظة على ورقة د. عبدالجبار، فرغم أنه وفّى الموضوع في معظمه حقّه، لكن هنالك ندوات عقدتها جريدة «المسلمون» سنة ١٩٩٠، حول موقف الشيخ الغزالي من بعض الأحاديث في صحيح البخاري، كانت بينه وبين علماء الأزهر، ففيها توضيح لبضع جوانب البحث، فعسى أن يعود إليها ليكمل بحثه، عذر الشيخ الغزالي فيما انتُقد به من أنه تطرّق إلى موضوعات حديثية أنه رجلٌ داعية، يعمل على فهم النص، والانطلاق منه نحو العمل والتطبيق، والدعوة إلى الله تعالى، ولم يكن همّه الأول نقد الحديث، وإن كان هو ينتقد الحديث من وجه أن هذا الحديث يخالف بعض القضايا مثل العقيدة. ثم أنه متأثر بمدرسة الرأي التي ينتمي إليها. وأخيراً أقول: حتى يصلح الأمر لا بد من تضافر مدرسة الرأي ومدرسة النقل، لأن النقل هو نقل الحديث نقلاً صحيحاً دقيقاً، ومدرسة الرأى هي فهم النص. والنبي ﷺ يقول: «فربّ حامل فقه ليس بفقيه، وربّ حامل فقه إلى من هو أفقه منه»

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

مداخلة وتوضيح من د. زكريا صيام/ أستاذ الأدب العربي في جامعة الإسراء.

المقارنة بين الشعر القديم والوسيط والحديث، تستدعي مراعاة الأبعاد الزمنية، والمؤثرات السياسية والاجتماعية والدينية. فمثلاً التمثيل بالشعر الغنائي على قصيدة البردة لكعب بن زهير وبردة البوصيري وبردة شوقي، يحتاج منّا إلى مراعاة العصر الذي شهده كل من الشعراء الثلاثة، فالأول مثلاً شاعر مخضرم بقي في إسلامه متأثراً بالعادات والتقاليد الجاهلية، أما الآخران فتختلف بيئة كل منهما وظروفهما تمام الاختلاف.

وينبغي أن نسجّل للشيخ الغزالي تأسيسه جامعة الأمير عبدالقادر الجزائري الإسلامية في مدينة قسنطينة بالجمهورية الجزائرية. وقد كان لي شرف مصاحبة الغزالي، في فترة تأسيس تلك الجامعة عبر الثمانينات من قرننا هذا، فعرفت فيه العالم المتواضع، والمفكر المعطاء، في ميادين العلم والفقه والحديث والأدب وغيرها.

مداخلة من الأخت عبير محمد الشريفي:

الشكر العميق إلى فضيلة الشيخ محمد الغزالي –رحمه الله–، ويكفيه فضلاً أنه استطاع أن يجمع المعهد العالمي للفكر الإسلامي والمجمع الملكي لبحوث الحضارة الإسلامية، وجمعية الدراسات والبحوث الإسلامية في هذه الحلقة الدراسية حول فكره النيّر، راجية من الله العلي القدير أن تتكرر مثل هذه الحلقات في مواضيع عديدة أخرى، وبهذا الاتحاد الثلاثي. وإن دل ذلك على شيء فإنه يدل على الوعي الإسلامي المتطور لدى القائمين على هذه الحلقة.

لكن لي ملحوظة أرجو أخذها بعين الاعتبار مستقبلاً، وهي ضرورة تطوير الإعلام والإعلان عن هذه الحلقات والدعوة إليها. وجزاكم الله ألف خير.

مداخلة من الأخ علي ناجي عبدالله الشريف:

لم يقصد الشيخ الغزالي بالتشنيع على الجزائريين المجاورين لرسول الله ﷺ فراراً بدينهم، التهوين من الاشتياق إلى رسول الله ﷺ أو العيش إلى جواره في المدينة. فهو نفسه (الغزالي) يذكر كيف سعد بالجوار الطيّب، مما ساعده على كتابة (فقه السيرة). لكنه أراد أن يوضح الفهم الصحيح لحب رسول الله ﷺ وأنه يتم باقتفاء أثره واتباع رسالته.

تعقيب د. عبدالجبار سعيد على المداخلات والأسئلة الموجهة إليه

بسم الله الرحمن الرحيم: ابتداءً، شكري الجزيل لأستاذِي الكريم، الأستاذ زهير الشاويش، فأنا -وإن لم يعرفني- متابع له، وأقرأ ما يكتب، وقد أفدت مما ذكر كثيراً، وكذلك لأستاذي د. محمد عيد الصاحب.

وردت مجموعة من الملحوظات المكتوبة. تحتاج إلى وقفات لا يسعفني الزمن للوقوف عندها جميعاً، سآخذها معي، وأرجو ممن يقرأ الورقة وله عليها ملاحظات أن يفيدني منها من خلال المعهد العالمي للفكر الإسلامي، لتطوير هذه الورقة.

موضوع أن الغزالي محدث وفقيه: أشكر لشيخنا زهير الشاويش ما أشار إليه بهذا الشأن، وإنما قصدت موضوع التخصص، والغزالي نفسه كما يصرّح -رحمه الله- في مقدمته على مختصر صحيح مسلم للشيخ حسّان عبدالمنّان، يقول بأنه ليس له باع في الأسانيد، ويصرّح بأن باعَهُ في الأسانيد قليل، بل يقول: إن بضاعته في الحديث مزجاة، ولهذا أشرت لموضوع عدم التخصص، وهذا لا يقلل من شأنه في الحديث، نسأل الله أن يتقبل منه جهده.

موضوع جمع الأحاديث ليس عند الغزالي وإنما عند الناس. الحقيقة ليس جمع الحديث فقط، كل ما ذكرت ليس عند الغزالي وحده، وإنما عند علماء الحديث جميعاً،

القدامى والمحدَثون، وإنما أردت أن أتطرق لهذه القضايا لأبيّن أن الشيخ الغزالي -رحمه الله- يريد أن يدافع عن السنّة، ويريد أيضا أن تفهم السنّة وفق هذه الرؤى، التي دفعها لتبرز في أذهان الباحثين في السنة، ولتكون مناراً لهم في البحث، لا أنه صاحب هذه القضايا، ولا أنه قالها لأول مرة، فلا أظن أن بيننا خلاف في ذلك.

موضوع النقل أكثر من التحليل والمناقشة: الحقيقة ربما حلّلت في بعض المواقف، وربما كان همي وأنا أتتبع هذا الموضوع عند الشيخ -رحمه الله- أن أبرز معالم تصلح لأن تكون جزءاً من منهج، وهذا -حقيقة- لا يكون إلا بالنقل لكلامه. فأنقل ما يقول لأثبت أنه يقرّ حجيّة السنة، وأنه لا يردّ حديث آحاد -كما يصرّح عن نفسه- لمحض هوى، أو لمجرد رغبة في الرّد، وإنما لدراسة وبحث. أما احتجاجي بأستاذنا القرضاوي فلمرجعيّته في هذه المسألة، وكنت أودّ أن أنقل كلامه بشأن كتاب «السنة بين أهل الفقه والحديث» لكن المجال لا يسعف وما ذكرته مع اتّفاقي مع ما ذكر الدكتور القرضاوي، من أننا قد نختلف مع الشيخ الغزالي -رحمه الله- في مثال معين أو مسألة معينة، في قبول حديث أو ردّ آخر، لكن هذا لا يجعلنا نقلّل من شأنه وعلمه، ولا نهيل التراب على تاريخه العظيم، عذري -وقد ألتمس الأستاذ زهير الشاويش العذر- في اعتراضي عن كلام المعارضين، لأن هذا -في ظنّي- ليس مجاله، والمجال ربّما يكون أرحب في ورقة أخرى، وتجنّباً لإثارة جو لا أظنه مناسباً في هذه الجلسة العلمية وهذه الندوة.

وصلتني بعض الأوراق، أستعرضها بسرعة. ورقة يسأل صاحبها من هم أهل الحديث في مصطلح الشيخ الغزالي؟ ليس للشيخ الغزالي -رحمه الله- مصطلح في هذه المسألة هو يتحدث عن أهل الحديث، كما نعرفهم وهم: المهتمون بسنة رسول الله ﷺ، والمختصون بدراستها وتدريسها، وربما أشرت في ورقتي إلى نوع من الخلل المنهجي في عدم التفريق بين دور المحدثين ودور الفقهاء. بالنسبة لعلة الحديث، لدى الشيخ، خاصة في كتابه «السنة بين أهل الفقه وأهل الحديث»، هذه قضية توقّفت عندها، ولا بد من التمييز بين فئات المهتمين بعلم الحديث وجوانب اهتمامهم. وهناك ملاحظة من أستاذي د. علي

الصوا بشأن موقف الشيخ الغزالي من قضية ولاية المرأة، حيث يرى أن للشيخ موقفين متباينين بالنسبة لهذه المسألة، قديماً كان يرى ألا تولّى المرأة الولاية العامة، والآن هو له موقف آخر في كتابه «السنة بين أهل الفقه والحديث» حسب فهمي، فإنّ الشيخ في مواقفه وأفهامه متطور وتنضج هذه المواقف حسب الخبرة وحسب البحث والنظرة في الأمور، وكتاب د. يوسف القرضاوي يعضّد فهماً خاصاً لهذه المسألة يمكن أن يُراجع، ثم إنه – حسب قراءتي للمسألة– لم يكن الشيخ الغزالي من هواة تولي المرأة للمناصب– ومسألة تولي المرأة قبولاً ورفضاً ليس مسألة أنوثة وذكورة، وإنما قضايا أخرى، وأرجو أن أكون قد أفدت منكم. وشكراً جزيلاً لكم.

تعقيب الدكتور عزت العزيزي على المداخلات والاسئلة الموجهة إليه

بسم الله الرحمن الرحيم: أشكر د. حمود على مداخلته، كان بودّي أن أستعرض الأمور التي ذكرها مثل رفض أهل مكة للإسلام، لكن الوقت ضيّق. أحد الأخوة يرى أن رفض الغزالي لبعض روايات الحديث والسيرة، ألا ترون الأولى اللجوء إلى إيجاد تخريجات لهذه الأحاديث –وبيان ما هو الصحيح. الغزالي لم يكن يرفضها بلا سبب، مثلاً رفض الحديث الوارد في البخاري ومسلم أن الرسول ﷺ، باغت بني المصطلق، وفي رفضه لهذا الحديث أن هذا يخالف مبدءاً من مبادئ الإسلام: ﴿وإما تخافنّ من قوم خيانة فانبذ إليهم على سواء﴾ فلا يباغت الرسول ﷺ الأعداء بدون إنذار، ويرى الغزالي أن هذا الحديث جزء من قصة أخرى، أن الرسول ﷺ باغت بني المصطلق بعد أن بدأت الحرب بينهم، وليس كما ورد الحديث، من أنهم لم يُحدثوا شيئاً. وهو علّل الرفض، ولم يرفض دون سبب.

د. علي ناجي عبدالله الشريف يرى أن الشيخ الغزالي لم يقصد التشنيع على الذين يجاورون مدينة الرسول ﷺ، وأنه كتب «فقه السيرة» وهو في جوار رسول الله ﷺ، هذا صحيح فهو يذكر حادثة معينة في هذا المجال هي انتقاده لبعض أهل الجزائر لتركهم

الجهاد ليعيشوا في المدينة المنورة. لكن إطلاق الكلام في الكتاب عن الذين يجاورون المسجد من أنهم كذا وكذا، فهذا برأى لا ينبغي.

مداخلة وتوضيح من زكريا صيام: المقارنة بين الشعر القديم والوسيط والحديث تستدعي مراعاة الأبعاد الزمنية، وأنا أقول إن موضوعنا ليس موضوع دراسة الأدب ودراسة الأبعاد التي وراء قصيدة كعب بن زهير أو البوصيري، لكن مع ذلك، نقول أن كعباً كان فيه بقايا جاهلية، لكن الرسول ﷺ خلع بردته وأعطاها له، فسميت البردة. والبوصيري في إطار زمني مختلف رغم ما قاله بعض الناس، من أنه في عصور التخلف والحروب الصليبية، لجأ الناس لهذا الأمور من شعر غنائي وغيره، ولكن مع ذلك فنحن للآن لا نزال نتغنى بالرسول ﷺ، منذ «طلع البدر علينا».

جلسة العمل الثالثة

رئيس الجلسة: الدكتور فتحي ملكاوي

١. الورقة الأولى: العالم بين حدّين: نظرة في المبادئ الموجّهة للتجربة الغزالية. الأستاذ الدكتور فهمي جدعان

٢. الورقة الثانية: الشيخ الغزالي: رؤيته المنهجية للفكر الإسلامي والإنساني. الدكتور علي جمعة

٣. مناقشات الجلسة الثالثة.



الجلسة الثالثة: رئيس الجلسة: د. فتحي ملكاوي في الوسط
وعن يمينه د. علي الصوا وعن شماله د. فهمي جدعان

العالمُ بين حدّين

(نظرة في المبادئ الموجِّهة للتجربة الغزالية)

الدكتور فهمي جدعان

عميد كلية الآداب/ جامعة البنات الأردنية

عرفت التجربة الإسلامية الحديثة والمعاصرة –في تركيبها النظري والعملي الشامل– ثّلةً مرموقة من الرجال الذين رفدوها بعلم نظريّ غزير وبعمل "دَعَويّ" وفير. إننا لا نفتأ نذكر محمد بن عبد الوهاب، والقاضي الشوكاني، وجمال الدين الأفغاني، ومحمد عبده، ومحمد رشيد رضا، وعبدالحميد بن باديس، وحسن البنا، والقاسمي، والمغربي، والألوسيّيْن، والندوي، والمودودي، وسيد قطب – وكثيرين آخرين– لكننا لا نملك إلا الإقرار بأن الشيخ محمد الغزالي كان، في تقدير جملة الناظرين، أبعدَهم أثراً وأكثرَهم نفاذاً إلى قلوب جمهرة المسلمين في هذه العقود المتأخرة من القرن، فضلاً عن القطاع الأغلب من "الملأ" منهم. لا أحد يخطر في باله أن الشيخ الغزالي قد ابتغى صوْغ منظومة فكرية تصورية، محكومة بآليات المنطق التقني، ومنهجيات العلم الطبيعي السائرة، على ما نجد عند المفكرين والفلاسفة أو اللاهوتيين أو المتكلمين المحترفين أو فلاسفة العلوم الوضعية؛ لأن منظومته التي تمثلها وحياها وسعى على الدوام إلى نشرها كانت "الإسلام" نفسه، في جملته، وفي وجوهه التفصيلية المختلفة الاقتصادية والسياسية والاجتماعية والأخلاقية والروحية، ولأن المبدأ الرئيس الموجه لتجربته وحياته تمثّل في أن "الإسلام للحياة". لكن ذلك لا يعني أبداً أن تجربة الشيخ الروحية كانت تجربة "شاردة"، تند عن الموجهات المنهجية والمبادئ التأسيسية الصُّلبة التي كانت توجّه حِراكه النظري والعملي في دنيا البشر، أو أنها كانت محض تمثلات "عاطفية" لروح متوثبة متحمسة مناضلة، أو خالص "وعظ إقناعيّ" يتوجه إلى عامة الناس، أو إلى قوم لا يأبهون بالأسس

الموضوعية للخطاب الذي يتلقونه. فواقع الأمر أن المبادئ "الموضوعية" التي أسست "العقل الإسلامي" الغزاليّ، كانت ماثلة على الدوام في جميع أعماله العلمية والفكرية، التي تتردد بين أيدينا ونقّلبها من أجل النظر والتأمل أو من أجل البحث أو من أجل نشدان الفائدة. كما أن الذين استمعوا إلى دروسه أو التقوا به وبادلوه الحوار أو الجدل أو السجال يعرفون ذلك حقاً.

وهذه المبادئ الموجِّهة أربعة رئيسة هي : الإيمان، والعقل، والعلم، والعاطفة الوجدانية. وقد يمكننا ردها إلى حدين مركزيين تتردد بينهما جميع هذه المبادئ هما: حدا الإيمان من طرف أول وإليه يرد مبدأ العاطفة الوجدانية، والعقل من طرف ثان وإليه يرد العلم أساساً.

لا يتطلب واقع الحال إلا القَدْر الأدنى من تقليب النظر لإدراك مُعْطَى أساسيّ بيّن، هو أن واقعة "الإيمان" هي الواقعة المبدئية ، الصلبة، الأصلية، التأسيسية، البانية لكل ما صدر عن الغزالي، من قول أو نشاط أو فعل. ومن الطبيعي أن يكون الأمر على هذه الحال؛ لأن الرجل أسلم نفسه للإسلام وعلّق به حياته كلها، ورهن هذه الحياة لرسالته الدعوية المناضلة. والحقيقة أن "الإيمان" عنده لم يكن مجرد إقرار باللسان وتصديق بالقلب، مثلما عرّفه أهل الفرق الإسلامية القديمة، فهذا التحديد تحديد ناقص، إذ أنه يغفل عن أسس وخصائص أخرى "موضوعية" يتقوم الإيمان بها. إنه يحدد الإيمان بأنه" معرفة بلغت حد اليقين، أو هو علم يصحبه الجزم والقطع" (محمد الغزالي، الجانب العاطفي من الإسلام: ٢٦). لا شك أن هذا اليقين "تصديق" أو تصديق تام –وهو مصطلح القدماء– لكن هذا التصديق ذو أساسين صلبين : أولهما نظري، وثانيهما نفسي: أولهما "عقلي"، وثانيهما "قلبي". فمعنى أن نؤمن بالله أننا "نعرفه"، وأن هذه المعرفة معرفة "ممتلئة" باليقين، لا يساورها أي شك أو ريب أو تردد، وأن التصديق الذي يتلبسها هو تصديق عقليّ يستند إلى أدلة موضوعية وعلمية، ونفسيٌّ يتمثل في الاطمئنان إلى هذه الحقيقة، وفي سريان تيار شعوري في النفس يملؤها ثقة وسعادة وإقبالاً على الحياة وعلى الله ورضوانه. والحقيقة أن

الشيخ الغزالي يفارق هنا التيار العقلاني الخالص الذي مثله في الإسلام المعتزلة وابن رشد وجملة المتكلمين والفلاسفة؛ إذ لم يخص العقل بمطلق المرجعية في المعرفة. كما يفارق تيار "أصحاب الحديث" القدماء الذين خصُّوا (النص) بمطلق المرجعية، ولم يتمثلوا لأنفسهم هذا المركَّب الفريد للمعرفة. لا شك أننا نستطيع أن نتصور أن هذا الموقف ليس إلا تركيباً بين (تيار الرأي)، العقلاني على وجه الإجمال، وبين تيار (الصوفية)، الروحي بإطلاق. كما يمكننا أن نذهب إلى أن الغزالي لم يكن هنا إلا تلميذاً أميناً على التقليد الراسخ الذي أرساه الشيخ محمد عبده؛ إذ جمع ، في تأسيس المعرفة الدينية، بين العقل وبين الوجدان، على ما ساقه في (رسالة التوحيد). وأعترف بأنني أميل إلى هذا التعليل، إن حرصت على أن أتعلق بمناهج الأكاديميين والباحثين العلميين في النظر والتحليل، وبخاصة بسبب ما أتبينه من وجوه التأثير واللقاء والتآلف بين فكر الغزالي وبين فكر محمد عبده. لكنني مع ذلك أرى أن المسألة في نهاية التحليل ليست مسألة "مؤثِّر" و "متأثِّر" بقدر ما هي مسألة تجربة معيشة حية، تجسد حالة فكرية نفسية وجدانية مشخصة، هي أن الرجل كان كتلة حية متوثبة من قوة العقل وحرارة الوجدان والعاطفة، وجدت نفسها مشخصة في هذا المركب الحيّ، مركب العقل والوجدان.

ومع أن للقلب أحكاماً لا يعرفها العقل –مثلما تقول عبارة باسكال الشهيرة– إلا أن العقل يظل مبدأ موجهاً أساسياً في المعرفة عند الشيخ الغزالي، وثقته فيه أعظم بكثير من ثقة باسكال فيه، مثلما هي أعظم بكثير من ثقة جملة فقهاء الإسلام و"أصحاب الحديث" فيه، ومن ثقة المتصوفة الذين يزيحونه أصلاً وابتداءً من الطريق، والرأي عندي أن الشيخ الغزالي يتمثل في هذه المسألة موقفاً يتفوق فيه صراحة على جملة تجارب الفكر الإسلامي الكلاسيكي التي خلّفها المعتزلة والفلاسفة، وبخاصة الغزالي وابن رشد منهم، والمتصوفة، فضلاً عن "أصحاب الحديث" بطبيعة الحال. وأنا أعتقد أن رؤية الشيخ الغزالي للعقل، وأنا لا أتحرج من أن أسميها بـ "العقلانية الواقعية"، تبدو في سياق مرجعي إسلامي، أكثر موافقة من تلك الرؤى لواقع الأحوال البشرية في عالمنا المعاصر. لا شك في أنها لا تتوسل للتعبير عن نفسها بالجهاز الفلسفي والمنطقي، الذي يستند إليه

النظام المعرفي الاعتزالي، أو النظر الاصطلاحي، الذي أتقنه أبو حامد الغزالي وبرع فيه ابن رشد، لكنها تدرك الغايات التي تسعى إليها بآليات "إنسانية" أقرب إلى "الحس العام" و"البداهة" و "الطبع" و "الضمير".

والحقيقة أن التصور المبدئي للعقل عند الشيخ الغزالي، هو تصور "توليدي"؛ بمعنى أن العقل لا يدرك حقائقه مرة واحدة، وإنما يسير " على طريق المجهول"؛ إذ هو يدرك حقائق من جملة الحقائق المستورة، ثم ما يلبث أن يدرك حقائق أخرى فأخرى وهكذا. المجهول القابل للاكتناه هو عالمه. وهذا العالم الرحب الممتد يشتمل على قطاعات ثلاثة كبرى :

١. قطاع الكون بعناصره المادية وآفاقه وقوانينه.

٢. قطاع الشؤون الدنيوية البشرية مما يتصل بارتفاق الإنسان من الطبيعة، وبالأنشطة الصناعية والزراعية والتجارية والحرفية، وجملة الخبرات الإنسانية.

٣. قطاع العلاقات الإنسانية القائمة على تعرف القوانين النفسية والخلقية والاجتماعية والسياسية التي تحكم الجنس الإنساني في حياته على الأرض.

ما هي حدود العقل في هذه القطاعات الثلاثة؟ لا يتردد الشيخ الغزالي في التحديد. فالكون مفتوح أمام العقل الإنساني، يستطيع أن يرتاده من غير حدود، والشؤون الدنيوية البشرية كذلك أيضاً؛ إذ هي الأخرى "مجال فسيح أمام الفكر الإنساني، يتحرك فيه دون قيد وإلى غير حد. أما "قطاع العلاقات الإنسانية" والقوانين التي تحكمها فله شأن خاص. ففي المَوَاطِنِ التي لم تدركها تعاليم الدين ينفرد العقل بالأحكام. أما بعد نزول الشرائع وحيث تصل تعاليمها، فإن الكلمة لها وحدها. وهو يعتقد أن جملة ما تقرر عند الأمم خارج دائرة الدين لا يضاد الدين، وإن كان ثمة أخطاء تتحمل البشرية وزرها، وتحتاج إلى الدين للخلاص منها. كما أنه يتابع أبا حامد الغزالي في ما ذهب إليه في (المنقذ من الضلال)، إذ اعتقد أن جملة ما هو مقبول من الأمور الأخلاقية والسياسية والاجتماعية، عند

مختلف الأمم، مما لا يرتد مباشرة إلى الدين، إنما يرجع في أصله إلى الشرائع السماوية القديمة. لكن القول الحاسم النهائي هنا ينبغي أن يكون للدين (محمد الغزالي، دفاع عن العقيدة والشريعة : ١١٢ – ١١٣). أما ما لم يرد فيه نص أو نص محكم من أمور الشريعة، فإن الشيخ الغزالي يلتزم فيه جانب أهل (الرأي)، فيقر للعقل بحق استخدام ملكته الاستنباطية الاجتهادية في الاستدلال للأحكام، وفي استنباطها وفق أصول الاجتهاد التي توّجه فقه (أهل الرأي).

بتعبير آخر للعقل مجاله الفذ: علوم الطبيعة والكون، وشؤون الدنيا وصناعاتها، واستنباط الأحكام الشرعية التي لم يرد فيها نص. أما مجال الدين فهو القوانين والشرائع التي تحكم العلاقات الإنسانية، والعقائد والعبادات التي تصل المخلوق بالخالق. والوحي هو الأصل الذي يرتد إليه كل شيء في هذا المجال.

ومعنى ذلك كله أن مملكة العقل ذات حدود "طبيعية" واسعة. لكن هل يستطيع العقل أن يتجاوز حدود الكون الطبيعي، وأطر المعرفة الطبيعية؟ إنه يستطيع أن يكشف عن "وجود" عالم ما بعد الطبيعة؛ أي أن "الله حق"، لكنه لا يستطيع أن يذهب إلى أبعد من ذلك. يستطيع العقل أن يثبت وجود الله، لكنه لا يستطيع أن يتكلم على كمالاته الذاتية وعلى صفاته الماهوية. وعند هذه المسألة "يشتبك" الشيخ الغزالي مع سلفه الكبير أبي حامد الغزالي، ومع الكلام الاعتزالي.

إن الأصل (العقلاني) في تقرير وجود الله يرتد مرة واحدة في الفكر الإسلامي، على وجه الاجمال، إلى "مبدأ السببية". والشيخ الغزالي في هذه المسألة ينتسب إلى المتكلمين العقلانيين وابن رشد، ويعارض صراحة صاحب (تهافت الفلاسفة). لا أحد يجهل نص أبي حامد المشهور: "الاقتران بين ما يعتقد في العادة سبباً، وبين ما يعتقد مسبباً، ليس ضرورياً عندنا، بل كل شيئين، ليس هذا ذاك، ولا ذاك هذا، ولا إثبات أحدهما، متضمناً لإثبات الآخر، ولا نفيه متضمناً لنفي الآخر، فليس من ضرورة وجود أحدهما، وجود الآخر، ولا من ضرورة عدم أحدهما، عدم الآخر، مثل الري والشرب، والشبع

والأكل، والاحتراق واتّقاد النار، والنور وطلوع الشمس، والموت وجز الرقبة، والشفاء وشرب الدواء، وإسهال البطن واستعمال المسهل، وهلم جرا، إلى كل المشاهدات من المقترنات في الطب والنجوم والصناعات والحرف، فإن اقترانها لمِا سبق من تقدير الله سبحانه، يخلقها على التساوق، لا لكونه ضرورياً في نفسه غير قابل للفوت.." (الغزالي، تهافت الفلاسفة: ٢٣٧). ولا أحد يجهل أيضاً مذهب ابن رشد؛ إذ يقرر أن "العقل إنما يدرك الأشياء من جهة أسبابها" (ابن رشد، تهافت التهافت: ٤٧٩)، ولا قولته السائرة : "والعقل ليس هو شيء أكثر من إدراكه الموجودات بأسبابها، وبه يفترق من سائر القوى المدركة، فمن رفع الأسباب فقد رفع العقل: (المرجع نفسه:٥٢٢).

في هذه المسألة الدقيقة يقف الشيخ الغزالي إلى جانب إقرار قانون السببية. وهو ، خلافاً لما زعمه جولدتسيهر في تحليله لموقف الاشاعرة منه، يؤكد "أن أهل السنة لم يفكوا الرباط العتيد بين الأسباب ومسبباتها، ولم يتجاهلوا هذا التلازم المطرد بين العلة والمعلول. لقد قالوا: إن الماء يروي ، وإن الأرض تنبت، وإن النار تحرق (...) وإن العادة جرت بذلك (..) والشيء الذي حرص أهل السنة على إثباته وإبرازه هو المشيئة العليا، فقالوا: إن النار تحرق بمشيئة الله.."(دفاع عن العقيدة والشريعة:١٢٨). بتعبير آخر إن الرأي الذي يتعلق به الشيخ الغزالي، هو إقرار الخصائص الذاتية والطبيعية للعناصر، وأنها "أسباب" لما يتولد عنها (الماء سبب للإنبات)، لكن ذلك لا يرجع إلى طبع خاص مطلق في العناصر ذاتها، وإنما إلى "أن هذه الخواص مفاضة عليه من الخالق الكبير فهو الذي جعله كذلك"، مثلما أنه هو الذي يحفظ الوجود ويديره ويستمر في السيطرة المطلقة والهيمنة التامة عليه، بعد أن خلقه، وفقاً لترابط الأسباب والمسببات؛ إذ هو الخالق الحقيقي والسبب الحقيقي الأول (المرجع نفسه : ١٢٩). وفي هذه المسألة الأخيرة يبدو الشيخ الغزالي موافقاً لما ذهب إليه ديكارت في نظريته في "الخلق المستمر"، التي لم تكن في حقيقة أصلها إلا إحدى النظريات التي ترددت في أجواء الفكر (الأشعري) الإسلامي.

ويحرص الشيخ الغزالي حرصاً شديداً على إقرار مبدأ السببية، وفقاً لمبدأ آخر شاع شيوعاً واسعاً بين الناس، هو مبدأ (الجبرية)، الذي يرى أنه "من أسباب انهيار حضارتنا" (الدعوة الإسلامية تستقبل قرنها الخامس عشر: ٧٢). وهو يبدو في هذا المقام أوضح وأصرح، والأشاعرة وأبوحامد هم الذين يقصدهم؛ إذ يقول فـــي معرض نقده للجبرية ولمنكري الأسباب : "وقد يذكر مـن باب التغطيـة أو الاعتذار عـن الشرع (!) أن للإنسان كسباً أو اكتسابـــاً، والحقيقة أنه مسلوب الإرادة (..) ولا يزال أغلب المسلمين إلى يومنا هذا يرون أن الطاعة والمعصية، والغنى والفقر، حظوظ مقسومة وأنصبة مكتوبة، وأن المرء مسيّر لا مخيّر. ونشأ عن ذلك أن الشخصية الإسلامية اهتزت، وسيطر عليها لون من التسليم والسلبية. والسبب في ذلك علم الكلام والتصوف وبعض مفسري القرآن وشراح السنن.

إن التربية الصحيحة تقوم على حقائق واضحة، وعلى تقرير حاسم للمسئولية الإنسانية. ولا يجدي في هذا المجال جدل ولا لعب بالألفاظ. ومذهب الأشعري الذي اعتنقه جمهور المتأخرين يتحدث عـن المسئوليـة الشخصيـة بأسلوب غامض، لا تتضح معـه عدالـــة التكليف، حتى قال الظرفاء فيه : أخفى من كسب الأشعري ! أما الصوفية فقد محقوا الإرادة البشرية، وجعلوا الإنسان مشدوداً بخيوط إلهية إلى مصيره المجهول أو المعلوم.. وكذلك فعل بعض علماء التفسير والحديث، وهم يشرحون النصوص المتصلة بالقدر (..)، وينضم إلى شيوع مبدأ الجبر ضعف الصلة وانقطاعها بين الأسباب والمسببات. فعدد كبير من المربين والموجهين أشعروا الأمة بأن النار قد توجد ولا يوجد الإحراق، وأن الماء قد يوجد ولا يوجد الرِّي ، وأن السكين قد توجد ولا يوجد القطع.. وأن الواجبات العادية قد تتخلف، وأن قانون السببية – على الإجمال– غير ملزم ولا مطرد.." (محمد الغزالي، الدعوة الإسلامية..: ٧٢–٧٣). وفي رأي الشيخ الغزالي أن علماء الكلام، الذين مالوا إلـى هذا الرأي، أرادوا بذلك الرد علـى بعض الفلسفات الإغريقية، التي تجعل الأسباب خالقة، وتنسب إلى الطبائع ما يقـع هنا وهناك. والحقيقة أن كلام اليونان "أن الطبيعة تخلق، وأن السبب –من ذاته– يفعل، كلام لا وزن له ولا دليل

عليه. بيد أن الرد لا يكون بنفي ما أودع الله في الأشياء من خواص، وما ناطه بها من آثار، فإن الأسباب -بقَدَر الله فيها- تؤتي نتائجها حتماً. أما خوارق العادات فلها شأن آخر، وتعليلات فوق المعارف المعتادة، وهي إذا صدقت شذوذ يؤكد القاعدة ولا يهدمها " (المرجع نفسه : ٧٣-٧٤).

وهكذا ينتهي النقد الغزالي للمتكلمين وفلاسفة اليونان الطبيعيين والمتصوفة وأبي حامد (الذي لا يذكره بالاسم) إلى إقرار قضيتين كبيرتين : السببية العقلانية، والحرية الإنسانية. وفي ضوء هذا الإقرار يوجّه إلى أنه "لا بد من تخليص العقل الإسلامي من هذا القصور والتخبط [في شأن الجبرية وإنكار السببية والمسؤولية الشخصية] بحيث يقبل المسلم على الحياة وهو موقن بأنه مكلف، حسب استعدادات حرة، وأن له قدرة وإرادة يملكان قدراً من الاستقلال، يسأل به عما يفعل، وأنه لا جبر ولا افتيات ولا تمثيل في قصة هذه الحياة التي نحياها ..!" (المرجع نفسه :٧٣).

ومع ذلك -فإن علينا أن نتنبّه إلى أن (عقلانية) الشيخ الغزالي،وإن كانت تقترب عند بعض المواطن من عقلانية المعتزلة وابن رشد، إلا أنها في حقيقة الأمر ليست كذلك. لا بل إنها، عند بعض المواطن، تنأى نأياً تاماً عن العقلانية المسرفة، وعن عقلانية المعتزلة. ذلك أن للعقل عنده حدوداً لا يجوز له أن يتخطاها. و"العقل الإسلامي" بالذات، بعد أن ابتعد عن المرحلة التي كان ملتصقا فيها بالوحي، اختلطت عليه الأمور؛ إذ "تقعر" في "دراسة ما وراء المادة"، وخاض "بحاراً مغرقة في هذه البحوث العقيمة، التي كان لها أثر وخيم في تعجيز العقل الإسلامي عن البحوث المادية والإفادة منها. وهذا الاتجاه الشارد عصيان لله الذي أمر بالنظر في الكون، وبنى على هذا النظر السديد حسن الإيمان وجميل المنفعة" (الدعوة الاسلامية : ٦٤-٦٥). والحقيقة أن للعقل البشري حدوداً، فهو عاجز مثلاً عن فهم "حقيقة الروح"، وأنّى له أن يعرف كنه الألوهية واتصال الذات بالصفات؟ لقد أكبر المعتزلة العقل وغلّبوا نظراته على مبادئ الشريعة. لا شك في أن "الإسلام يقوم على العقل" وأنه لم يؤثر عن دين ما أنه كرم العقل مثل ما كرمه الإسلام، "لكن ليس من العقل

إقحام العقل في بحوث لا قبل له بها، ولا طاقة له عليها". إن العقل قادر على البحث في العناصر الطبيعية، لكنه لا يقدر على البحث في الروح، أو في ذات الله العظمى، وفي أسرار الألوهية، مما يتصل بالذات والصفات وغير ذلك. وقضايا عالم الغيب تقع "فوق العقل " (السنة النبوية بين أهل الفقة .. وأهل الحديث: ١٤٨). وكلام الفلاسفة الإلهيين في الوجود وأصله، ومباحث المتكلمين في الفلسفة، كل ذلك ليس من العلم الأصيل، وهو في جملته تخمينات وترهات وحدوس. ههنا، أعني في قطاع "الإلهيات"، يقترب الشيخ الغزالي من سلفه أبي حامد الغزالي، الذي اعتبر أن أقوال الفلاسفة في هذا الجزء من الفلسفة، هي أقوال جدلية غير برهانية. وليس هذا الموقف بغريب في تاريخ الفكر الإسلامي والإنساني على وجه العموم، فالفيلسوف الألماني الكبير (كانْت) لم يُجِزْ هو أيضاً للعقل أن يتجاوز عالم الطبيعة، ولم يقر مشروعية استخدام مبدأ العلية للانتقال من عالم الطبيعة إلى عالم ما بعد الطبيعة. ومع ذلك فثمة فرق بين الإثنين : فالشيخ الغزالي يرضى باستخدام مبدأ العلية، للانتهاء إلى وجود الله بإطلاق، لكنه لا يرضى باستخدام العقل لما هو أبعد من ذلك، ويرد ذلك إلى الوحي وحده، أما الفيلسوف الألماني فإنه يحصر جدوى مبدأ العلية بالعالم الطبيعي فحسب، ولا يسمح باستخدامه إلى ما هو أبعد من ذلك. ومع ذلك فإنّ كلاً منهما عقلاني، لكنها عقلانية بحدود.

والحقيقة أن الشيخ الغزالي واضح تمام الوضوح في أمر التمييز الفارق بين منطقين: منطق عالم الغيب، ومنطق عالم الشهادة. إن "التسليم" بخبر المعصوم هو المبدأ الذي يستند إليه منطق المعرفة الخاص بعالم الغيب. أما في عالم الشهادة فالعقل هو السيد في النقد وفي الأخذ وفي الرد، بلا سدود ولا قيود. والتنويه بالعقل الذي جاء في شعر أبي العلاء المعري لم يكن دليلاً على كفر المعري وغمزه بالدين، على ما وهمه بعض القوم، لكنه هجوّ للمتدينين السطحيين الذين يبدي ظاهرهم التقوى وتخفي طباعهم الشر، و"دعم للحياة الدينية بأسلوب الاسترسال مع الخصم" وإنكار لـ "أن يكون الدين عند كثير من الناس مراسم وشعارات، ولا يكون فضائل ونظاماً، وأن يمس ظواهر الأشياء ولا يتغلغل في صميمها" (دفاع عن العقيدة والشريعة: ١٢١-١٢٣).

والعقلانية الغزالية المحدودة تبدي أحكامها في مسألة التحسين والتقبيح العقليين التي يتعلق بها المعتزلة؛ إذ يذهب الشيخ الغزالي مذهبا "عقلانياً معتدلاً " فيوجه النظـر الـى "أن علمـاء المسلمين المحققين، مـن سلف وخلف، يرون أن في بعض الأشياء حسناً أو قبحاً ذاتيين، يستطيع العقل معرفتهما ابتداء " ، لكنه مع ذلك يقول جازماً " إن العقل لا يغني عن شريعة الله، وإن لله من عباده مطالب لا تعرف إلا عن طريق النبوة " (دفاع عن العقيدة والشريعة:١٢٧)

يوجز هذا القولُ الأخير جملَة موقف الشيخ الغزالي في تحديد العلاقة بين هاتين الدعامتين، اللتين تقوم عليهما المعرفة الإنسانية والفعالية العمليـة لبني البشـر : حـد العقـل، وحـد الوحي. والمسألة ، كما نعلم قديمة، وجهت إليها (النصوص) الدينية، وخاض فيها المتكلمون وأصحاب الرأي منهم بخاصة، وتكلم عليها الفلاسفة : من الكندي، أولِهم، الذي قرر أن ما جاءت به الرسل قد ورد "بمقاييس عقلية"،(رسائل الكندي الفلسفية ١ : ٢٤٤)، إلى ابن رشد ، آخرِهم، الذي جرد للمسألة رسالة، هي: (فصل المقال وتقرير ما بين الشريعة والحكمة من الاتصال)، وابنِ تيمية، شيخ السلفيين المتأخرين ، الذي بذل بليغ وسعه إذ وضع فيها مُصنّفه الضخم (درء تعارض العقل والنقل). يقول الشيخ الغزالي: "هيهات أن يختلف العقـل والنقـل أو تتناقض ثمـار الوحي والفكر، مـا دام كلاهما تصويراً مجرداً للحقيقة، كما هي، دون ريبة أو عوج. في العلاقة بين العلم والدين يجب أن نعرف أن قول العاقل وعملـه لا يختلفان. وإذا كـان الكـونُ صنعَ اللـه والدين كلامَـه –جلّ شأنه– فيستحيل أن يكون في المعارف الكونية ما يخالف العلوم الدينية، إذ العلم ليس إلا وصفاً لما صنع الله في آفاق الأرض والسماء، وتقريراً لما بث فيها من قوى وخصائص. وهذا البيان لأفعال الله يستحيل أن يجيء في وحي الله ما يختلف عنه أو يصطدم به. إن الدين الحق والعلم الحق هما تصوير متكامل للوجود" (حقوق الإنسان بين تعاليم الاسلام وإعلان الأمم المتحدة : ٢١٣–٢١٤).

ومن جديد، ينقلنا هذا النص مرة واحدة إلى المبدأ الثالث، الموجّه لتجربة الشيخ الغزالي الروحية، ولدعائم النظر والعمل عنده : العلم. والغزالي ليس عالماً طبيعياً، ولا "فيلسوف علم"، لكن الناظر في مصنفاته يدرك بجلاء أنه كان حريصاً بالغ الحرص على أن يتزود من المعارف العلمية، ويتابع قضايا العلم ومكتشفاته ليتسنى له الإفادة منها في نشاطه "الدَّعَوِيّ". وملاحقة المسائل العلمية أمر تعلق به رجال النهضة الإسلامية، منذ أواخر القرن التاسع عشر، واشتد تعلُّقُهم بها مع انتشار عدد من الفلسفات الطبيعية ذات السمة "الإلحادية"، وبخاصة (الداروينية)، وعلى وجه الإجمال (المادية). وقد اعتقد هؤلاء المفكرون، الذين تصدَّوا لهذه الفلسفات بالتحليل والنقد والرد، أن الاستقصاء العلمي والتعمق في مسائل العلم وقضاياه ومناهجه ييسر لهم هذه الرسالة، ويؤدي إليهم أسلحة دفاعية وهجومية من الطراز الأول، في معركة الذب عن الإسلام ورد هجمات خصومه "العلميين". وقد كان الشيخ اللبناني الطرابلسي حسين الجسر (١٨٤٥-١٩٠٩) أبرع من جرد أسلحة ماضية في وجه الداروينية، كما كان المصري طنطاوي جوهري (١٨٧٠-١٩٤٠) من أبرز من عنوا بمتابعة المجالي المختلفة للعلوم وجواهرها، ولعجائب الكون التي يكشف عنها العلم الطبيعي، وللتعريف بالعلوم العصرية، وتقرير مساوقتها لنظام الإسلام ولآي القرآن الكريم. والحقيقة أنه يتعذر تماماً أن نلقى أحداً من المصلحين المسلمين المحدثين والمعاصرين إلا وقد عُنِيَ بمسألة العلم ووشائجه بالدين، ولهم في ذلك مناهج وأنظار وفهوم ليس هذا القول موضعها. والقضية عند الشيخ الغزالي قاطعة محسومة : "إن الدين الحق والعلم الحق هما تصوير متكامل للوجود"، مثلما مَرّ وإن "العقول الذكية" هي وحدها التي تستطيع اختراق أسرار الكون، ومعرفة آيات الله، في شتى الأمكنة والأزمنة"، وهي وحدها التي "تميز الحق من الباطل وتعرف حقائق الوحي" (الإسلام والأوضاع الاقتصادية:١٩٤-١٩٥). لقد خلقت العقول "للتجاوب مع حقائق الكون"، و "لتكون مفاتح خزائنه وكواشف أسراره"، والحضارة الإسلامية نفسها قامت على "العقل والبصر" (هذا ديننا : ٤٢). وأبلغ من هذا وأبعد غوراً ما يصرح به من القول: "ونحن –باسم الإسلام– نعتبر تصديق الحقائق العلمية ديناً" (حقوق الإنسان : ٢١٤).

وتأسيساً على هذا القول يوجب "على علماء الكون والحياة أن يروا تصديق الحقائق الدينية علماً"، إذ إن جحد شئ مما جاء الدين به يقيناً، يساوي الجهل بالقوانين العلمية العادية". والعلة بيّنة؛ وهي أن الله هو مصدر الحقيقتين : الدينية والعلمية. ولهذا السبب نفسه يمتنع تمام الامتناع أن ينشأ تعارض أو تناقض حقيقي بين الحدين.

ولا يملك الناظر وهو يتأمل هذا الفهم إلا أن يذكر ابن رشد وتقريره المشهور في أمر الاتصال بين العقل وبين الشريعة، وإن كان من الحق أن نقول إنه لا يذهب مذهبه في التأويل، الذي يبدو وكأنه يقدِّم العقل على النص. بيد أن الشيخ الغزالي يظل مفكراً "واقعياً" يدرك تمام الإدراك حدود علوم الكون والحياة من وجه، وحدود الرسالة الدينية ومضمون الوحي من وجه آخر. وذلك أنه يأبى أن يذهب إلى ما ذهب إليه أصحاب (التفسير العلمي) للقرآن؛ إذ يقرر صراحة "أن القرآن الكريم ليس كتاب مباحث فنية في علوم الكون والحياة، وغاية ما ألمح إليه أنه –وهو يبني اليقين على التأمل في ملكوت السموات والأرض– وصف هذا العالم بكلمات معجزة حالفها، الصدق على اختلاف العصور وارتقاء العقول، فبقيت في تصوير الحق براقة الدلائل، لا يأتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفها لأنها (تنزيل من حكيم حميد)." (نفسه : ٢١٤).

والحق الذي لا لجاج فيه، في معتقد الشيخ الغزالي، هو أن هذا الوجه من المسألة لا ينبغي أن يشغلنا عن "الغاية العظمى" التي نزل القرآن من أجلها. فالواقع أن القرآن "من قبل ومن بعد، كتاب هداية جامعة للسلوك الإنساني الصحيح"، وهو في هذا الشأن "استوعب كل شئ" مما يرجع إلى الأمر بالخير أو النهي عن الشر، ومما يتصل بالمبادئ الموجهة للسلوك البشري كالإخاء والعدالة والحرية والمساواة، وجملة الحقوق والمبادئ التي تضمنها الإعلان العالمي لحقوق الإنسان، الذي أقرته الجمعية العامة للأمم المتحدة في العاشر من ديسمبر (كانون الأول) ١٩٤٨؛ أي بعد أربعة عشر قرناً من نجوم تعاليم الإسلام في هذه الحقوق.

وهذا التساوق بين الوحي وبين العقل السديد ليس أمراً مبتدعاً، فقبل أن ينزل الوحي، وفي المواطن التي لم تبلغها أشعته، بعد أن نزل، لم يقف العقل الإنساني جامداً، وإنما مارس حقوقه في الإدراك وفي استكناه طبيعة الحياة ورسالة الإنسان فيها، والكشف عن حقائق كثيرة مما يتصل بمعرفة الله والعالم، وفي أمر العلاقة بين الإنسان وربه وبين الإنسان وأخيه الإنسان. ويلاحظ الشيخ الغزالي أن أبا حامد الغزالي قد تنبه في (المنقذ من الضلال) إلى التوافق في السياسة الخلقية والاجتماعية بين أحكام الدين وبين مقررات الفلاسفة، وإلى أنه قد أرجعه إلى تأثر هؤلاء بمواريث دينية عن النبوات الأولى. ومع أن الشيخ الغزالي يرى أنه "قلما ظهر مذهب فلسفي وأصاب الحق في نواحيه الإلهية والخلقية والاجتماعية كلها"، وأن "في التفكير البشري المجرد آفات يجب أن تُحْذَر"، وبخاصة حين تكون المعرفة سطحية تتعلق بالظواهر، فإنه يسوق قول أحد مفكري الغرب: "إن القليل من الفلسفة يبعد عن الله، ولكن الكثير منها يرد إليه جل جلاله" (حقوق الإنسان: ٢١٥-٢١٦). "ومع أن العقل البشري سار طويلاً وحده، إلا أن حصيلة فكره انتهت في الجملة إلى المقررات الدينية الأصلية، فالإيمان بالله وحده نزعة الكثرة العظمى من الفلاسفة، ولا قيمة للشواذ". لكن "الدين -كما جاء من عند الله- هو الخلاصة النقيّة السهلة التي جمعت الحق كله" (المرجع نفسه: ٢١٦).

ثمة إذن توافق وتساوق بين هذه الأصول الثلاثة : الوحي والعقل والعلم. والدين بهذا المعنى ذو سمة عقلانية علمية. لكن هل هو معرفةٌ عقلانيةُ الطبيعةِ والماهية ؟ هل هو محض قضايا "مجردة"، موضوعية، ذهنية، منطقية؟ هل هو محض تطابق بين مضمونه "الفكري" وبين الواقع الموضوعي المشخص العلمي ؟ لا، بكل تأكيد. إنه شئ آخر، أيضاً. إنه "عاطفة" و "وجدان". إنه "تقدم روحي". وهذا هو المبدأ الأخير الرئيس الموجه لتجربة الشيخ الغزالي المطلة على آفاق الروح النفسية والوجدانية الواسعة. والنص التالي واحد من نصوص كثيرة تحفل بهذه المعاني التي يقصد منها الغزالي إلى إنارة العقل بضياء الروح والقلب، يقول : "مع قيام الإسلام على العقل، وترحابه بالفكر الجيد، والبحث الأصيل،

وحضه علـى الارتباط المادي والمعنوي بالكون عملاً وتأملاً، مع ذلك كله فهو دين يعقد أوثق العلاقات بالقلب اليقظان والمشاعر الجياشة، ويجعل الإيمان عاطفة دافقة بالحب والبر، إلى جانب أنه نَظَرٌ يتسم بالسداد والصواب. والإسلام المكتمل ليس "نظرية" علمية أو اقتصادية، وليس فكرة مجردة عن الله، مهما كانت هذه الفكرة صحيحة من حيث التصور والاستدلال. إنه قلب انفتحت أقفاله، وانفسحت أرجاؤه، وأشرق معنى الحب في جوانبه، فهو متعلق بربه، متتبع لآثاره في كونه، عاشق للخير مبغض للشر، يمتد مع كل شئ حسن، وينكمش مع كل شيء قبيح" (ركائز الإيمان بين العقل والقلب: ١٠١). ثمة أمران ينبغي أن يتم الجمع بينهما في حياة الإنسان المسلم : الاستنارة الفكرية ، والهداية النفسية. وفي عالم أصبح فيه "التفاوت بين التقدم الروحي، والتقدم العلمي" خطيراً؛ إذ قطع العالم مراحل شاسعة في طريق التقدم العلمي لكنه تخلف أو بقي مكانه روحيا، بات من الضروري توجيه القافلة البشرية بقيم الأخلاق وحياة الروح والوجدان، وبالتسامي النفسي. "إن الانسان عقل وقلب" (المرجع نفسه: ٢١). واذا كان العقل الإنساني قد حقق مكاسب مادية جليلة للإنسان، فإنه بتضافره مع حياة الروح، يمكن أن يضمن للإنسان أفضل صورة ممكنة للحياة الأرضية.

وينبغي أن يكون مفهوماً هنا أن الفضائل الأخلاقية والعبادات الروحية التي قررها الدين لا تعوق ازدهار الحياة وتقدمها المادي. فزكاة الروح لا تتم بدمار البدن، وضمان الآخرة لا يتم بضياع الدنيا. إن عظمة الإنسان تقوم على نشاط عقلي لا حدود له يواكبه نشاط روحي لا يقل عنه كفاية وقوة. وذلك هو المفهوم الممتد للإيمان الذي يعيد الإنسان إلى الله ويتقدم به روحياً بفضل هذا المركب الفذ الذي يجعل منه عقلاً وقلباً في الآن نفسه، ويوجهه إلى ضرب من الحياة الروحية "الصوفية" التي تطهر البدن وتزكي الروح، في الوقت نفسه الذي يجعل منه ذا قدمين راسخين على أرض الواقع الزمني المعيش، وذلك في حالة فذة من "المصالحة" بين مطالب الجسد ومطالب الروح، وبين واجبات الدنيا وواجبات الآخرة" (الجانب العاطفي من الإسلام : ١٠٤). وتلك هي المزية

الكبرى للتدين الاسلامي وفضائله النفسية والروحية، التي تنحرف عنها الحضارة المادية الشهوانية أو تنكرها. ذلك أن "آفة الحضارة المادية أنها سخرت العقول للشهوات وأخرست نداء الروح، وأطلقت نداء الطين، وجحدت أن الإنسان نفخة من روح الله، ورأت أنه -كلاً وجزءاً- نشأ من الأرض، فلا يجوز أن يرفع رأسه إلى أعلى يذكر الله ولي نعمته وسر عظمته". إن شرف الإنسانية يتمثل أولاً وآخراً "في صلتها بالله، واستمدادها منه، وتقيدها بشرائعه ووصاياه. والحرية الحقيقية ليست في حق الإنسان أن يتدنس إذا شاء ويرتفع إذا شاء، بل الحرية أن يخضع لقيود الكمال، وأن يتصرف داخل نطاقها وحده" (المرجع نفسه: ١٠٥). إن "قيود الكمال" هذه تضعنا على "الطريق الى الله"، طريق الكمال، والتصفية"، والتحول عن مواطن الغفلة، والركود إلى مواطن الذكر والحركة"، والسير في ميادين النفوس سيراً "وجهته الله وعدته صالح الأخلاق والأعمال"، وشاراته التوبة والرغبة إلى الله والورع والعفة والقناعة والصبر والشكر والخوف والرجاء والتوكل والحب (نفسه : ١٧٥-٢٩٧).

هل كان الشيخ الغزالي قريب نسبٍ روحي بأبي حامد الغزالي؟ لست أشك في هذا البتة. لكنه، والحق يقال، أقرب إلينا من أبي حامد، وليس ذلك لأنه معاصر لنا فحسب، ولكن لأنه أيضاً "معاصر" بإطلاق ، قلباً وقالباً. وسمة "المعاصرة" هذه هي التي وجهت روحه المتوقدة وفكره "النقديّ" -الذي تفجر في مصنفه الفذ (السنة النبوية بين أهل الفقه .. وأهل الحديث)- إلى استخدام جملة المبادئ المؤسِّسة لتجربته الروحية في سجاله الحيّ الكبير مع المخالفين المعاصرين، الذين لم يدخر وسعاً طيلة حياته المناضلة في دراسة مذاهبهم ومناهجهم، تحليلاً ونقداً ورداً : الاشتراكية، الشيوعية، الرأسمالية، الاستشراق، الصليبية والتنصير، الماديه، الداروينية، العلمانية، القومية. وقد كان ذلك كله استجابة فريدة لدعوته الدائمة أن "الإسلام للإنسان وللحياة".

مراجع البحث الرئيسة

- ابن تيمة: درء تعارض العقل والنقل، تحقيق محمد رشاد سالم، دار الكتب، القاهرة ١٩٧١.
- عبده، محمد: رسالة التوحيد ، دار المعارف ، القاهرة

الغزالي، أبوحامد: المنقذ من الضلال، المطبعة الكاثوليكية، بيروت، ١٩٥٩.

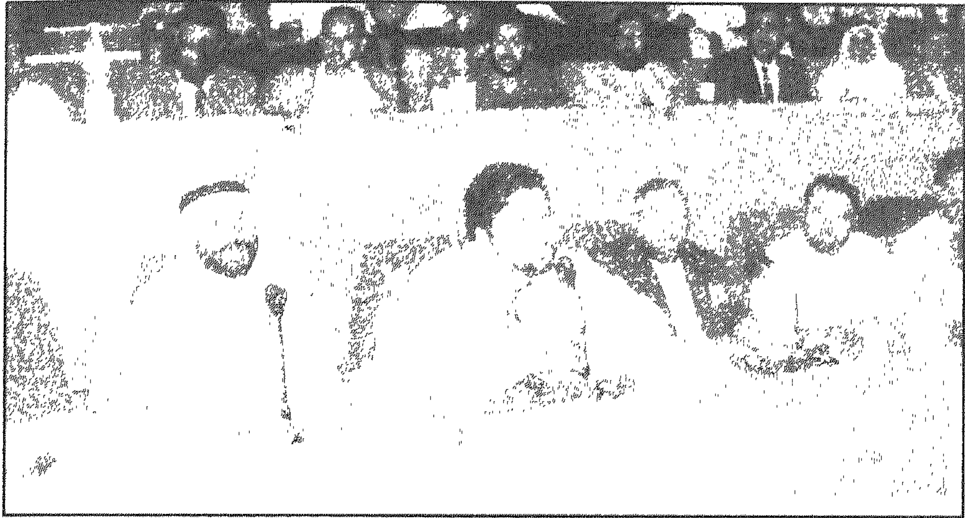
- تهافت الفلاسفة، تحقيق سليمان دنيا، ط٣، دار المعارف، ١٩٥٨.

- الغزالي، محمد: الجانب العاطفي من الإسلام، دار الدعوة، الاسكندرية، ١٩٩٠.
  - دفاع عن العقيدة والشريعة ضد مطاعن المستشرقين، ط٥، دار الكتب الإسلامية، القاهرة، ١٩٨٨.
  - الدعوة الإسلامية تستقبل قرنها الخامس عشر، ط٣، مكتبة وهبة، القاهرة١٩٩٠.
  - حقوق الانسان بين تعاليم الإسلام وإعلان الأمم المتحدة، ط١، دار الدعوة، الاسكندرية، ١٩٩٣.
  - ركائز الإيمان بين العقل والقلب، دار الإعتصام (ب.ت).
  - السنة النبوية بين أهل الفقه.. وأهل الحديث،ط٨، دار الشروق، القاهرة ١٩٩٠
  - الإسلام والأوضاع الاقتصادية، ط٧، دار الصحوة للنشر، القاهرة، ١٩٨٧.
  - هذا ديننا، ط٢، دار الشروق، القاهرة، ١٩٩٠.

- ابن رشد، أبوالوليد: تهافت التهافت، دار المشرق، بيروت، ١٩٨٧.

- فصل المقال وتقرير ما بين الشريعة والحكمة من الاتصال، ط٣، دار المشرق، بيروت، ١٩٧٣.

- الكندي، أبويوسف، يعقوب بن اسحق: رسائل الكندي الفلسفية، تحقيق محمدعبدالهادي أبوريدة، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٩٥٠.



مداخلات ومناقشات الحضور

الشيخ الغزالي ومنهجه في الفقه

الدكتور علي الصوا

نائب عميد كلية الشريعة/ الجامعة الأردنية

القسم الاول : الشيخ الغزالي ومنهجه في الفقه.

لم يُؤْثر عن الشيخ الغزالي – رحمه الله – كتابٌ في الفقه بمعناه الخاص، بيد أنه كتب في جوانب الثقافة الاسلامية المتنوعة: في العقيدة والاخلاق وفي السيرة والتفسير وغير ذلك من ألوان الثقافة[1]. لكن هذا لاينفي وجود الفقه في كتبه المختلفة، وتحت عناوين شتى، بمعناه الخاص والعام. وفقهه في الجملة من النوع الذي يندرج تحت مفهوم أبي حنيفة رحمه الله للفقه، الذي يعرفه بأنه "معرفة النفس ما لها وما عليها"، وهو ما أكده الشيخ القَرَضَاوي بقوله " أما اذا أريد بالفقه فهم مقاصد الشريعة وكلياتها ، ورد الجزئيات إليها وإبراز القضايا المهمة من خلال الأدلّة القرآنية والنبوية فللشيخ هنا فقه يذكر ويقدّر، وهو الذي يعبر عنه في تراثنا " فقه النفس "[2] .

وقد دخل الفقه من باب الدعوة، فتحدّث عن قضايا كثيرة تتعلق بالفقه والتشريع، لكي يبين عظمة الاسلام وسموه وحاجة البشرية إليه ،وقدرته على حل المشاكل، إضافة إلى تصويب الأفهام المغلوطه، من وجهة نظره، في قضايا فقهيه معينة، فما مفهوم الفقه عند الشيخ الغزالي؟

١. مفهوم الفقه عند الشيخ الغزالي:

يقوم مفهوم الفقه عندالشيخ الغزالي على معرفتين : الأولى: معرفة أحكام الله في قضايا الناس وهذه في نظره لا تحتاج إلى جهد صعب، والعلم بها قدر مشترك بين كثيرين.

الثانية: معرفة أحوال الناس، وقضاياهم الواقعية،وهذه تحتاج إلى جهد عسير، لأن استكشاف الحقيقه من بين الألفاظ التي يصيغها الدهاء والمكر، ليس امراً سهلاً؛ فإن للناس حيلاً هائلة في إخفاء ما يرتكبون من آثام وتضليل القضاء عن إيقاع العقاب في محله الصحيح. وقد استدل رحمه الله على فهمه هذا بقوله تعالى ﴿وداود وسليمان إذ يحكمان في الحرث إذ نفشت فيه غنم القوم وكنا لحكمهم شاهدين ففهمناها سليمان وكلا آتينا حكماً وعلماً﴾[٣]. وقال الشيخ بعد أن ساق النص: (هذا الفهم الخاص وسيلة لاستبانة الواقع وضبط الحكم عليه[٤]، ولذلك فإن الفقيه الذي له الحق في الاجتهاد في نظر الشيخ الغزالي هو: من عايش الوحي وخبر حكمته وأحكامه، وتدبر القرآن الكريم، وصحب الرسول في سيرته ﷺ، واستبطن سنته من أقوال وأفعال وتقريرات، وتأثر به في تقواه وعبادته وخلقه وغيرته، وكان ذا قدرة على تصريف أحوال الحياة وفق أحكام الدين، وإلحاق أحكام الحوادث بما علم من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، وبما وعى من مقاصد الإسلام وأهدافه[٥] .

٢. موقفه من التراث الفقهي:

يقف الشيخ الغزالي من الفقه الاسلامي موقف إجلال وتقدير، ويرى أنه محيط بالحياة الإنسانية ، وهو يحوي أحكاماً فوق الحصر، وأنّ قوانينه الضابطة للأعمال، كما تناولت الفرد في خاصة نفسه، تناولت الدولة في أعمّ أمورها، حتى يكون إشراف الدين على الإنسان محكما لا ثغرة فيه.

كما يرى أن سر التنوع الدافق بهذه الأحكام المتجددة ينبجس من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ. ومع أن النصوص والقواعد التي تعتبر دعائم هذا الفقه محدودة يمكن استيعابها، لكن أساليب الاجتهاد في تنزيل صور الحياة عليها، ووزن أعمال المكلفين بها، هي التي وسعت دائرة الفقه. وقد بدأ الاجتهاد مع ابتداء الاسلام نفسه[٦] .

وهو لا يرى بأساً في اختلاف العلماء في الأحكام، بل نراه يقرر أنه لا محيص عن هذا الاختلاف لتفاوت تفكير البشر، وتباين الأفكار في القضية الواحدة، وأن هذا الشيء مألوف، ويحاول إيجاد المسوغات العلمية لهذا الاختلاف فيقول: ربما نشأ هذا الخلاف من طبيعة التفكير الانساني عند هذا أو ذاك، ومن الفقهاء من نجده حرّاً في المنزع في حكمه وأدائه، ومنهم من يتوسع في فهمه وفق ما يرى من حكمة، ويبصر من غاية، وليس هذا الاختلاف عن ذكاء أو غباء، وإنما هو المزاج العقلي لأصناف الناس، وسيبقى معهم ما بقي البشر(٧).

وربما نشأ من طبيعة الكلام المنقول عن الله تعالى ورسوله ﷺ، فإن القرآن حمّال أوجه، وفي السنن والاسانيد التي رويت كلام طويل(٨)، ومع اقراره بواقع الاختلاف بين العلماء في الاحكام وانه امر مألوف وطبيعي فانه ينظر الى ثمرات الاجتهاد الفقهي الصحيح على انها متساوية القيمة، لذلك فمن منهجه رحمه الله رفض التعصب لاجتهاد مذهب معين وعدم الزام الناس باجتهاد واحد أو تخليد هذا الاجتهاد واعتباره كأنه الاسلام نفسه. ونجده في اكثر من كتاب من كتبه يرفض التعصب المذهبي الذي يضفي على المذهب قداسة، وكأن كلام الواحد من هؤلاء الأئمة المتبوعين مشابه لكلام الله ورسوله.

ويرى ان انقسام الناس فرقا وراء الأئمة الأربعة، أدى بهم إلى أن يصبحوا كأنهم أتباع عدة شرائع، لا أبناء دين واحد(٩) نتيجة التعصب.

ومع ذلك فإن فقه الغزالي يقوم على احترام جميع المذاهب الفقهية، المتبوعة وغير المتبوعة، دون تعصب لواحد منها. ويرى أئمة المذاهب قمماً عالية في رسوخ العلم، وفي تقوى الله تعالى، وفي الصلابة في الحق، والشجاعة في الرأي، وينكر على بعض الشباب الأغرار طعنهم الفج في هؤلاء الأئمة واجتهاداتهم، كما يحترم الشيخ المدرستين الشهيرتين في تراثنا الفقهي: مدرسة الأثر ومدرسة الرأي، كما اصطلح عليهما ، وأن الاولى لا تهمل الرأي كما أن الثانية لا تهمل الأثر(١٠).

ويرى الدكتور القَرَضَاوي أن الشيخ الغزالي يميل في كثير من الأحيان إلى مدرسة الرأي، في اجتهاداتهم المعتمدة على عمومات النصوص القرآنية وظواهرها، كقولهم بوجوب الزكاة في جميع الزروع والثمار، من كل ما أخرجت الأرض[١١]. والشيخ الغزالي لا يخفي ميله إلى هذه المدرسة، فهو يقول عن أتباعها "إنهم أهل الفحوى والتأمل العميق"[١٢]. وفي كتاب آخر يقول " وقد كان الفقهاء على امتداد تاريخنا العلمي هم القادة الموثقين للأمة، الذين أسلمت لهم زمامها عن رضى وطمأنينة، وقنع أهل الحديث بتقديم ما يتناقلون من آثار كما تقدم مواد البناء للمهندس، الذي يبني الدار ويرفع الشرفات"[١٣] والظاهر أن مراده بالفقهاء في هذا النص "اهل الرأي" لأنه صرح في دستور الوحدة الثقافية بأن مصطلح أهل الحديث يشمل الأئمة الثلاثة غير أبي حنيفة[١٤]. لكنه لا يتعصب بل نراه ينقد هذه المدرسة في موقفها من الخمر، وأنها من العنب وما كان خمرا من العنب فحرام لذاته، قليله وكثيره، وما سوى ذلك من العصائر اذا تخمرت، فالحرام منه القدر المسكر، أما القدر الذي لا يسكر فغير حرام[١٥].

ويمتدح الشيخ مدرسة التجديد الاسلامي الشهيرة التي قامت في القرنين السابع والثامن على يد شيخ الاسلام ابن تيمية وتلامذته، ويسميها مدرسة الموازنة والترجيح، وأنها مدرسة استوعبت الأخبار المروية، وأدركت وجوه الحكمة والمصالح التي تتبناها الشريعة؛ أي أنها أفادت من الرأي والأثر، وإن كان انتصارها للأثر أظهر[١٦].

ويعتبر الشيخ أنّ من جملة الأخطاء التي وقع فيها المسلمون نتيجة التعصب، إهمالهم لاجتهادات لا تقل عن اجتهاد الائمة الأربعة، ولا يقل مجتهدوها مكانة عنهم، فحُرِمَ العلمُ الاسلامي دهراً من الزمن من فقه ابن حزم وابن تيمية وابن القيم، ومن قبل تُجوهِلَ الليث ، والاوزاعي ، وجعفر، والطبري ، وزيد، وغيرهم.

٣. نظرته للمدارس الفقهية المتأخرة.

سار الشيخ الغزالي على منهجه في عرض المدارس الفقهية، التي نشأت في القرن الثالث عشر والرابع عشر، وحاول الربط بينها وبين المدارس القديمة، وبين وجهة نظره في كل مدرسة.

فذكر أن هناك مدرسة أشبه ما تكون امتداداً لمدرسة الأثر عرفت الفقه الاسلامي من الكتاب والسنة مباشرة، وأفادت من الجهد العقلي لرجالات المذاهب التقليدية، وضمت إلى ذلك جهد الفقهاء الظاهريين، وانتفعت من مدرسة ابن تيمية، وأحيت أسماءً كانت مغمورة في ميدان الاثر والرأي ، والقاسم المشترك بين رجال هذه المدرسة عرض الفقه من أصوله الأولى(١٧).

ثم عقب بعد عرض ما تقوم عليه هذه المدرسة بأن هذا الجهد يقوم على الاختيار الشخصي، والتنسيق، أو التلفيق بين وجهات النظر المختلفة. وأصحاب هذا الجهد أحسن تصويراً للإسلام من مؤلفي المتون المذهبية، وهم أيضاً يصيبون ويخطئون؛ إذ انَّ تماءهم للسنة لا يجعل التسليم بقولهم واجباً، وقد يخالف بعضهم بعضاً في كثير من الأحكام.

وهناك مدرسة أخرى أقرب إلى مدرسة الرأي، وإنْ كان عنوانها سلفياً، لها ملامح بيّنة – وإن قامت على النقل، إلا انها تروج للعقل وتقدم دليله، وترى العقل أصلا للنقل . وهي تقدم الكتاب على السنة، وتجعل ايماءات الكتاب أولى بالاخذ من أحاديث الآحاد، وهي ترفض مبدأ النسخ، وتنكر إنكارا حاسما أن يكون في القرآن نص انتهى أمده، وترى المذهبية فكراً اسلاميا قد ينتفع به، ولكنه غير ملزم، فهي تنكر التقليد المذهبي وتحترم علم الائمة. ثم ينقدها بقوله، وبديهي أن يكون في اجتهادات رجالها أخطاء، فتفسير الشيخ محمد عبده للملائكة – كما ذكره تلميذه محمد رشيد رضا – يرفضه الكافة. وناقش منتقداً قبول الشيخ أبي زهرة بحكم الرجم كذلك، وفي فتاوى الشيخ محمود شلتوت ما يحتاج الى مراجعة.

ثم يحدد منهجه في التعامل مع هذه المدارس بقوله" إن الاسلام صانع أولئك الرجال كلهم وهم لم يصوغوه، وإن مصادر الاسلام معصومة، لأنها من عند الله، ولكن التفكير فيها والاستنباط منها غير معصوم، لأنّه من عند الناس، وإن الانتفاع بكل فقيه مخلص ذكي يدعم مسيرتنا العلمية ولا يضيرها أبداً، ويجب أن تنتفي الحساسية والكراهية للأشخاص، وإن وجود هنات في رأي هذا أو سيرة ذاك لا تهدم عبقريته، أو تخدش تفوقه إن كان صاحب عبقرية وتفوق(١٨).

هذا التشخيص الرائع للمدرسة الفقهيه التي سادت في القرنين الاخيرين يدل على معرفة عالية بالفقه وتاريخة ،كما يدل على أن للشيخ منهجاً مستقلاً لا يتبع غيره على غير هدى، لذلك نجده يستحسن موقفاً عند هذه المدرسة؛ كما استحسن موقف ابن تيمية من قضية الطلاق وأيّده واستحسن موقف الحنفيه من قضيه التعميم في ايجاب الزكاة في كل ما أخرجت الارض، واستحسن القول بعدم النسخ في القران، كما ذهب الى ذلك الشيخ محمد عبده ومن وافقه، لكن ذلك لم يمنعه من نقد كل هذه المدارس وفق منهج ارتضاه لنفسه .

٤ . نظرته للدراسات الفقهيه:

يرى الشيخ الغزالي بأن فقه العبادات وجوانب من فقه المعاملات اتسع عندنا اتساعاً أكثر من اللازم، وان الاستبحار التشريعي في أمور العبادات كان أكثر مما يطيقه الفرد المسلم أو المجتمع المسلم، وقليل من هذا كان يكفي الناس.

ومع أن الفقه الاسلامي يمثل على الأقل ٥٠٪ من المكتبة الاسلامية، الا أننا مصابون بضمور في بعض المعاملات، عندنا على سبيل المثال نحو اثنان وخمسون كبيرة من الكبائر لم توضع لها عقوبات، كالتعامل بالربا أو التعصب، أو الفرار من الزحف، أو أكل مال اليتيم أو الغش، أو لما يقع من مخالفات كثيرة؛ فالحدود التي وضعها الله تعالى لا تغني عن تشريعات ضابطة في الميدان الاجتماعي، ومع أنها عقوبات تعزيرية لكنها لا بد من تنفيذها بصورة محكمة[١٩].

قوانين العمل والعمال لا تزال صفرا عندنا، ونستوردها من الخارج، وفي إصابات العمل وفي حقوق العمال، كما أن القوانين الادارية لا تزال إلى الآن مجلوبة، ويقول: لا زلنا فقراء جدا في الفقه السياسي بمعناه الاداري والدستوري، وهذا قد يدعو إلى شيء من التخبط في الرؤية السياسية، لأنها لم تزل عبارة عن مبادئ عامة، لم تترجم تاريخيا الى فقه، وبرامج تشكل خصوبة في التصور عند الفرد المسلم، يمكن أن يتعامل مع الحياة من خلاله[٢٠]. فالشيخ الغزالي، رحمه الله، في رصده لواقع الفقه يضع أمام العلماء والباحثين

جوانب التحدي، التي تحتاج الى اجتهاد جديد، يحل المشكلات، ويحاول إلى جانب ذلك أن يبحث عن أسباب الضمور في الجوانب السياسية والادارية، ويرجعه الى انفصال السلطان عن القرآن في التاريخ الاسلامي، أو القيادة الفكرية والقيادة السياسية اذا صح التعبير(٢١)، كما أنّه يرى أن هناك انفصالا بين الفقه التشريعي والفقه التربوي، كما انفصل ما يسمى بعلم القلوب، أو علم التصوف، أو علم التربية عن علم الشريعة، انفصالا مراً. والتربية أساس في تكوين الأمم، لأنها لا بد منها كي تكون النفوس راشدة والمجتمعات فاضلة. أنّ هذا الانفصال وغيره أحدث أحادية في المجتمع المسلم.

والشيخ لا يلقي اللوم على طرف واحد بل يرى أن كلاً من القيادتين الفكرية والسياسية لهما نصيبهما من الخطأ؛ لذلك يجب أن نعقد صلحا بين هاتين القيادتين، وما لم يعقد الصلح بينهما، فإن التخلف والارتكاس سيستمر(٢٢).

٥. أبواب الفقه التي خاضها الشيخ الغزالي ومنهجه في ذلك:

لا يكاد يخلو باب من أبواب الفقه من كلام للشيخ الغزالي ، وان لم يؤثر عنه كتاب فقه ككتب الفقه المعروفة ، لكنه قد يفيض الحديث في باب أكثر من غيره، وبحسب ما يظهر من آثار سلبية في تطبيق هذا الباب، نتيجة فرض العادات، أو تلاعب الأهواء، أو لعامل الجهل وسوء الفهم، أو سوء التقدير.

فقد تحدث الشيخ في العبادات بمعناها الخاص والعام، وتحدث في المعاملات المالية، وفي العقوبات ، وفي أحكام الأسرة، والنظام السياسي، والعلاقات الدولية، وفي القضاء، وحقوق الانسان، وفي أمور أخرى في الحلال والحرام، واللباس والزينة. وقد توزع حديثه في هذه القضايا في كثير من كتبه ولم تأت مرتبة في فصول متتالية، بل جاءت حسب ما يخدم الفكرة التي يتحدث عنها، والدعوة التي ينادي بها.

غير أنه قد يخصص كتاباً بعينه للحديث عن قضية فقهية بأسلوب فكري دعوي، كما فعل في كتابه «الاسلام والمناهج الاشتراكية»، وكتابه «حقوق الانسان بين تعاليم»،

«الاسلام والمناهج الاشتراكية»، وكتابه «الاسلام والاستبداد السياسي»، وكتابه «من هنا نعلم»، وقد يخصص فصلاً من كتاب للحديث عن موضوع فقهي، أو باب فقهي بعينه، كما فعل عند حديثه عن العبادات، والأسرة، والمعاملات في كتابه «هذا ديننا»، وفي كتابه «دستور الوحدة الثقافية».

وقد يأتي فقهه إجابة على أسئلة وجهت إليه، تتناول مواضيع شتى من الفقه وغيره من علوم الشريعة، كما في كتابه «مائة سؤال»، وقد يكون ذلك منثوراً في مجلات أو جرائد، وهذا يحتاج إلى استقصاء وتتبع حتى تلتقط جميعها وتوضع في كتاب واحد .

يقوم منهجه على أساس احترام جميع المذاهب دون تعصب، كما أكد ذلك الشيخ الدكتور يوسف القَرَضَاوي[٢٣] ولكنه انتقائي فيما يتبنى من احكام. وقد يبدو للبعض أن انتقاءه لا يخضع لمنهجية، وقد يتهمه البعض بأن ترجيحاته ناتجة عن كون الرأي الاخر، والاخذ به، محرجاً أمام القوانين العالمية، أو أنه مخالف لمألوف الأمم الاخرى، أو عن أثر الضغط الواقع. ومن هنا ذكر هذا البعض أن الشيخ اعتنق عدداً غير قليل من الاراء الضعيفة والمرجوحة والشاذة، وآراء اخرى لم يقل بها أحد من قبل[٢٤]، خاصة في موضوع الحجاب،وتولي المرأة المناصب العليا، وشهادة المرأة، وانفراده في قضية الاطعمة فيما عدا الاربعة المذكورة في الآية" قل لا اجد فيما أوحي إليّ محرماً على طاعم يطعمه إلا أن يكون ميتة أو دماً مسفوحاً أو لحم خنزير فإنه رجسٌ أو فسقاً أهلّ لغير الله به ..." [٢٥]

ويقول الشيخ سلمان العودة في مناقشته الهادئة للشيخ الغزالي " ليس مهماً ترجيح رأي على آخر لكن الأكثر أهمية معرفة الدافع والمرجح، هل يجوز أن تشكل القوانين العالمية ضغطاً على حسي يجعلني أرجح قولاً على آخر مسايرة لهذه القوانين؟ وماذا إذاً لو حدث العكس، فأرجّح الرأي المضاد لأنه يخالف ما عليه الكفار الذين أمرنا بمخالفتهم ومجانبة طريقهم وترك التشبه بهم؟

لِمَ نجعل ترجيحنا خاضعاً لردود فعل ومجاملات لأوضاع وقوانين غربية جاهلية؟[٢٦]

ثم يقول مقرراً "المهم انه اصبح واضحاً ان الشيخ حين يرجح قولاً ما، لا يرجحه لأن الدليل معه، آيةً أو حديثاً أو استنباطاً وفق الاصول المقررة كلا، وإنما يرجحه لأنه لا يريد أن يوهن دينه أمام القوانين الوضعية، أو لأنه لا يريد أن يغير شيئا درجوا عليه وألفوه"(٢٧)

ومع اعتقادي بأن الشيخ الغزالي بشر قد يصيب وقد يخطيء، ومع أنيّ قد أُوافِقه في كثير من القضايا الفقهية التي طرحها، وقد اخالفه في بعضها، الا أن القاريء الذي يُنْعِمُ النظرفي ثنايا كلامه يدرك أنّه لا يَصْدر في اختياراته وترجيحاته واجتهاداته عن هوى، أو ملاءمة لأوضاع الامم الكافرة في قوانينها أو عاداتها، أو أنه يقول ما يقول صدى لواقع أو تأثر لضغطه. وكتبه ناطقة بوجوب التميّز والولاء لله، والانحياز لكتابه و سنة رسوله ﷺ، وصريحة في نقد الحضارة والثقافة الغربية السائدة؛ بل هي كالصواعق توهن أساسها، وتقلل من شأنها في مقابلة الاسلام وما بُني عليه من حضارة، وما صدر عنه من ثقافة ، في الوقت الذي لا ينكر فيه محاسن تلك الحضارة، ومحاسن ما عليه أهلها من عادات وأخلاق، هي من صميم الاسلام وقيمه. كما يكثر نقده في كتبه للمهزومين أمام الحضارة الغربية، المولعين بها من أبناء المسلمين. وفي كتابه ظلام من الغرب وغيره ما يؤكد ما ذكرت .

وتتضح معالم منهجه في النقاط التالية:

أولاً: يأخذ الغزالي بالكتاب والسنة معاً، فالقرآن هو المصدر الأول المقطوع بثبوته وتواتره اليقيني، والسُّنة هي البيان النظري والتطبيق العملي له، والبيان لا يجوز أن يناقض المبيّن، لهذا يرفض الشيخ كل سنّة تناقض القرآن، ولا يتكلف أو يتمحل في تأويلها، ويقول: اذا كان مخالفة الراوي الثقة من هو أوثق منه، وإن كان عدلاً ضابطاً يجعل الحديث شاذاً، أي تنقله عن دائرة القبول الى دائرة الرفض، أو من دائرة الصحة والحسن إلى دائرة الضعف فكيف اذا خالف الحديثُ القران؟ (٢٨) بل قد يعد السنة المناقضة للقران الكريم مكذوبة على النبي ﷺ. (٢٩)

وبناء على منهجه هذا رجّح رأي الحنفية في قتل المسلم بالكافر الذمي، قصاصاً إذا قتله عمداً، ويقول: " إننا لا نحرص على تضعيف حديث يمكن تصحيحه، وإنما نحرص على أن يعمل الحديث داخل سياج من دلالات القرآن، وحديث الآحاد يَفْقِدُ صحّته بالشذوذ والعلة القادحة، وإن صح سنده، وحديث (لا يقتل مسلم بكافر) معلول بمخالفته للنص القرآني " أنّ النفس بالنفس" (المائدة:٤٤).

ويقول الشيخ: «وعند التأمل نرى الفقه الحنفي أدنى إلى العدالة، وإلى مواثيق حقوق الانسان، وإلى احترام النفس البشرية دون نظر إلى البياض والسواد، أو الحرية والعبودية، أو الكفر والايمان... وقاعدة التعامل مع مخالفينا في الدين ومشاركينا في المجتمع، أن لهم ما لنا، وعليهم ما علينا، فكيف يهدر دم قتيلهم»[٣٠].

وانظر للشيخ الغزالي يقول في التسوية في مقدار الدية بين الرجل والمرأة، "إن الدية في القرآن واحدة للرجل والمرأة، والزعم بأن دم المرأة أرخص وأن حقها اهون زعم كاذب، مخالف لظاهر الكتاب العزيز فإن الرجل يقتل في المرأة كما تقتل المرأة في الرجل، فهما سواء، فما الذي يجعل دية دون دية؟ [٣١] فالغزالي في الموضعين السابقين رد العمل بالحديثين حديث «لا يقتل مسلم بكافر»، وحديث «دية المرأة على النصف من دية الرجل» لمعارضتهما لظاهر القرآن الكريم، الذي يقضي بالمساواة، ولم يتأولهما على نحو ما فعله الحنفية في الحديث الاول.

وانسياقاً مع هذا المنهج ردّ حديث "بعثت بخراب الدنيا ولم ابعث بعمارتها" الذي أخرجه الطبراني لمعارضته لقوله تعالى: " ولقد مكناكم في الأرض وجعلنا لكم فيها معايش"[٣٢]

وحديث أن عائشة خرجت لابن أخيها عبدالله مزينة فكرهه النبي ﷺ– أي التزيّن – فقلت إنه إبن أخي يارسول الله، فرد عليها النبي ﷺ، «إذا حاضت المرأة لم يحِلّ لها أن تظهر إلا وجهها، والا ما دون هذا؛ اي المعصم»؛ لانه معارض بصريح القرآن الذي أجاز

للمرأة إظهار زينتها الباطنة أمام أبناء الاخوة والأخوات وقال:«والحديث باطل» حكم عليه بالبطلان لهذه المعارضة، وذكر أن ذلك لا يحتاج الى مناقشة السند وتوهينه[٣٣]. وقرر منهجه هذا في قاعدة واضحة لا لبس فيها، بقوله "إن أي حديث يخالف روح القرآن أو نصه باطل من تلقاء نفسه، والدليل الظني متى خالف القطعي سقط اعتباره على الاطلاق"[٣٤].

واستدل لمنهجه هذا بفعل البخاري وغيره من الحفاظ الذين رَدّوا حديث ابي هريرة، الذي يرويه عن النبي ﷺ، وفيه «أن الله خلق السماوات والارض في سبعة أيام»، واعتبروا هذا من مرويات أبي هريرة عن كعب الأحبار، وليس عن النبي ﷺ لانه مخالف لصريح القرآن، الذي فيه أن الله خلق السماوات والارض في ستة ايام.

ومن منهجه أن السنة لا تنسخ القران، بل هو لا يرى النسخ في القران الكريم، ولهذا نجده يندد بما قاله بعض المفسرين من أنّ آية السيف نسخت أكثر من مائة آية في كتاب الله تعالى، وفي كتابه «جهاد الدعوة بين عجز الداخل وكيد الخارج»، وضّح الشيخ أن هذه الايات– كلها محكمات، لا نسخ فيها، وتكلم عنها، آيةً، آية، بما لا يدع مجالا لأي تقول أو ريبة. [٣٥]

أما السُنّة التي لا تعارض القرآن فقد حدد منهجه في التعامل معها في اكثر من كتاب من كتبه – وبين أنّ من زعم أن الرسول يجوز عصيانه فيما أُمر به ونهى عنه فهو كافر باتفاق المسلمين. وصرّحَ بأنه قد بذلت جهود كبيرة لخدمة السنة وانتهت هذه الجهود الى جملة حقائق محترمة منها:

١. إن في السنة ما هو متواتر لفظاً ومعنى، هذا النوع من السنة يشبه القرآن الكريم فيما أتى به من أحكام لا يمكن رده، ويرى أن هذا كثير في التراث النبويّ وعليه تقوم الكثرة الكاثرة من الأحكام المقررة.
٢. سنة الآحاد وهي مقبولة في إثبات الاحكام الشرعية، متى صحت، لكنها لا تفيد يقيناً وإنما تفيد الظن العلمي وحسب.

٣. ويمكن تجاوز سنة الآحاد عند بعض العلماء، إذا كانت هناك قرينة أقوى منها في إفادة الحكم الشرعي، كعمل أهل المدينة عند المالكية ، والحنفية يرون أنّ حديث الآحاد لا ينهض على إثبات الفرضية وحده، ولا على إثبات الحرمة ولكنه يثبت احكاما اقل رتبة[٣٦]

لكن الشيخ الغزالي يجعل فعل من يقدم القياس القطعي على سنن الآحاد غلواً ، والغلو مرفوض كما نعلم, كما يقول " ولا يقبل في هذا الميدان ما يرسله السفهاء من أحكام طائشة تجعل التطويح بالسنة الشريفة أمراً جائزاً، أو تجعل تكذيب حديث ما، هوى مطاعاً، كما يرفض كذلك التعامل مع جملة الاحاديث المتفاوتة القيمة، وأنْ يُشرح الحديثُ في نطاق خاص به، دون محاولة لجمعها في نسق متكامل، تستبين منه الصورة الجامعة لخلال النبوة ومواقفها بإزاء مشكلات الحياة وقضاياها الكثيرة .

ثانياً : ومن منهج الشيخ الغزالي أخذه بالمصالح المرسلة، ويجعل لها اعتباراً بشروطها المعتبرة شرعاً، وأولها أن لا تعارض نصاً صريحاً .

ويقول " إن المصلحة لا بد من رعايتها، ومعنى النص الشرعي أن المصلحة قد ارتبطت به أبداً، فهو دليلها وضمانها، وأيّ تعطيل له فهو خدش للمصلحة أو تطويح لها.
والفقه الصحيح ان نتعرف على المصلحة حيث لا نص، وأن نجتهد في تفهمها، ثم في تحقيقها ناشدين إرضاء الله وخير الامة ".

والمساحات التي يمكن إيجاد أحكام لها على أساس المصلحة المرسلة كثيرة في العقوبات التعزيرية،وفي أسلوب الحكم. وفي مجال المصالح المرسلة يستطيع الساسة المسلمون أن يصنعوا الكثير لأمتهم، على ان لا يصطدموا بنص قائم فان هذه النصوص مَعاقدُ المصلحة وأن عميْت عن ذلك أنظار [٣٧].

وفي ضوء منهجة هذا يمكن فهم بعض ترجيحاته، كقوله بأنّ الجهاد دفاعي وليس هجومياً، وقبوله بمبدأ الديمقراطية ومناداته بها، إذا كان البديل الآخر الاستبداد وحكم الفرد، وقبوله ببعض جوانب الاشتراكية، متى كان البديل الآخر الاستغلال .

ثالثاً : ومن منهجه النظر في مآلات الأفعال والأحكام الضابطة لها، لأن الشريعة جاءت لتحقيق مصالح ضرورية وحاجية وتحسينية، ولا يجوز ان تتناقض فروع الشريعة مع كلياتها لأن المناقضة باطلة، لذلك نجده يؤكد على أنّ حفظ الدين في الداخل والخارج مقصود للشارع، فما ساعد على حفظه من خلال التربية والتعليم، والدعوة، والامر بالمعروف والنهي عن المنكر، كان مطلوباً؛ وما أدى من الأعمال والأقوال والأحكام الى خدش الدين والإساءة إليه وتنفيرالناس عنه، ممنوع، حفاظاً على اتساق أحكام الشريعة في تحقيق مقاصدها في الخلق.

وهو ما عبر عنه الشيخ القَرَضَاوي تحت عنوان مرتكزات فقه الغزالي، (فقه الدعوة)[٣٨] يقول في هذا الجانب:

إن الفقه ينبغي أن يكون في خدمة الدعوة إلى الاسلام، وألاّ تستخدم الفتاوى الجزئية للتنفير من قبول الاسلام من غير المسلمين، أو من التوبة والهداية للعصاة والشاردين من المسلمين». وساق الشيخ القَرَضَاوي نموذجين:

الاول: في إلغاء السلام على النساء، وكيف أن بعض الأساتذة حرم ذلك، مدعياً أن ردّ النبيﷺ السلام على النساء كان خصوصية، مع عدم وجود المخصص، اللهم إلا قول الشارح للحديث. واعتبر الشيخ الغزالي هذه الفتوى مخالفة لمقصد الاسلام في تحبيب الناس إليه وعدم تنفيرهم منه.

والثاني : خروج النساء إلى مصلى العيد، الذي خصصه شارح البخاري بالعجائز، مع أن النص الوارد على أن الخارجات هن العواتق وذوات الخدور، أي الشابات المكنونات، وهذا ينافي مقصد الاسلام في نشره وإشاعته بين كل فئات المجتمع.

وبذلك نفهم لماذا شنّع الشيخُ على المعركة المفتعلة حول الشرب قائماً أو قاعداً ، ورفع اليدين أو عدم رفعهما في الصلاة ، وحول تقصير الثياب، أو عدم تقصيرها، وحول الأخذ من اللحية أو عدم الأخذ منها ، وحول جلوس الداعية في بلاد الغرب على أرض

المطارات لتناول الطعام ولعق الأصابع أمام الناس، لإحياء سنة في نظرهم فقط، دون تمييز بين العادات والعبادات، ودون نظر في مآلات هذه الافعال. وصدق الشيخ القَرَضَاوي في قوله: " وهكذا نرى الشيخ دخل باب الفقه من باب الدعوة فهو يتبنى من قضاياه ما يخدم رسالة الاسلام ويحببها إلى الناس، ويظهر وجهها مشرقاً جذاباً ويرفض من القضايا ما لا يتفق وعظمة الاسلام، وروعة مبادئه، وعدالة أحكامه، وجلالة أهدافه. وهذه الفكرة عن الاسلام إنما كوّنها من محكمات القرآن وصحاح السنة، فأصبحت هي الأصل الذي يرجع إليه ويعول عليه".

أقول: وفي ضوء ما سبق يمكن أن نفهم تبنّي الشيخ الغزالي لمذهب ابن حزم في الغناء والموسيقى، حتى لا يحال بين الاسلام والشعوب التي تعشق هذا الفن، وان نفهم موقفه من الجهاد، وأنه لم يشرع إلا للدفاع، وإنكاره تضخيم الأمور الخلافية، وتجسيم الأشياء الهامشية من الدين، على نحو يبعد الناس عن سبيل الله(٣٩).

كما نفهم حملته على خطباء المساجد الذين يقولون بأن «المرأة لا تخرج من بيتها إلا إلى الزوج أو إلى القبر، ورفضه لحبس المرأة بين جدران بيتها، فلا ترى رجلاً ولا يراها رجل وَيعُدّ ذلك شائعة مكذوبة في مجال العلم الشرعي.. والازدهار الذي أحدثه الاسلام في عالم المرأة أخذ يتعرض للذبول أو التلاشي، ومن ذلك وضع حديث «يمنع تعليم النساء الكتابة» كي يبقين على أميتهن الاولى، لحساب من تعود هذه الجاهلية (٤٠)؟.

إن منهجه هذا لم يقف عند هذا الحد، بل نراه سارياً في مجال النظر للمال، فالمال وسيلة لا غاية وحفظه مقصود للشرع حتى يحقق ما خلق له من قيام حياة البشر. فاذا تعامل الناس معه على أنه غاية، وأنه قيمة تقاس بها مكانة الاشخاص ومروءة الافراد ، وفي سبيل إدراكه تهدر الأمانة وتوأد الصداقة، ويصلب العلم، وتنتهك الأعراض وتقدم النفوس البشرية قرباناً لصنم المال، فهذا شطط يعاكس مقصود الشارع ويرفضه الإسلام والعقلاء، وفي المقابل إذا نُظِر إلى المال على أنه محتقر لذاته وأن حقيقة التقوى لا تكمل إلا بفقدانه، فهذا تفكير مقلوب انطلق به المخربون في أرجاء العالم الاسلامي، يعطلون كل

همة، ويدمرون كل نشاط، ويسوقون بين أيديهم مئات الأحاديث تختص بالفقر والفقراء، وتذم الغنى والأغنياء، إن الفوضى التي لحقت قضية المال خلفت وراءها أمماً فقيرة [٤١].

بعد هذا العرض الموجز لمنهج الشيخ الغزالي في الفقه يمكننا أن نقرر أمرين:

الامر الأول : إن الشيخ لم يصدر في ترجيحاته الفقهية وأقواله التي انفرد بها وهي نادرة، عن هوى أو ملاءمة لقوانين وضعية، أو عن تأثر بواقع، وإن كان العالم ابن بيئته، ويأتي علمه مصطبغاً بظروفه النفسية وبيئته التي يتحرك فيها.

وإن ما يظهر من تعارض في آرائه وأطروحاته الفقهية، أو في قبوله لأحاديث الآحاد في أغلب أحواله، ورده لبعضها في أحيان أخرى قليلة، مرده إلى وجود هذا المنهج لا إلى عدمه ، وأن من تفحص هذا المنهج ورد المسائل والفروع التي عارضها أو وافقها إليه فسيجدها تصدر عن منظومة فكرية واحدة، ويؤكد هذا ما سنذكره عن موقفه من الأدلة والأحكام في القسم الثاني من هذه الورقة.

الامر الثاني: إن غالب الأحكام الفقهية التي شُغِبَ عليه فيها ونازعه في تبنيها خصوم، له فيها سلف من الفقهاء المتبوعين وغير المتبوعين، ولم يكن في ذلك شاذاً أو خارجا عن مسلك العلماء، هذا من جهة، ومن جهة أخرى فإن أطروحاته الفقهية لها أدلة من جهة الشرع، إما خاصة وإما عامة، ولم يحاول جعل عقله مصدراً مستقلاً للأحكام، وإنما استخدم العقل في إطار الشرع، ملاحظاً في ذلك الواقع الذي استنبط الأحكام الشرعية له.

القسم الثاني: منهج الشيخ الغزالي في أدلة الأحكام أو مصادر التشريع.

سار الشيخ في اعتماده على مصادر التشريع على نحو ما درج عليه العلماء من أن مصادر التشريع هي القرآن الكريم، والسنة النبوية الشريفة، والاجماع، والاجتهاد، والقياس، وبرز اعتبار المصلحة في كتبه أكثر من غيره في الأدلة غير النصية، وإن كان يَعْتَدّ بالاستحسان الذي استخدمه الحنفية.

اعتمد الشيخ -رحمه الله- في فقهه على مصادر التشريع التي اعتمد عليها الفقهاء، وهي الأدلة النصية (الكتاب، والسنة، والاجماع). والأدلة غير النصية كالقياس، والمصلحة، والاستحسان، التي عبر عنها بالاجتهاد وسنحاول إلقاء نظرة سريعة على موقفه من كل مصدر من هذه المصادر محاولين تلمس منهجه فيها.

أولاً: القرآن الكريم:

سار الشيخ كعادته في الفقه في حديثه عن القرآن الكريم بأسلوب الداعية، ببيان «أن الوحي الإلهي قد انتهى إلى هذا الكتاب، وأن ما بين دفتيه كلمة السماء إلى الأرض دون تحريف». وأن التاريخ لا يعرف إلا قرآناً واحداً منشوراً بين جماهير المسلمين، من ليلة القدر الأولى إلى يوم الناس هذا، ولم يحدث خلاف على هذه الحقيقة خلال أربعة عشر قرناً ونصف، وأن مراد الله من خلقه، قد خلّد في هذه الصحائف، فلا تعقيب لأحد بعده.

ويأخذ على العامة من المسلمين في علاقتهم بالقرآن الكريم، تمسكهم بأمور لا غناء فيها، وتعلق عواطفهم بتقديس حروفه وأنغامه أكثر من تعلقها بتحقيق مناهجه وأهدافه.

كما يأخذ على العلماء -محدودية إقبالهم على فقه القرآن الكريم، وهذا خلاف منهج الصحابة رضي الله عنهم، كانوا يقدمون القرآن على كل شيء في استنباطاتهم واستدلالاتهم- ولكن عصرهم لم يكن عصر تأليف وتدوين، فلم يخلفوا لنا كتباً في هذا المجال، وإن كان هذا من فرائض الذين جاءوا بعدهم. ولكنهم غفلوا عن أداء هذا الفرض، واشتغلوا بآراء الرجال، والمسائل الخلافية، والجدل. ويدعوا الشيخ إلى ما دعا إليه الشيخ سليمان الندوي من توجيه العلماء عنايتهم إلى تأليف كتب مبسوطة سهلة مبوبة في علوم القرآن، يظهر فيها وجه التوفيق والارتباط بين الآيات والأحاديث الثابتات، ويقربوها لأفهام أهل هذا العصر.

ويقرر الشيخ أن القرآن الكريم هو المصدر الأول لتعاليم الإسلام، فيقول: «وقد اتفق المسلمون على أن القرآن الكريم هو المصدر الأول لتعاليم الإسلام، والمعجزة الباقية أبد

الدهر لنبيه ﷺ. ويرى أن القرآن الكريم يبني الأمم والأفراد بطريقين: أحداهما أعظم من الأخرى: الأولى: صوغ الأنفس على معرفة الله، واستشعار عظمته والتهيؤ لملاقاته يوم الأشهاد. والثانية: الأحكام المحددة التي فصّلها، وطلب من عباده إنفاذها، سواء في أحوالهم الخاصة أو في شئون الأسرة والمجتمع والدولة، وإنما قال: إن الأولى أعظم من الثانية؛ لأن ضمانات الخير في مجتمع ما، ليس في قيام بعض التشريعات أو سيادة طائفة من القوانين، فربما أمكن احترام القوانين من ناحية الشكل مع تشعب الفساد في الباطن، والقران الكريم يعالج الأمم بما يوفر لها سلامة الجوهر واستقامة الطبيعة.

والجيل الذي أنشأه القرآن من أربعة عشر قرناً لايمتاز بشيء إلا بهذا السناء الذي استحال جوهره إلى صدق علاقه بالوحي الأعلى، إن مسلمي اليوم قد اتخذوا القرآن مهجوراً، وأقاموا في حياتهم حجاباً كثيفاً بين تعاليم القرآن وبين ما يريدون وما يشتهون. فالشيخ في أكثر من كتاب من كتبه، أورد بأن أكثر الأحكام القرآنية معطل، بل إن العمل بأكثرها –يعد في نظر الأجيال التي خلفها الاستعمار– نكسة إنسانية ورجعة إلى الخلف.

وللشيخ موقف من النسخ في القرآن الكريم فهو لايرى وقوع النسخ في القرآن أصلاً، ومن لوازم ذلك أن لا تنسَخَ السنةُ القرآنَ الكريم، بل هو يشنع على من قال بذلك، ويرد كل حديث يعارض القرآن الكريم.

ثانياً: موقفه من سنة النبي ﷺ كدليل من أدلة الأحكام.

١. تعدّ السنة في نظر الشيخ الغزالي المصدر الثاني لتعاليم الإسلام كلها، وهي بالضرورة كذلك تعد مصدراً أساسياً ثانياً للأحكام الشرعية العملية؛ أعني الفقه، ولا يمكن الاستغناء عنها كالقرآن الكريم سواء بسواء. من هنا نجد في كتبه حملة قوية على كل من أدعى الاكتفاء بالقرآن الكريم وحده، واعتبر مثل تلك الدعوات خالية فارغة من العلم والانصاف، وأنه لو تم لدعاتها ما يريدون لضاع القرآن الكريم والسنة معاً، واعتبر القضاء على السنة ذريعة للقضاء على الدين كله.

٢. ينظر الشيخ للسنة على أنها الترجمة الحقيقية للقرآن الكريم؛ لأن الوحي الذي مرّ بنفس النبي ﷺ، برز شذاه في إيمانه وأخلاقه وصفاته، حتى صار بذلك قدوة للعالمين، وهذا معنى قول عائشة رضي الله عنها «كان خلقه ﷺ القرآن» عندما سئلت عن خلقه.

فالنبي ﷺ فسر السنة بألوف من الأقوال والأفعال والتقريرات والإجابات، لذلك عدها الشيخ امتداداً للقرآن الكريم وتفسيراً لمعناه، وتحقيقاً لأهدافه ووصاياه.

٣. ويأخذ الشيخ الغزالي –رحمه الله– على الجماعات التي تنتسب للسنة أمرين، الأول: أنها تخلط بين الصحيح والسقيم، ولا تدري بدقة ما يقبل وما يردّ من المرويات. والثاني: قصورهم الفقهي في كتاب الله الكريم، فليس لديهم قدم راسخة في فقه القرآن الكريم مع أنه الأصل. كما يأخذ عليهم أنهم يأخذون السنة مقطوعة عن ملابساتها، ولا يضمون إليها ما ورد في موضوعها من مرويات أخرى، قد تؤيدها أو تردها.

٤. ويقرر الشيخ أن السنة من حيث ثبوتها وإفادتها للأحكام نوعان في الجملة:

النوع الأول: المتواتر لفظاً ومعنى: وهذا النوع عنده يشبه القرآن الكريم، فيما قرر من أحكام، وله حكم القرآن في وجوب العمل به، وهو يعتقد –رحمه الله– أن ما لا بد منه من الأحكام تكفلت ببيانه النصوص المتواترة، وهو قدر في جملته يمكن أن تقوم به الحياة الإسلامية. ومنكر القطعي من الإسلام نصاً أو حكماً كافر مرتد.

النوع الثاني: ما ثبت بطريق الآحاد: وهذا النوع إما صحيح، وإما ضعيف. فما كان منه صحيحاً يجب العمل به في الأحكام الشرعية، لكنه لا يفيد حكماً يقينياً، ولو تلقته الأمة بالقبول.

وهو يدعو إلى التفريق بين القطعي والظني؛ لأن من ينكر القطعي يكفر صاحبه، ومن ينكر الظني يُنظر في عذره، فما من إمام مجتهد إلا وقال أقوالاً مخالفة لبعض الأحاديث الصحيحة؛ لأسباب يُعْذَرُ فيها.

غير أن الشيخ يقرر بأن السنة لا يمكن أن تخالف القرآن الكريم، وليس فيها ما يخالفه، أو يسير في وجهة تضاد وجهة القرآن الكريم. لكن إذا نقل عن الرواة ما يضاد القرآن الكريم، أو القطعيّ من السنة نفسها، فإنه يسقط اعتباره بمجرد المعارضة، من غير حاجة للبحث عن تأويل. والأحاديث الصحيحة قد يغني بعضها عن بعض، وربما لا يضر نسيان هذا البعض، أو إرجاؤه. فالمهم إحكام الأساس الصالح، وعلى هذا تجتمع الأمة، وتلتقي الأئمة، وإن اختلفت آراؤهم في الفروع اليسيرة، أو اختلفت تأويلاتهم للأحاديث الواردة.

ومن منهجه -رحمه الله- أنه يرى عدم ذكر الحديث الصحيح؛ إذا كان سَيُفْهَمُ على غير وجهه، أو أن إشاعته ستَمَسُّ تعاليم الإسلام القائمة، وهو يعطي على ذلك أمثلة.

كما أن من السنة ما يلزم اتباعه، وما هو من العاديات التي لا يكلف باتباعها، وفيها توجيهات موقوتة بزمان مضى، وفيها توجيهات منظور فيها إلى أحوال معينة، وأقوام مخصوصين، والأمثلة على ذلك كثيرة.

أما إن كانت السنة المروية ضعيفة، فإن منهجه فيها يتلخص فيما يلي:

١. لا يمكن إثبات أحكام عملية بالسنة الضعيفة منفردة، فهي مبتوتة الصلة عن شؤون الحياة العملية، أو ذلك ما يجب أن يفهم، كما يقول.

٢. يمكن تداولها في مجال الدعوة والإرشاد، لأنها قد تتناول إيقاظ العواطف بالكلمات الحكيمة، وإذا جاز إيقاظ العواطف بالحكايات المصنوعة، فايقاظها بالكلمات المنسوبة إلى رسول ﷺ في الحدود التي بينها أمر جائز أيضاً.

وبيّن منهجه في استخدام السنة الضعيفة عندما كان واعظاً، فقال: «كنت أجتهد بتأسيس المعاني على دعائم من الأحكام الصحيحة والتوجيهات الصائبة، ثم أضع هذه الأحاديث -يقصد الضعيفة- مواضعها التي تجمل فيها، ولا تجمل في غيرها البتة.

ثم يقرر أن هذه الأحاديث الضعيفة يشترط لقبولها في حقل الوعظ والإرشاد، إذا لم تعارض القرآن والسنة الصحيحة، أو قواعد الدين ومبادئه العامة.

ومن هنا فإنه لما لاحظ في واقع الوعاظ إساءة في استخدام الأحاديث الضعيفة دون التفات للقيود التي ذكرها، وما يترتب على هذا الاستخدام من آثار سلبية في دنيا المسلمين وواقعهم، دعا إلى إغلاق باب الأخذ بها، وقال: «من الخير إغلاق باب الأخذ بالأحاديث الضعيفة أمام هذا العوج وهجرها جملة وتفصيلاً»

الإجماع:

تحدث الشيخ الغزالي -رحمه الله- عن الإجماع باعتباره مصدراً من مصادر الأحكام، في مواطن متعددة من كتبه. وكان له توجّه خاص في كيفية الاعتداد به، وقد عرفه في كتابه «هذا ديننا» بأنه:

«أن تَرِدَ حقيقة معينة، يُجيز العقْل المجرد عِدَّةَ صورٍ لها، أو أفهام فيها، ثم يتفق المسلمون على قول واحد، وعمل واحد فيها».

والإجماع ليس اتفاق الناس على عرف، أو فكرة ما، فهذا النوع من الاتفاق لايهم بقاؤه أو فناؤه؛ ما دام مبتوت الصلة بمعالم الدين. إذاً فالإجماع المعتبر هو ما توجه لمعرفة الحقائق الشرعية، والحقائق الشرعية التي ثبتت بالإجماع؛ إما أن تكون ثابتة بأدلة نصية قطيعة، أو ظنية: فما ثبت بالقطعي فالإجماع مؤكد له، لا يفيد فائدة جديدة، إلا مزيداً من احترامه وتقديره. وما ثبت بالأدلة الظنية؛ فالإجماع يؤكده، وفائدته أنه ينقل الظني إلى قطعي، فلا تجوز مخالفته، وكل شغب عليه، أو محاولة الزيادة عليه، أو النقص منه فتنة كبيرة، وشر مستطير، ومثل هذا الإجماع أدعى إلى وحدة الأمة. وإما أن تكون ثابتة بالاجتهاد؛ أي اجتهاد أهل الذكر، وملاحظاً فيها مصالح الأمة، فهذا له اعتبار في زمانه، ويمكن مخالفته، وإلغاؤه في زمن آخر، إذا حدث ما يستوجب إعادة النظر فيه.

منهجه في الاجتهاد:

يعرّف الشيخ الغزالي الاجتهاد بأنه: إرجاع الأمور التي لا تتناهى، والتي لا تنضبط، لكثرتها وتغيرها، والتي لم يرد بها نص إلى ما تعلمنا من مبادئ الشريعة ومناهجها.

وهذا يسمى عنده اجتهاداً أو قياساً بالمعنى العام. وهو من أصول التشريع، ومن أدلة الإسلام في تعرف الأحكام، والأمة مطالبة به فيما تفد به العصور من أحداث، وهو لا يكون إلا من أهله، وقد يكون فردياً، وقد يكون جماعياً.

وللشيخ –رحمه الله– في ذلك توجهات، لا يتسع المقام لبسطها هنا، غير أنه يدعو إلى توجيه الاجتهاد اليوم نحو ما ينفع الأمة؛ كالفقه السياسي، والاقتصادي، والإداري، والتربوي.

ويدعو إلى وقف الاجتهاد في مجال العبادات، وحصره فقط في باب الانتقاء والترجيح من أقوال السابقين؛ لأنها مستوعبة، ولأن العبادات غير متجددة أصلاً.

رحم الله الشيخ محمد الغزالي، رحمة واسعة.

وصلى الله وسلم على نبيّنا محمد وآله وصحبه وسلم، والحمد لله ربّ العالمين.

الهوامش

١. القَرَضَاوي، الشيخ الغزالي كما عرفته ص١٥١.
٢. المرجع نفسه ص١٥١.
٣. الأنبياء ٧٧/٧٨.
٤. حقوق الانسان بين تعاليم الإسلام وإعلان الأمم المتحدة، ص ٣٢.
٥. هذا ديننا ص–٧٢.
٦. الإسلام والطاقات المعطلة، ص ٧٣.
٧. المرجع نفسه، ص ٧٤.
٨. المرجع نفسه، ص ٧٤.
٩. المرجع نفسه ص٧٥.
١٠. القَرَضَاوي، الشيخ الغزالي كما عرفته، ص١٧٤.
١١. القَرَضَاوي، الشيخ الغزالي كما عرفته، ص١٧٤.
١٢. دستور الوحدة الثقافية ص٧٩.
١٣. السنة النبوية بين أهل الفقه وأهل الحديث، ص٢٤.
١٤. دستور الوحدة ص٨٤.
١٥. المرجع نفسه ٨٥–٨٦ القَرَضَاوي، الشيخ الغزالي، ص ١٧٥. وأنظر سلمان بن فهد العودة، حوار هادئ مع محمد الغزالي ص٣١.
١٦. دستور الوحدة الثقافية ص٧٨–٧٩.
١٧. دستور الوحدة الثقافية ص٧٩ وما بعدها.
١٨. القَرَضَاوي/ الشيخ الغزالي كما عرفته ص١٧٧، دستور الوحدة الثقافية ص٨٤–٨٥.
١٩. مشكلات في طريق الحياة الإسلامية ص١٢٣.
٢٠. المرجع نفسه، ص ١٢٣.
٢١. المرجع نفسه، ص ١٢٣.
٢٢. المرجع نفسه ص١٢٤.

٢٣. الشيخ الغزالي كما عرفته، ص ١٧٤.
٢٤. سلمان العودة مرجع سابق، ص ٢٤.
٢٥. الأنعام: ١٤٥.
٢٦. أنظر سلمان بن فهد العودة في كتابه حوار هاديء مع محمد الغزالي، ص ٢٣.
٢٧. سلمان العودة مرجع سابق، ص ٢٥.
٢٨. القَرَضَاوي، الشيخ الغزالي ١٦٩، السنة بين أهل الفقه وأهل الحديث، ص ٢٤-٢٥.
٢٩. هذا ديننا، ص ١٦٦.
٣٠. السنة بين أهل الفقه وأهل الحديث،، ص ١٨.
٣١. السنة بين أهل الفقه وأهل الحديث، ص ١٩.
٣٢. هذا ديننا ١٦٧، الاسلام والطاقات المعطلة، ص ٢٧.
٣٣. المرجع نفسه، ص١٦٨.
٣٤. المرجع نفسه، ص١٧٠
٣٥. القَرَضَاوي؛ الشيخ الغزالي كما عرفته، ص ١٧١.
٣٦. دستور الوحدة الثقافية، ص٣٣-٣٤.
٣٧. القَرَضَاوي؛ مرجع سابق، ص ١٧١-١٧٣.
٣٨. المرجع نفسه، ١٧٧.
٣٩. المرجع نفسه، ١٧٩-١٨١.
٤٠. الغزالي، السنة بين أهل الفقه وأهل الحديث، ص٤٣-٥٤.
٤١. الغزالي، كيف نفهم الإسلام، ص٢٠٣-٢٠٤.

مناقشات الجلسة الثالثة

تعقيب الدكتور عبدالله زيد الكيلاني:

بسم الله الرحمن الرحيم، أشكر لأسرة المعهد وفاءها لعالم فذّ يستحق من الأمة هذا التقدير، ولي عتب على المعهد، فقد طلب إليّ كتابة بحث وفوجئت بانقلابه إلى تعقيب، وفرق بين الاثنين. وإننا إذ نحتفي بالغزالي وفكره الحضاري، فأول ما نراعيه قوله تعالى: ﴿والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون﴾ وأذكر قول ابن حزم: «استبقاك من عاتبك».

لي ملاحظات منها:

الملاحظة الأولى: يؤمن الغزالي أن الفقه الإسلامي هو أغنى كنوز الحضارة الإسلامية، لقدرته على البقاء في ماليزيا وبلاد العجم، رغم ضعف اللغة العربية، واستطاع الفقهُ وصْلَنا بإخواننا العجم، في حين عجزت مكونات الثقافة الأخرى عن ذلك.

الملاحظة الثانية: وهي على منهجه في الفقه؛ إذ يدعو الغزالي إلى مراعاة الاختصاص، فنترك الفقه للفقيه، ويشتغل الطبيب والمهندس بعلمه، لأن اشتغال غير المتخصصين بالفقه يُنشئ فقهاً مبتوراً عن المقاصد، مبتسراً، فضلا عما فيه من إهدار للكفاءات العلمية بوضعها في المكان غير المناسب.

ويؤكد صحة نظر الغزالي ما ذكره الأستاذ فهمي هويدي من أن معظم قيادات الحركات الإسلامية التي تتبنى نهجاً عنيفاً ضد السلطة هم من خارج المدرسة الشرعية المختصة، وهؤلاء لم يتهيأ لهم دراسة الفقه السياسي دراسة متخصصة، تمكنهم من الاقتناع بأن الإصلاح السياسي يتم عبر ترسيخ دولة القانون والمؤسسات، وترسيخ سلطة القضاء، وكل هذا يتم بالجهاد التشريعي، وليس بالعنف المسلّح؛ ألا ترى إلى يوسف عليه السلام كيف طالب أن يُصلح وأن يتولى خزائن الأرض. أقول وقد لاحظ الأزهر هذه

الثغرة، فحاول سدّها بالمطالبة بتدريس المبادئ الشرعية لكافة التخصصات؛ لأن العلم أنجع وسائل مقاومة الجهل، ففوجئ برفض التوجه بشكل رسمي، مما يثير تساؤلاً، هل الخوف من الإسلام المتطرف أم الإسلام المعتدل هو الأرسخ قدماً والأشد أثراً؟

الملاحظة الثالثة: وهي خطيرة: كيف نتعامل مع المجتمع الغربي؟ ما هوموقف الفقه من الإسلام خارج دياره؟ يرى الشيخ الغزالي أن يُركّز على قضايا التوحيد وطهارة البدن، أما المعاملات الشريعة في الأطعمة، فيمكن أن نتبنى من المذاهب ما يناسب البيئة، مثل أن يؤخذ برأي الحنفية في انعقاد النكاح بطهارة النساء، وأنا أؤيد الشيخ في منهجه هذا، وأخالفه في التطبيق وخصوصاً عندما يقول إنه لا يرى مانعاً من الإفتاء برأي الحنفية في الخمر والمشروبات الكحولية؛ لأن هذا الرأي يمكن أن يزيد عدد الأتباع في فرنسا مثلاً، والغزالي نفسه يردّعلى رأيه هذا؛ إذ يقول في دستور الوحدة الثقافية: «وكلام الحنفية هذا يرفضه العقل والنقل، فليس بين رب السماء وعصير العنب خصومة خاصة». إنني أستغرب على أستاذنا الكبير أن يتبنى مثل هذه الفُتية العجيبة، وهو صاحب الدعوة إلى إحياء الفقه الحضاري وإلى يقظة العقل، وإنني إذ أحرص على كسب أنصار في المجتمع الأوروبي، فإنني أريدهم أيقاظاً، لا مخمورين سكارى، ليس المهم فُتيا تناسب البيئة، إنما تحقق مقاصد الشريعة أيضاً.

ملاحظة أخيرة: وهي إغفال المسلمين للفقه الحضاري، والفقه الحضاري كما يراه الغزالي فقه الأسرار الكونية، وروّاده ابن الهيثم والخوارزمي، وإن التقصير في دراسة الفقه الحضاري انعكس على فقه الأحكام الشرعية، بحيث عجزنا أو قصّرنا في دراسة الفقه الدستوري، وبدأنا نفتي فتاوى عجيبة، فكيف يسوغ إذاً أن نكذّب العلم في ميلاد الهلال، أخذاً بشهادة فرد، وكل هذا في رأي الغزالي من انعكاس التقصير في دراسة الفقه الحضاري، ممّا أرشد إليه القرآن وهو قسيم الفقه الشرعي. وأكتفي بهذا، وشكراً.

تعقيب د. فهمي جدعان على المداخلات والأسئلة الموجهة إليه.

س١: هل يمثّل الغزالي بفكره التجديدي مشروعاً تاريخانياً، وهل استطاع فعلاً أن يكون هاجسه الفكري برنامجياً كالذي نعهده في الفكر الواقعي للفلسفة الغربية.

لدينا مصطلحان: تاريخاني، برنامجي، ولم أصادف هذا المصلح -الثاني-، لكنني أستطيع أن أحسّ بالمعنى، أمّا أن يكون فكر الشيخ التجديدي تاريخانياً فذلك بمعنى محدد، أعني أن يكون فكره مرتبطاً بالعصر، مرتبطاً بالمرحلة التاريخية القائمة، لا أن يُفهم من التاريخانية هذه إحداث قطيعة مع التاريخ السالف. التاريخانية في بداياتها مع كروتشي تلتمس البدء من اللحظة الراهنة، وربط الفاعلية بالزمن الراهن، بطبيعة الحال من هذه الزاوية الشيخ الغزالي نشاطه مرتبط بالوقائع المباشرة، وبالمعطيات التاريخية المباشرة. أما أن يكون هاجسه الفكري برنامجياً، بمعنى أن يكون هناك برنامج محدد منظم، منظومة قاطعة فلا أعتقد أن الشيخ الغزالي فكّر في هذا. الإسلام بالنسبة إليه -فيما يبدو لي- عبارة عن محيط عقلي ووجداني وفقهي وروحي واسع، يمكن أن يتحرك فيه الإنسان برحابة كبيرة، وليس بأطر جامدة ثابتة نهائياً. طبعاً هناك ثوابت متصلة بالنص، لكن ليس هذا هو المقصود.

س٢: ماذا تعني بقولك أن الشيخ الغزالي معاصر بإطلاق قلباً وقالباً، هل يعني ذلك أنه أقام مزاوجة وموازنة دقيقة بين العقل والوحي وقضايا العصر، وإن كان الأمر كذلك، فما هي حدود آليات هذه المعادلة المتوازنة في نظر الشيخ الغزالي -رحمه الله.

الإجابة: قصدت بهذه الكلمة أن الشيخ كان مرتبطاً ارتباطاً عضوياً مباشراً حياً يومياً بجميع قضايا العصر جميعاً؛ أي أنه منهمك بالعصر ومنخرط بالعصر تماماً، هذا معنى أنه معاصر، فهو لا ينطبق عليه ما يطلقه العلمانيون أو التغريبيون على جميع عناصر التيار السلفي أو الاتّباعي بأنهم ماضويون، فهو لم يكن ماضوياً، لأنه كان ملتحماً بالواقع المباشر والقضايا المباشرة. كلنا يعلم أن اهتماماته الأولى كانت اقتصادية، مرتبطة بالقضايا التي أسماها الاشتراكيون والماركسيون: قضايا الصراع الطبقي؛ من فقر وجوع. الغزالي

إنسان مرتبط بالعصر، وهذا ينسحب على كل القضايا الأخرى التي عالجها بإطار مرجعي هو الإسلام، ولكن بعقل اجتهادي منفتح ومستنير. أما الحدود والمعالم والآليات، فقد أشرت إلى ثلاثة قطاعات تحدّد مجال النشاط الغزالي: وقطاع الكون، الأمور الإنسانية الصنعيّة، والأحكام. هناك ضرب من توزيع المهام والنشاط أكثر من إدخال فكرة العلاقة المتوازنة، وهي فكرة غامضة إلى حد كبير أو يتعذر تحديدها. لكن هناك قطاعات يتضح تماماً —من خلال النظر إلى أعماله— بأنه يتوجه إليها الإنسان وتحكم وجودنا الزمني على الأرض، وهي عنده واضحة متوازنة بكل تأكيد، أي تعطي كلاً منها حقها، فالعقل له حقه، للوحي حقه، وللعلم حقه، وللعاطفة الوجدانية حقها.

س٣: لقد قال الشيخ الغزالي إنّه لا فرق بين الرافضة وبين أهل السنة في الأصول والفروع. أدع موضوع الفروع للدكتور علي الصوا وأمّا الأصول: فلا أعتقد أن هناك فرقاً بين الشيعة وأهل السنة، إن قُصد بالرافضة الشيعة هنا، فيما عدا أصل واحد هو أصل الإمامة، فلا يعتقد أهل السنة بأن القول بأصل الإمامة، يُخرج من دائرة الإيمان من يضعّفه أو يرفضه، فهو ليس أصلاً كالإيمان بالله والرسالات وغيره من الأصول، التي من رفضها خرج من دين الإسلام. بالنسبة للشيعة فالإمامة أصل من أصول ا لدين، من تركه فقد ترك الدين. لا أدري إن كان الشيخ الغزالي قد تنبّه لهذه النقطة، ولكن لا أعتقد أن هناك فروقاً حقيقية في الأصول بين الطرفين.

تعقيب د. علي الصوا على المداخلات والأسئلة الموجهة إليه.

س١ : هل نستطيع القول إن الشيخ الغزالي كان توفيقياً انتقائياً، في تعامله مع كل من مدرسة الرأي ومدرسة النص، وإن كان الأمر كذلك فهل هذا من أسباب سعة انتشار فكره في العالم الإسلامي.

الإجابة: يرى الشيخ أن مدرسة الرأي ليست بعيدة عن الأثر، وأن مدرسة النص ليست بعيدة عن الرأي، فكلا المدرستين جانب من المدرسة الأخرى، وحتى إن كان انتقائياً ولا نقول توفيقياً —فهو لم يبحث عن التوفيق بين الآراء.

س٢: ما موقف الإمام الغزالي من ابن تيمية لا سيّما عقيدة ابن تيمية، وما نظرته إلى التصوف.

الإجابة: يرى الشيخ الغزالي –رحمه الله– في كتبه أن من أسباب ضعف الحركة الفقهية بصفة عامة انفصال القيادة السياسية عن القيادة الفكرية والفقهية، والانفصال بين الفقه الذي يحكم الظاهر والفقه الذي يحكم الباطن.، الذي عبر عنه علم بالتربية وعلم التصوف أو نحو ذلك، لذلك هو يدعو إلى إعادة اللحمة بين القيادتين حتى يتحرك الفقه، لأن الفقه بحاجة إلى تفعيل، والتفعيل يحتاج إلى سلطان، وكذلك بالنسبة لفقه الظاهر، أو الذي يحكم ظاهر الإنسان بحاجة إلى وازع داخلي؛ بالأمر الذي يدفعه إلى تنفيذه حسبة لله تعالى وقربة له. وهذا هو الذي يجمع بين الأمرين ويميزه عن القوانين المجردة التي لا ترى لله سلطاناً على ظاهرها أو باطنها.

س٣: هل هناك فقه واضح للشيخ في الإصلاح السياسي؟

الجواب: نعم، ولعل كتباً معينة حول الاستبداد السياسي ونحو ذلك، قد تحدثت عن مبادئ معينة. ولكن أحب أن أبين أن للشيخ منهجه. الإسلام لم يطارح أحكاماً محددة في قضايا سياسية؛ كيف يُختار الحاكم وطرق الشورى ...الخ، هذه مسائل تركها للناس، فالناس يمكن أن يبتكروا أو يقلّدوا منهجاً معيناً يمكن أن نقتبس طريقة الأمريكان في اختيار ممثلي الأمة كطريقة، يمكن أن نختار ذلك؛ لأنه ليس للإسلام صورة معيّنة يجب اتباعها، بحيث لا تجوز مخالفتها، لكنه هو يتحدث عن مبادئ رئيسية، الشورى مبدأ لكن لا يمكن التنازل عنه، الظلم والاستبداد السياسي مسألة يجب أن نقاومها بكل قوة وشجاعة، وعلى مختلف المستويات.

جلسة العمل الرابعة

رئيس الجلسة: الأستاذ الدكتور اسحق أحمد فرحان.

١. الورقة الأولى: السيرة الشخصية للشيخ محمد الغزالي.

الدكتور علاء محمد الغزالي

٢. الورقة الثانية: الغزالي رجل الدعوة.

الأستاذ الدكتور يوسف القرضاوي



الجلسة الرابعة: رئيس الجلسة أ.د. اسحق فرحان، وعن يمينه الأستاذ الدكتور يوسف القرَضَاوي وعن شماله د. علاء محمد الغزالي



جانب من الحضور

السيرة الشخصية للشيخ محمد الغزالي

الدكتور علاء محمد الغزالي

محاضر في أكاديمية السادات للعلوم الإدارية

لم يكن الشيخ أحمد السقا -التاجر البسيط- في قرية نكلا العنب/ محافظة البحيرة يظن يوماً أنه سينجب عملاقاً يجوب البلاد الإسلامية ليبلغ كلمة الله. فقد رأى التاجر البسيط في الرؤيا من يبشّره بغلام اسمه محمد الغزالي تحمله الأقدار. وكم فرح الرجل بتلك البشرى وعاش آملاً في تحقيقها. فقد كان رجلاً صوفياً محباً" ورسوله وآل بيته، وعاشقاً لأبي حامد الغزالي المتوفى سنة ٥٠٥ هـ. ورغم ما حل بالتاجر العابد من ذهول ودهشة لهذه الرؤيا، إلا أنه بقي على أمل أن يهب هذا الغلام"" تيمناً بقصة امرأة عمران - ولما أن جاءته البشرى- صدّق الرؤيا، وأطلق عليه اسم (محمد الغزالي) ليكون اسمه بالكامل (محمد الغزالي أحمد السقا).

وعلى الفور بدأ بتنفيذ عهده مع الله وأدخل محمد الغزالي كُتّاب القرية ليحفظ القرآن الكريم تمهيداً للالتحاق بالأزهر الشريف. وبالفعل منّ الله عليه بحفظ القرآن حفظاً جيداً أتمه -رضي الله عنه- في العاشرة من عمره.

ويحكي الإمام محمد الغزالي عن نفسه وقتئذ فيقول: «كنت أتدرب على إجادة الحفظ بالتلاوة في غدوّي ورواحي وأختم القرآن في تتابع صلواتي، وأثناء سيري في الطريق وقبل نومي وفي وحدتي. وأذكر أنني ختمته أثناء اعتقالي، فقد كان القرآن مؤنساً في تلك الوحدة الموحشة».

ويذكر بعض الشهود الذين عملوا مع الشيخ أثناء عمله في وزارة الأوقاف المصرية أنه كان يذهب للعمل مبكراً ليسمع ويقرأ القرآن على يد أحد المحفظين وليتأكد -رضي الله عنه- من الحفظ الجيد، ولما بلغ السعي ذهب ليلتحق بالمعهد الديني الأزهري بالإسكندرية.

ولما كان الرزق محدوداً لوجود ستة من الأبناء، فقد سكن (محمد الغزالي) حجرة ضيقة خشنة الجدران، ينام على فراش رقيق على أرض الغرفة، ولم يكن هدفه وهو صغير سوى حفظ كلمة الله، وكان يشعر أنها أمانة فائقة، وكلما اعتراه عارض ذكّره والده بأنه لا بد وأن يحمل كلمة الله للناس.

وفي دراسته في المعهد الأزهري كان يناقش شيوخه ومعلميه بالحجة البالغة، وقد شهدوا له بالنبوغ المبكر. لم يكن الشيخ محمد الغزالي أثناء دراسته بالمعهد يرضى ظلماً على أحد من زملائه، كان المدافع عنهم والصوت المعبر عن رغباتهم والصائح الرشيد لشكواهم. فلا يلوذ بالصمت إذا ضاع حق زميل له أو تعرض لظلم ما، وقد تخرج في معهد الإسكندرية سنة ١٩٣٨ والتحق بكلية أصول الدين بجامعة الأزهر، وتخرج في الكلية عام ١٩٤١، وأكمل الدراسات العليا فحصل على العالمية مع إجازة الدعوة والإرشاد. ثم العالمية مع إجازة التدريس، وكان عمره حوالي ستاً وعشرين سنة وهو يحمل الشهادات العليا.

ولم يكتف الشيخ الجليل بالدراسات والتي بلغ منتهاها في الأزهر، بل كان يطالع بوعي ثاقب ما خطت الأقلام، ويدون خواطر وآراء ليرد عليها أو يتبناها.

أُختير عام ١٩٤٣ إماماً وخطيباً بمسجد العتبة الخضراء بالقاهرة، وكانت بداية عمله بالأوقاف تلك الوزارة التي وصل فيها لمنصب وكيل وزارة الأوقاف لشئون الدعوة الإسلامية.

وعلى المجال الدولي عمل فضيلته أستاذاً في جامعات السعودية، والأزهر، وقطر، والجزائر، ومحاضراً وأستاذاً زائراً في معظم جامعات الدول العربية والإسلامية، وجاب أقطار الدنيا ليبلغ الإسلام.

ألّف الشيخ الغزالي ما يقرب من ٥٨ مؤلفاً مطبوعة عند دور النشر المختلفة بالإضافة للأبحاث العديدة والرسائل العلمية والدراسات المتعددة، التي حفلت بها معظم المؤتمرات الإسلامية والعربية. بالإضافة لبعض التحقيقات لكتب التراث الإسلام. ولا نغفل عدداً من

رسائل الماجستير والدكتوراة التي أشرف عليها وناقشها، وبعض الآراء التي رد عليها برسائل علمية راشدة. وقبيل وفاته بأيام كان يعد منهاجاً تصورياً للتعليم في الأزهر الشريف، يواكب حركة التطور والتقدم الزاحف في العالم أجمع. أما المقالات الإسلامية بأنواعها فقد امتلأت بها الصحف والمجلات المصرية والعربية على السواء. فلم يدع حادثة ألّمت بالمسلمين إلا وأشار إليها وبيّن موقف الإسلام منها، وكثيراً ما كانت هذه المقالات تثير الغضب عند البعض لأنها كانت تنطق بالحق، والتي يقول عنها الإمام محمد الغزالي –رحمه الله–: «..وددت لو فرّغت خواطري ومشاعري أولاً بأول، حتى ألقى الله ولست كاتماً لِعِلْمٍ أو حابساً لنصيحة..».

ولمكانته العلمية الفكرية العالية كرمته كثير من الدول العربية والإسلامية، فقد حصل على جائزة الدولة التقديرية من جمهورية مصر العربية. كما حصل على جائزة الملك فيصل في مجال خدمة الإسلام، وعلى أرفع وسام في موريتانيا، وأرفع وسام في الجزائر بالإضافة لكثير من الجوائز التقديرية، كما كرّمته السعودية، وقطر، والسودان.

وفي نهاية ١٩٩٠ حصل على جائزة دولية من باكستان تقديراً لجهوده في الدعوة الإسلامية. ومؤخراً منحته ماليزيا وسامها الأول عام ١٩٩٦، بالإضافة لكثير من جوائز الدول التقديرية ونياشينها.

ومما يذكر أن الإمام الكبير لم تزده كل هذه الأوسمة إلا تواضعاً وذلاً" وحده، فعندما تسلم جائزة الملك فيصل العالمية لخدمة الإسلام ردد قوله تعالى: ﴿رب بما أنعمت عليّ فلن أكون ظهيراً للمجرمين﴾ (القصص: ٢٨).

وقد ترجمت كثير من كتب الإمام محمد الغزالي إلى الإنجليزية والفرنسية والأوردية وغيرها، وتميّزت هذه الكتب بأنها محاضر دفاع عالية المستوى عن الإسلام ضد خصومه والمفترين عليه.وقد أُلّفت في جامعة (هارفاد) الأمريكية رسالة علمية عن نشاط الدعوة الإسلامية في العصر الحديث، ورأى الباحث أن مؤلفات الشيخ الغزالي تمثل وحدها جانباً فكرياً متميزاً، يتسم بالحوار المقنع والميل إلى استعراض وجهات النظر ومناقشتها في تؤدة وهدوء، مع البعد عن التحريف والقسوة في ملاقاة الجهات المعارضة.

كما مثلت مناظرات الإمام محمد الغزالي زاداً علمياً رائعاً كان خير مدافع فيها عن الإسلام بحماس، ويجعل الإسلام نفسه التي بين جنبيه فيدافع حتى نهايته، وفي ذلك يذكر الشيخ المجاهد: أني أكره أن يكون الإسلام هو (الهفية) التي يريد طعنه كل وضيع ليعلو، ولن أسكت إذا مس الإسلام بلمز أو همز والساحة تتسع للرد على هؤلاء، لأن جنودنا في رباط إلى يوم الدين.

وللشيخ الإمام جهد كبير، استغله في خدمة الإسلام وحده، ووهب وقته وعمره" لا يشرك به شيئاً آخر، فلم يكن يمر على الشيخ الإمام يوماً هباء إلا وقلمه يكتب، أو يرد على فتاوى الناس الذين يجتمعون حول منزله يتساءلون عن حل لقضاياهم، ولم يكن يدخر جهداً ويخشى أن تدركه المنية مقصراً.

ويذكر الأستاذ محمد شلبي: «قليل من الناس يعرف أن الداعية الكبير قد يخرج من عمله في عصر الخميس فإذا هو في العشاء (بالمنيا) يحاضر الناس، وإذا هو في صلاة (الجمعة) يخطب وهو في (منفلوط)، فإذا هو في العصر يحاضر (بأسيوط) وبعد العشاء يحاضر (بسوهاج) ثم يعود أدراجه، فإذا هو في الصباح الباكر في عمله (بالقاهرة) قبل إخوانه الموظفين، ومع ذلك فقد كانت مراحل العمل في فكره واضحة كل الوضوح.

وقد يجعل اليوم كاملاً للمقابلات الخاصة بالدعاة ورجال الدين في الأزهر والأوقاف، يوجههم لبعض النواقص والقصور في أساليب الدعوة ويبصرهم بما يدبر للإسلام في الخفاء، وكان أكثر رواده من العلماء د. محمد سيد طنطاوي شيخ الأزهر، وأساتذة كليات أصول الدين والدعوة واللغة العربية، ووزراء أوقاف الدولة الإسلامية والعربية ورجال الدعوة في العالم الإسلامي أجمع.

أساتذة الشيخ الغزالي:

يقول الإمام الغزالي: تأثرت بالشيخ عبدالعظيم الزرقاني المدرس بكلية أصول الدين وهو مؤلف مناهل العرفان في علوم القرآن. وتأثر كذلك بالشيخ إبراهيم الغرباوي، والشيخ

عبدالعزيز بلال، وقد كانا يشتغلان بالتربية النفسية وصلتهما بالله عامرة، وكانا دائما التحذير من الزهو بالألقاب العلمية، لأن بها طنيناً ربما يذهب معه الإخلاص المنشود. كذلك الشيخ الأكبر محمود شلتوت شيخ الأزهر الأسبق فله قدم راسخ في علوم التفسير والفقه وأسلوبه يدل على وعي وتفقه.

أما الإمام الذي تأثر به الشيخ الغزالي أكثره من غيره فهو الإمام الشيخ حسن البنا، فقد كان مدرسة وحده فكراً وفقهاً ودراية بالواقع الإسلامي في مراحله الراهنة، وأسلوبه وإعماق بصيرته في الأحداث المعاصرة جعلته في طليعة العلماء في العصر الحديث.

يقول الإمام محمد الغزالي: «تعلمت من حسن البنا الإنصاف للغير مهما خالف في الرأي، نعم: عندما أخالف أحداً في حكم ما، فلا يجوز أن أهمل ما لديه من صواب كثير، ومواهب قد أفاءها الله عليه.

إن الذي أقلق حسن البنا حقاً: أصحاب الأهواء الجامحة والمعارف الضحلة عندما يستبد بهم جنون العظمة، ويريدون فرض قماءتهم على الناس باسم الدين..».

ويذكر الشيخ الغزالي أستاذه الشيخ العناني بالخير ولا ينسى آراء الإمام محمد أبي زهرة، فقد وصفه الغزالي بالجرأة وعمق البصيرة والفقه الراسخ.

من مواقف الإمام محمد الغزالي:

حينما انعقد المؤتمر الوطني للقوى الشعبية في مايو ١٩٦٢ كان المؤتمر يضم مجموعة كبيرة من أبناء الأمة المصرية، فقد تجمعت فيه كل الطوائف وفئات الدولة. يروي فضيلة الإمام محمد الغزالي عن تلك الفترة فيقول:

«... كان من قدر الله تعالى أن أتاح لي فرصة كي أبسط وجهة النظر الإسلامية بأمانة وأدب. وأن أعرض آمال الجماهير في العيش تحت لواء الإسلام شكلاً وموضوعاً، وفي مناخ يمكن للتربية الدينية أن تصوغ الأجيال الناشئة وتوجهها. كما يمكن أن تحل الشريعة الإسلامية وتصبغ القوانين والإدارة وسائر الحياة والتقاليد.

وقد أطلتُ التفكير في هذا العبء الملقى عليّ، غير أن ما خامر نفسي من اعتماد على الله وثقة في عطفه، يسر الأداء ومهد القبول.

والذي أبغي إثباته هنا أن الكثرة العظمى لم تر فيما قلت إلا ترجمة ما تنطوي عليه سرائرها. فهي لم تؤيدني فحسب، بل قامت بحق الوفاء لدينها عندما عدّت واعتبرت ما قلت، فكرتها ووجهتها، وصورة نفسها وأملها، لكن العودة إلى الإسلام في ميدان التشريع والتربية لا يمكن أن تنتهي بهذه السهولة.

لقد كنت أتوقع معارضين يضيقون ذرعاً بنا، وأعددت العدة لمناقشات مرة يستبين فيها الصواب وتتبدد فيها غيوم الريبة وما كان أسعدني بذلك لو وقع.

وصدق حِسُّ الغزالي ... إذ شن الشيوعيون والعلمانيون عليه حرباً شعواء، واشتدت الوطأة عليه، في الوقت الذي صمد بصلابة ليبلغ الرؤى الإسلامية للحياة العامة في وسط غابة من المتربصين.

وفي ٢١ مايو ١٩٦٢ خطب الرئيس المصري خطاباً أمام المؤتمر الوطني للقوى الشعبية فتعرض لقضية مساواة المرأة بالرجل في كل الأمور، فقام الشيخ الغزالي وهو عضو في المؤتمر ليعرض وجهة النظر الإسلامية، فطالب بالتزام شرع الله فيما يخص المرأة والرجل، وطالب بتخفيف العبء على المرأة والحد من الأمور التي تخرجها عن طبيعتها الأنثوية، وكانت العاصفة، فصبت جريدة الأهرام جام غضبها على الشيخ الجليل، واتهموه بالرجعية، وتطاول رسام الكاريكاتير الشيوعي صلاح چاهين برسومات وزجل يلمز فيها الإمام، فقامت عقبها مظاهرات ضارية ضد المتطاولين على الشيخ.

ويروي الشيخ حسين حسن الطويل: أحد علماء الأزهر ومن تلاميذ الشيخ الإمام «.. أن الشيخ الجليل خطب الجمعة حول موضوع ﴿إن الذين أجرموا كانوا من الذين آمنوا يضحكون﴾ وتناول كيفية أدب المعارضة والاختلاف، كانت الخطبة قمة البلاغة والموضوعية، وعقبها خرج الأزهر كله في مظاهرة شعبية كبيرة متوجهة نحو مبنى جريدة الأهرام». وادعت الصحيفة أن الشيخ قد حرّض الجماهير العريضة لمظاهرة عارمة.

ولكنه -رحمه الله- ذهب للأهرام وقابل الأستاذ محمد حسنين هيكل، وكان الصحافي الكبير قد أبدى كل ترحيب واحترام للشيخ الغزالي، وقال: إن السيد كمال الدين حسين قد أصدر ما يفيد بمنع التعرض لقضايا في المؤتمر يصطدم بها مع الدين، وأحضر السيد محمد حسنين هيكل رسام الكاريكاتير صلاح جاهين صاحب حملة التشهير ضد الغزالي ودار بينهم جميعاً حوار انتهى باعتذارهيكل للشيخ الإمام، أما صلاح جاهين فأعلن أنه سيحارب الدولة لو كان شعارها ودينها الإسلام، لقد كانت مرحلة الستينيات أشد مراحل العصر تنكيلاً بالإسلاميين وأحلكها ظلاماً، إذ كان صوت الإسلام خافتاً غريباً.

ذكر الدكتور القَرَضَاوي في كتابه القيم: «الشيخ الغزالي كما عرفته رحلة نصف قرن»: أن المعتقل قد ضم كل العاملين للإسلام في فترة صعبة من تاريخ مصر فترة الستينات وكان الصوت الصاعد وقتها يلقى حتفه، في هذا التوقيت المدلهم لم يصدع إلا صوت الشيخ الغزلي وما أشبه الحال بأذان يبلغه الله الأسماع، ويكاد يكون صوته -رحمه الله- هو الصوت الأوحد الذي يجأر بالدعوة إلى الله. وكان هو الشمعة الهادية في تلك الفترة الحالكة.

لقد أجمع العلماء المخلصون على أن الشيخ الكبيركان المبلغ الوحيد عن ربه، ونحسبه قد بلغ الأمانة التي حملها ضميره اليقظ وقلبه الواعي.

حرب رمضان أكتوبر ١٩٧٣:

ورث العرب كارثة هزيمة ١٩٦٧ م التي حلت بهم وأصيبت الأمة باليأس وانقطاع الرجاء. كان الأمر يحتاج لحركة إصلاح نفسي وترسيخ دعائم الجهاد في نفوس الناس اليائسة.

فاشترك الشيخ الكبيرمع المجاهد الشيخ حافظ سلامة وكونا معاً فريق عمل في الدعوة، يجوب أرجاء المعمورة ليلتقي بالجنود يثبت الهمم ويزرع الإيمان في النفوس الهابطة، وصال وجال يحرض المؤمنين على القتال.

يروي الإمام عن تلك الأيام في كتاب هموم داعية فيقول:

«... بقينا سنين لا نسأم من التحشد وتصعيد الروح المعنوية، وبين الحين والحين كنت أذهب مع بعض الأخوة لنرى اليهود قابعين على الضفة الشرقية، فتسري الكآبة في فؤادي وأتراجع مخترقاً الدور المهدمة -وما أكثرها- وأقول في نفسي: لو كان هذا التخريب أثر مقاومة شريفة في ١٩٦٧ من بيت إلى بيت ما حزنت، ولكنه عمل قادة صغار ضاعت عقولهم من فرط الإدمان، وضاعت أخلاقهم من فرط التهارش والأثرة».

كان الشيخ لا يفتأ يذهب للخنادق ليلاً ونهاراً ليقابل جنوداً متعطشين، فيذكر «...ثم خرجت من تحت الأرض ومشاعري تغلي، وكان الجنود الذين يصحبونني يحسبون أني أضع قدمي حيث لا أدري، وأني أتعثر في ليل ليس فيه بصيص نور وصحراء متماوجة الكثبان. وبلغتُ السيارة وعدت إلى القاهرة تاركاً خلفي أرضاً ملآى برجال نفذ صبرهم يريدون إنهاء هذه الحال بأي ثمن..».

وبعد فترات في شحذ الهمم قضاها الإمام بين المقاتلين، استدعاه ملك المغرب لإلقاء محاضرات ودروس دينية في القصر الملكي، وكان بصحبته الشيخ الكبير حسنين مخلوف، مفتي مصر الأسبق. وهما في المغرب قامت حرب العاشر من رمضان، واستشعر الشيخ من وكالات الأنباء حجم النصر، وتعرف على صيحات التكبير والتهليل والتمسك بعناصر الإيمان والتحلي به، ويشم الإمام الجليل حقد الغرب الحاقد على النصر، ويذكر أبواق الإذاعات الأجنبية وهي تقول لقد عادت همجية العرب الظاهرة في التكبير أثناء القتال.

ولا ينسى الشيخ أن يسجل حزنه البالغ حين تمت مؤامرة وقف إطلاق النار بعد أن كان المسلمون قاب قوس أو أدنى من وأد الجيش الذي لا يُقهر.

ويذكر الإمام الكبير أن الشيخ مخلوف بكى قائلاً: هدنة مرة ثانية!!.

ويسجل الشيخ أن عناصر النصر المبين كانت متّقدة في الشعب العربي المسلم ولا ينقصه الإيمان بقضيته. وكان على الدعاة أن يبصّروا الشعوب بما تحيكه لهم مؤامرات الظلام.

قصة قانون (الاحوال الشخصية):

في منتصف السبعينات بدأت معالم تخطيط محو عناصر الشريعة الإسلامية وبدأ تغيير قانون الأحوال الشخصية. لم يقبل الرجال الأحرار هذا العبث وعلى رأسهم الشيخ الجليل، وبدأ يحارب ويجابه ضد هذا القانون المشبوه بمقالات وخطب رنانة دوّت في أنحاء المعمورة.

يروي الدكتور عبدالرحمن العدوي «... أن الشيخ الغزالي ألقى محاضرة في السبعينات بجامعة الأزهر في نهاية موسمها الثقافي، وكان عنوانها مناقشة قضية قانون الأحوال الشخصية ومدى شرعية تغيير تلك القوانين خدمة للأهواء الشخصية، وكان من الحضور د. زكريا البري وزير الأوقاف الأسبق الذي أعلن تنصله من تلك الجريمة!!. واكتفى الإمام الغزالي بذلك منه، ثم بدأت كلمته – رحمه الله– فألهب الحضور منطِقُهُ وحجَّتُهُ وقامت الدنيا ولم تقعد..». وعلى منبر أول مساجد أفريقيا –مسجد عمروبن العاص– وأمام ثلاثين ألفاً من المصلين، ندد الشيخ الغزالي بهذا العبث وحذر من الاستمرار فيه.

ويبدو أنه تجمع الناس حول الإمام الكبير واعتداد الأزهر به (علماء وطلاب) أغضب البعض. لذا حرموه من الخطبة في المسجد الكبير ونقلوه إدارياً لمسجد صلاح الدين (كان وقتئذ مديراً عاماً للدعوة).

ويروي الإمام بنفسه عن تلك الفترة العصيبة فيقول: «نقلت عنوة لمسجد صلاح الدين مع المنع من الخطبة، وعندما ذهبت للمسجد لم أجد مكاناً ولا حجرة يمكن أن أجلس فيها لأباشر مهام الدعوة!! ولم أجد سوى (سندرة) في حجرة خادم المسجد! افترشت أرضها وبدأت في كتابة بعض الكتب في خدمة الإسلام. وسرعان ما تركت مصر وذهبت للدعوة الإسلامية في السعودية حيث عينت رئيساً لقسم الدعوة وأصول الدين بكلية الشريعة والدراسات والإسلامية..».

وفي مصر، قامت الدنيا ولم تقعد مطالبة بعودة الغزالي الذي ترك مصر، وقام خلفاؤه ومحبوه بالتنديد بالقانون المشبوه، وفي منازلة بين الطلاب والرئيس السادات أعلن أن الشيخ في السعودية يتقاضى الكثير ولا يريد العودة!.

فرد الشيخ الكبير برسالة لجريدة الأهرام المصرية رداً على الرئيس وأخرى للسادات شخصياً، يقول فيها الإمام: «إنني أتقاضى أكثر مما قلت، ورغم ذلك أنا على استعداد لترك الراتب الأعلى للعودة لمسجد عمرو إماماً وخطيباً!. ويُسأل الشيخ الشعراوي والدكتور الذهبي -وقد كانا وزيرين للأوقاف- أنني عرضت العودة لمصر تاركاً خلفي مكاسب مادية لا قبل لكم بها. لا أكترث لها، إن الفلوس لن تهمني وأنا أطالب بالعمل في مصر، لكن لن أسكت على باطل..».

وأمام العاصفة اضطر السيد ممدوح سالم -رئيس وزراء مصر- لمقابلة الإمام الأكبر الدكتور عبدالحليم محمود قائلاً له: يا فضيلة الأستاذ إننا سنغلق ملف قانون الأحوال الشخصية هذا الآن ولن نناقشه.

فرد الشيخ الأكبر: هذا أفضل لكم وأنزه. ولما تعجب السيد ممدوح سالم من الرد، قال له الدكتور عبدالحليم محمود: حتى تحضروا شيخاً غيري ليوافق لكم على هذا القانون الذي لن يمر إلا على جثتي، كان الدكتور عبدالحليم محمود يعرف قدر الإمام محمد الغزالي ويقول: ليس لدينا إلا غزالي الأحياء والإحياء.

وأُسْدِل الستار على معركة تغيير القانون المشبوه لينتصر الشيخ الغزالي"، وتعلو كلمته، وكان لا بد لها أن تحسم لصالحه؛ إذ الله وحده من وراء القصد.

الغزالي والإسلام في الجزائر:

اعتاد فضيلة الإمام محمد الغزالي أن يذهب سنوياً في ملتقى الفكر الإسلامي بالجزائر، لكي يجدد الفكر الإسلامي ويبصره بما يدبر له من مؤامرات ومكائد تحاك ضده.

كان الشيخ يقدم كل جديد، يعرض آفات تعترض طريق الدعوة، وكان يعمل أستاذاً في إحدى جامعات قطر، حين قابله الرئيس الشاذلي بن جديد، فعرض العمل على الشيخ بالجزائر قائلاً له:إن الحركة الإسلامية قادمة في الجزائر وتحتاج لترشيد رأي، وأَعْلَمُ أن العمل في قطر أكثر مالاً، ولكن الجزائر تحتاج الإسلام الصحيح دون تشويش، وأود لو أنشأت في الجزائر جامعة إسلامية على غرار جامعة القاهرة.

واستجاب الشيخ المجاهد تاركاً العمل في قطر بعد أن خدم الدعوة فيها خمس سنوات، وبدأ رحلة دعوة جديدة في الجزائر. ويروي فضيلة الإمام «أن الجزائر كانت تموج بالفتن، ومبادئ الإسلام الصحيحة مغيبة عن عمد، واللغة العربية غير مستخدمة حتى بين البدو، كما كانت مظاهر الحضارة الأوروبية الجامحة ما زالت تهيمن، بكل ما ملكت من قوة. وبالفعل تم إنشاء جامعة الأمير عبدالقادر الجزائري، وعيّن الإمام محمد الغزالي مشرفاً عليها، ومما يُحْمَدُ للرئيس الجزائري أنه فتح المجال للدعوة الإسلامية الصحيحة، وأعطى المجال للشيخ الجليل كي يدعو" كيفما شاء. وأتاح التلفاز للشيخ الجليل ساعات كثيرة، ومواعيد أسبوعية ثابتة، يقدم فيها كلمة الإسلام جلية نقية. ويذكر البعض أن الشارع الجزائري كان يخلو من المارّة أثناء حديث الشيخ في التلفاز. وكانت محاضراته زاداً ثقافياً عَرَضَ فيه الإسلامَ بأيسر الطرق وأروع أداء، وكأن الإسلام بدأ يدخل الجزائر من جديد. ويبدو أن أعداء الإسلام لم تهدأ لهم حال، وتقرّ أعينهم إلا والعمل لوقف الزحف الإسلامي وإصابته في مقتل. كما أن هناك صنفاً من الناس يرون في كمال غيرهم نقصاناً لهم، وفي جمال من حولهم تحقيراً لهيئتهم، فأُرهِقَ الشيخ الجليل بالعمل المتواصل، تارة يرد كيد الأعداء وتارة أخرى يمحو جهل المحيطين، وأصيب بأزمة قلبية حادة لم يتحملها في تلك الظروف الصعبة، ورغم ذلك أكمل الجهاد رغم تحذير الأطباء له. وعندما شعر بوجود الصوت الإسلامي في الجزائر، ولمس بيده عودة اللغة العربية لأرضها، وجد من الضرورة العودة لمصر ثانية، وعاد ليبدأ رحلة جهاد إسلامية في أواخر حياته.

وفي الجزائر، كلّفه المعهد العالمي للفكر الإسلامي بعمل دراسة عن السنة النبوية، فكتب مؤلفه المتميز «السنة النبوية بين أهل الفقه وأهل الحديث»، الذي أثار حوله ضجة عارمة، وأقيمت من أجله مؤتمرات، تناقِشُ الكتاب وتحدد معالمه.

ويروي الإمام محمد الغزالي «أن الرئيس الجزائري الشاذلي بن جديد كان يريد الإسلام للجزائر، فسعى لعمل كل ما يقرب الجزائر للإسلام، لكن الأيدي الخفية والنيّات المتداخلة لم تترك الإسلام يسير في بلد المليون شهيد». ويستطرد الإمام قائلاً: «قضيت في الجزائر أياماً كانوا متعطشين فيها للإسلام، كانت أسماء الجزائريين فرنسية، والطباع والأفعال تنضح بكل ما هو فرنسي».

وقد التفّ حول الشيخ الملايين وتجمع في خطبه الألوف وبدأوا يعلقون صوره في الحوانيت والبيوت، ويتلمسون أخباره في التلفاز، ويتابعونه في حركة الإعلام المرئية والمسموعة.

وقد عم الحزن في القطر الجزائري عندما تركه الإمام عائداً لمصر، وتبادل البعض التعازي لفراق الشيخ الذي ملأ القلوب. وعندما عاد لمصر، كانت الرسائل تلاحقه حتى لقي ربه، بل ما زالت الرسائل تتوالى ما بين متذكر لماضٍ وآمل في حاضر أفضل. لقد عصم الله -بجهد الشيخ- الجزائر طيلة بقائه من التطرف المغالي، وعدّل -رحمه الله- كثيراً من الأفكار، ولولاه لكان للجزائر شأن آخر.

ومما يذكر أن الشيخ كان يدعو دائماً لأهل الجزائر بالسكينة والاستقرار، ويردد ما أحوج العالم لرسالة محمد ﷺ، ويوصي في رسائله للجزائريين بالسكينة والموضوعية، والبعد عن مهلكات النفس البشرية وعدم الصدام والعنف.

وإذا كان قلم التاريخ المنصف يسجل أحوال الإسلام في العالم، فسيذكر فتح الجزائر ودخوله قديماً في عدة المسلمين الأوائل، والثانية حين دخله على يد الشيخ الغزالي في العصر الحديث.

إن المستعمر الفرنسي أفرغ كل طاقاته المادية والمعنوية، وخلف جواً من التغريب، ودفن اللغة العربية مع المليون شهيد. لكن الله متم نوره ولو كره الكافرون.

الشيخ الغزالي وإيران:

لم يرض الشيخ عن تقاتل إيران والعراق مطلقاً، وكان يرى أصابع الصهيونية من وراء حرب العشر سنوات، ولكن بعد أن وضعت الحرب أوزارها، كان للإمام دور بارز في عودة الأسرى المصريين الذين ساندوا العراق في حربه الشهيرة ضد إيران. وكانت كل المشاورات مع إيران قد باءت بالفشل، إذ رفض الإيرانيون مساعي كل الزعماء ومسؤولي الدول ومبعوثي الأمم المتحدة، وقد شاع الرضا من إيران في الفترة الأخيرة عن أسلوب الشيخ الغزالي، إذ كان العالم الوحيد الذي يسعى لتقارب وجهات النظر دون الطعن في المذهب الشيعي، وعلى هذا لأساس اختاره الإيرانيون للتفاوض. وقد لقي الشيخ عنتاً وصعوبة بالغة، إلا أن أصحاب الهمم العالية والأغراض النبيلة لا ينقصهم الصبر والجهاد، وبالفعل نجح الإمام في العودة بالأسرى المصريين في وقت تعسرت مفاوضات الساسة والدبلوماسيين.

مع البونسة والهرسك:

سافر الإمام الكبير إلى البوسنة والهرسك مشاركاً المسلمين أحزانهم، وقام بدور أشبه بما قام به في حرب رمضان رغم سنه الكبيرة وصحته البالية، وعند عودته شارك في المؤتمرات التي عقدت لمناصرة الشعب المنكوب، ولم يدخر جهداً إلا وقدمه لهم سراً وعلانية. وكان يتناول المتقاعسين عن نصرتهم بالنقد والتوبيخ، ويلفت أنظار الغافلين التائهين. وآخر ما قدمه لهم مشروع دستور لدولتهم الناشئة يتفق مع الشريعة الإسلامية.

ولم ينس أن يذكر دور الشيشان ويلوح بمجازر الروس في بلادهم، ويحرض المسلمين على القتال ويثبتهم بالمحاضرات أو المقالات التي تبعث الحماس والحياة في النفوس الميتة.

أضواء على بعض مؤلفات الإمام:

الشيخ الجليل لا يكتب من فراغ، أو استهلاكاً لوقت تائه، بل كل كلمة عناها وقصدها، وخرجت من مشاعر قلبه، ردّ فعل لموقف أو هجوماً على لامز أو هامز، لا يعبء بالرهبة التي تخيف الناس، فهو متعلق بالله لا يقع على الأرض أبداً، ولا ينسحب من الهجوم ليفر من زحف، يجابه التيار بكل ما ملك من قوة. في علو راية المظالم وانتشار الشيوعية ألّف كتاب «الإسلام المفترى عليه بين الشيوعيين والرأسماليين»، و «الإسلام والمناهج الاشتراكية»، و«الإسلام والأوضاع الاقتصادية»، و«الإسلام والاستبداد السياسي»

عندما طعن مسؤول مسيحي في الإسلام تصدى له الشيخ في وقت عصيب بكتاب «التعصب والتسامح بين المسيحية والإسلام»، وتعمد الإمام ألا يذكر اسم الطاعن حتى يموت في مهده ولا يحيا بذكره أبداً.

أما كتاب «فقه السيرة» فيروي الشيخ الجليل أنه كتبه وهو دامع العين جيّاش المشاعر، فقد كتب معظمه في الروضة الشريفة في المسجد النبوي، وبعضه في مكة أمام الحرم. وقد اعتمد في مؤلفه على الكتاب والصحيح من السنة والعقل الراشد، وقد ضعف المحقق السوري الشهير ناصر الدين الألباني بعض أحاديث الكتاب الواردة في الكتاب. إلا أنها لم تغير من المعتقدات أو من الأحداث. وقد نوّه الإمام محمد الغزالي لذلك في مقدمة كتابه شاكراً الألباني على جهده، ثم وضح وجهة نظره في بقاء الأحاديث وعدم حذفها.

أما كتاب «الإسلام والزحف الأحمر» فإن الشيخ الجليل كتبه في ظروف صعبة شديدة؛ إذ كان يجابه علانية سماسرة الدب الروسي وأنصار الشيوعية من أصحاب السلطان، في وقت تبنت الشيوعية كثير من الشعوب العربية، ويتذكر الإمام الجليل تلك الفترة فيقول «إنني رأيت أن أكتب هذه الصحائف -يقصد كتاب «الإسلام والزحف الأحمر»- بالحقائق العلمية والتاريخية، وأودعتها صرخات قلب غيور على دينه شفيق على أمته. وأعرف أنني بكتابتها سأتعرض لعداوات مميتة، ولكن بئست الحياة أن نبقى ويفنى الإسلام».

وفي حوار شفهي قال دامعاً: كم نصحني من الزملاء والمحبين أن أصرف النظر عن كتاب الإسلام والزحف الأحمر ؛لأنه سيثير الزوابع البشرية الفتّاكة عليّ. وخلوت بنفسي أسائلها هل هذه هي الحياة؟ ماذا سأقول لربي، أفلا أخشى منه؟!

بئست حياة أُدْفَنُ فيها في جلدي، ويتنطع الظالمون صائلين بالأقدام علينا، لَمَوْتٌ في هذه الحال أشرف وأجل، ولا يفنى الدين أبداً! وأشهد أن الرجل الساجد قلبه بكى وأبكى الحاضر معه.

وعن كتاب «من هنا نعلم» فقد رد به على فكر العلمانية في مهده حين ظهر كتاب «من هنا نبدأ» وفرح بالكتاب الأخير النصارى والملحدون الشيوعيين، وهللوا له إذ اعتبروه دستوراً لهم. وقد وقع مؤلفه في فخ فصل الدين عن الدولة. إلا أن الشيخ الغزالي، رحمه الله، رد على الكتاب بالوعي والحجة والحكمة والموعظة الحسنة. ومما يذكر بالحق وإنصافاً للرجال، فإن مؤلف كتاب «من هنا نبدأ» قد تراجع وأناب وألّف كتاب «الدولة في الإسلام». كما كان مؤلفه على صلة وثيقة بالإمام محمد الغزالي وبينهما من أواصر الصداقة ما يقتدى به. ويقول الإمام الغزالي عن مؤلفه «إن خالداً حبيب إلينا والحق أحب إلينا منه...». ولقد رفض الشيخ الغزالي موقف الأزهر حين جرّد الشيخ خالد من شهادة العالمية، وطالب بإعطائه حق الحياة؛ إذ ينفي الإمام عن الشيخ خالد أنه تعمد طعن الدين، بل أنه كتب ما كتب معتقداً أنه الصواب.

وحين وجد العالم الغربي العتي يدبر للإسلام مكائد متنوعة، ووجد المسلمين غرقى في مشاحنات وصراعات فقهية تافهة، كتب «مشكلات في طريق الحياة الإسلامية» و «هموم داعية» ، و «سر تأخر العرب والمسلمين».

وبالجرأة المعهودة في الشيخ الكبير ألّف كتابه «تراثنا في ميزان الشرع والعقل»، ورد كثيراً من مواريث متخلفة ظنها القوم أصولاً راسخة. وتناول بجدية ضرورة تنقية بضاعتنا المتوارثة عن الأجيال السالفة.

وعن «التفسير الموضوعي للقرآن الكريم»، فقد كان حلم الشيخ الإمام أن يتناول هذا النوع الرائد في التفسير، فما أفقر المكتبة الإسلامية لهذا التصنيف، ولذا قال في مقدمة الجزء الثالث من هذا التفسير «أحمد الله ما تراخت منيتي حتى أكملت هذا العمل». كان يخشى أن ينقطع هذا العمل ولا يتم.

ويذكر أن هذا النوع قد طرقه الإمام محمد رشيد رضا، والأستاذ الأكبر الشيخ شلتوت ولم يكملاه. وقد لقي قبولاً واستحساناً من الدارسين والباحثين والقرّاء على السواء.

والمقام لا يتسع لإلقاء الضوء على المؤلفات جمعاء، ولكن يعتبر ما تركه الإمام في المكتبة الإسلامية زاداً ثقافياً، لا غنى عنه للأئمة والعلماء قبل العامّة من الناس.

الغزالي والفنون:

الداعية الكبير لم يكره الفن، بل كره ما يؤدي إلى الفوضى والانهيار الخلقي باسم الفن. وكان يستقبل كثيراً من الفنانين الملتزمين في بيته يتساءلون عن الدين والحياة، وقد اختاره العاملون الجادون في هذا المجال لأنه –رحمه الله– كان حسن الخليقة مبشراً لا يلجأ للتعسير.

وعن موقفه من الأدب فهو يدعو إلى القصص الطاهر العفيف البعيد عن الرذائل، وقد أعلن موقفه هذا في كتابه «هموم داعية»، و «ومشكلات في طريق الحياة الإسلامية».

كان يحب الشعر ويقدر الأدب الراقي النظيف. احترم العقاد في أسلوب بحثه في الإسلاميات. واحترم طه حسين في تقديره للعربية، وإن صَدَّ عنه في مواقفه من بعض قضايا الإسلام. لم يسترح لشعر «قباني» لأنه خارج مبتذل، واستعيب شعراء العامية لأنهم ينزلون باللغة في الدرك الأسفل.

والإمام الراحل لم يعاد شخصاً لذاته بل لمواقفه. لذلك قام بزيارة الأديب نجيب محفوظ، عندما أصابه حادث الاعتداء، وعاش معه لحظات رقيقة، سعد بها الكاتب

الأديب كثيراً، وتلاقيا سويا لقاء الأحبة، وأعلن الشيخ الغزالي أنه يُقَدِّر في نجيب محفوظ أنه احترم رأي الأزهر، ولم ينشر رواية «أولاد حارتنا» التي نضحت إلحاداً.

وقبل وفاة الكاتب زكي نجيب محمود زاره الشيخ الغزالي في البيت، ودار بينهما حوار فيه روح المحبة والإخاء. وعندما يجد الشيخ الجليل موهبة ما في شخص، يطالب بتشجيعها ويسعى لميلادها معه. ولكن للفنون حدود لا تخترق فيها آداب الإسلام وشرائعه وشعائره.

الغزالي والنقد:

يذكر الدكتور القَرَضَاوي عن الإمام الغزالي قائلاً: «قد تخالف الغزالي أو يخالفك في قضايا تصغر أو تكبر، وتقل أو تكثر، ولكنك إذ عرفته حق المعرفة لا تستطيع إلا أن تحبه وتقدره، لما تحسه وتلمسه من إخلاص لله، وتجرد للحق، واستقامة في الاتجاه، وغيرة صادقة على الإسلام».

إنه سريع الغضب إذا انتهكت حرمة الإسلام يثور، «وإذا غضب هاج كالبحر حتى يغرق، وثار كالبركان حتى يحرق كما يقول عنه الدكتور القرضاوي. سر هذا أن الإمام – رحمه الله– يبغض الظلم والهوان لنفسه وللناس ولا يحب أن يَظلِم أو يُظلَم، ولا أن يستخف أحد بكرامته، رحمه الله، لا يطيق العوج والانحراف، خصوصاً إذا لبس لبوس الاستقامة أو تستر بزي الدين. فإذا رأى ظلماً أو عوجاً –في رأي نفسه على الأقل، لم يستطع أن يغلق فمه أو يغمد قلمه– بل صب عليه جام سخطه ولم يحفل بما يصيبه من شرر الصدام، والشيخ لا يفجر في خصومته، ولا يفتري على خصمه أو يتمنى له السوء؛ أو يشمت به إذا نزل به بلاء.

والشيخ سريع الفيء، رجاع إلى الحق، إذا تبين له، ولا يبالي أن يعلن خطأه على الناس علانية وهذه شجاعة لا تتوافر إلا للقليل من الناس؛ فهو شجاع عندما يهاجم ما يعتقده خطأ..».

ويعلن أنه لا يحب الاعتداء على الإسلام لأنه لن يسكت مطلقاً، ولو استباح معتدون الضرب في الإسلام بأقلامهم وسيوفهم، «فلا يعتقد أعداء الإسلام أننا دراويش، إذا اعتدوا فسيجدوا الغلظة التي يستحقون»، وقد نال الغزالي نقداً وقف أمامه راسخ القدم ثابت اليقين. وعندما قامت زوابع سياسية عليه لم يفر منها، بل ذهب ليجابه وقد ذكرت نماذج سالفة.

أما النقد العلمي فيسمعه ليرد عليه بما ملّكه الله من أدب في الحوار وتهذيب في السلوك. طعن فيه البعض واتهموه بعداوة السنة النبوية، وألّفوا كتباً هزيلة أضحكت أهل الفهم والدراية، وقد يقبل الإمام الكبير أي أنواع النقد فيرد، ولا تحدث به عاهة نفسية تمنعه من الذود عن النفس، بل يفند، ويوضح، ويبين، وينازل، ويناظر، ولا يعبىء بمرض أو عائق.

وعندما هاجمه البعض بإنكار أحاديث اشتهرت على الألسنة، ردّ بمنتهى القوة وذكر أعداداً كبيرة من الأحاديث التي أوردها فقط في كتابين هما «فقه السيرة» و «جدد حياتك»، فكيف إذن يعادي السنة؟

يضاف لذلك كتب «فن الذكر والدعاء عند خاتم الأنبياء» أو «مع الله»، أو «دفاع عن العقيدة والشريعة ضد مطاعن المستشرقين» وختم حياته بكتاب «كنوز من السنة»، فهل عادى السنة حقاً؟!

ويضحك الشيخ الجليل ساخراً بعد بكاء، أنني أقبّل التراب الذي مشى عليه رسول الله ﷺ، والغريب أن هناك من أنكر آيات ولمَ يَنلْ منهم أحد. إن الإمام أحمد بن حنبل ذكر حديث أن المعوذتين ليستا من القرآن، وقد نقله ابن كثير في تفسيره ولم تقم الدنيا عليهما، ماذا حدث؟

وعندما نقد الشيخ ابن باز كتاب «السنة النبوية»، ردّ الإمام الكبير قائلاً: لك هذا، أكتب ما تراه صواباً، شريطة ألا يكون هناك رأي صحيح آخر، فإذا وجدت آراء صحيحة

مع ما تقول، فلا معنى أن تلزمني برأي يفرض عليّ، وللمسلمين رأي أيسر لهم وأقرب للتقوى.

لم يكن الغزالي عصياً على النقد، يقبله ولو من صغير[1] إذ ردّ يوماً على نقد لطيف بحب جارف وثقة بالله قائلاً: «... أنا أعمل للإسلام ودعوته من أمد بعيد، وربما استوحشت وربما كبوت، ولكني واثق من أن الله لن يضيّعَني».

منزل الغزالي في مصر:

بيوت الدعاة إلى الله ليست بيوتاً عادية بل هي مكان يتوافد عليه السائلون عن دينهم. وكان بيت الإمام قبلة –إن صح التعبير– يتوافد عليه الناس ليسألوا، ويجدوا ضالتهم المنشودة، فقد تميز الإمام بالسماحة في الرؤى الفقهية، يرى الأيسر على السائل ويفتي به ويفك كروب المكروبين، وقد يفك الدين عن المدينين، يسمع الشكوى ويتابع أحوال صاحبها، ويعتمد فعل الخيرات في سر لا يعلمه صاحبه، فكان يتصدق بشماله لا تدري يمناه ماذا فعل، ويحزن إن وجد فتوى ضيّقت على الناس متسعاً. ولا يميل للفُتيا التي تفك روابط الزوجية، ويحزن إن وجد شيخاً يفتي للناس بما يصعب موقفهم ويضيق عليهم.

وجد يوماً أحد الأئمة قد أخرج زوجة من بيتها طُلّقت طلقةً رجعية، وقال تحرمين عليه، فغضب الشيخ وقال للرجل كيف هذا ﴿يا أيها النبي إذا طلقتم النساء فطلقوهن لعدتهن واحصوا العدة واتقوا الله ربكم لا تخرجوهن من بيوتهن ولا يخرجن..﴾ والآية صريحة ببقاء المعتدة في منزلها عند الطلقة الرجعية. وكان يقوم رغم مرضه بالرد على الخطابات وبالهاتف، وجعل من منزله داراً للفتوى ومؤسسة خيرية للسائلين.

ويستقبل كثيراً من العلماء والعاملين في حقل الدعوة يتساءلون عن دينهم ويتدارسون أحوال العالم الإسلامي. وفي الفترة الأخيرة كان يعطي محاضرات في الدفاع عن الإسلام للأئمة في فنية الدعوة وأصول التبليغ، ولا يمانع من المناظرة التي يستثمر فيها الإسلام.

كما كان للشيخ الكبير منتدى فكري، يجتمع فيه كبار مفكري الإسلام والعلماء العاملين، ويفد عليه كبار العلماء يسألونه في الأرجح من الآراء التي يفتون بها، كما كان مرجعاً للأساتذة والباحثين في الأزهر والجامعات الأخرى.

قال الإمام محمد الغزالي:

«العقائد الدافعة إلى العمل الصالح والخلق الفاضل، هي لباب الدين ومحور تعاليمه. وغاية ما يصبو إليه الدين، أن يجد الجو الملائم لغرس عقائده وظهور آثارها من خلق وعمل. فإذا ضمنا هذا الجو الرحب، فقد أمكن للدين أن يحقق رسالته. وإلا فالدين لا يعدو أن يكون بضاعة تباع للناس في بطون الكتب، أو كلاماً تنقله طائفة من الرجال في حلقات الوعظ، وخطب المنابر، لا يثمر غير التوجيه النظري.

وقد رأيت بعد تجارب عدة، أنني لا أستطيع أن أجد بين الطبقات البائسة، الجو الملائم لغرس العقائد العظيمة، والأعمال الصالحة، والأخلاق الفاضلة. إنه من العسير جداً أن تملأ قلب إنسان بالهدى، إذا كانت معدته خالية، أو تكسوه بلباس التقوى إذا كان بدنه عارياً. إنه يجب أن يؤمّن على ضروراته التي تقيم أوده كإنسان، ثم ينتظر بعدئذ، أن تستمسك في نفسه مبادئ الإيمان. كثيراً ما وجدتني أعالج وعظ الناس في بيئات صرعها الفقر والمرض والجهل، فكنت أحار ماذا أقول لهم، هل أقبح لهم الدنيا، كما يظن أنه مفروض من علماء الدين؟ إن الدنيا لن تكون أقبح مما عليه في أعين هؤلاء التعساء». قضية المال كانت تؤرقه بالنسبة للآخرين، كان يخشى على المسلمين من عدوان الفقر ويذكر أن الرسول ﷺ استعاذ منه، ويطالب العاطلين بالعمل قائلاً: إذا كان أصحاب الأعمال أحياء فإن العاطلين موتى، ويكره المشروعات التي تهدف الاستغناء عن الجماهير وتضيق عليهم سبل المعايش.

كان لا يلقي اللوم على النظم الاقتصادية وحدها، بل لم تعجبه كثير من عادات المسلمين في استهلاك المال، بلا وعي أو دراية، ويرى وأد كثير من العادات والتقاليد.

ويدمى قلبه إنفاق المال على مباهج الأفراح وشعارات الأحزان وضياع المال بلا فائدة. ويرى من العار أن ينفق مترف آلاف الجنيهات في متارف وملاهي وشعوب تموت جوعاً. حتى الصدقات: عندما وجد رجلاً أراد أن يحج للمرة الثالثة قال له الإمام: كفاك حجاً، ألا أدلك على عمل أنفع وأعظم أجراً، شاب صيدلي لم يبدأ حياته بعد، وأرى أن تقدم له هذا المال يبدأ حياته وينطلق في ركاب حياة جادة، وبالفعل قام الرجل بالتصدق بثمن رحلة الحج.

إن كثيراً من المتصدقين يعوزهم الفهم والدراية؛ فإن الغني عبادته الأساسية هي حسن استخدام المال في التعمير، والتصدق، وسد احتياجات الآخرين ﴿إنما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفي الرقاب والغارمين وفي سبيل الله وابن السبيل فريضة من الله والله عليم حكيم﴾ (التوبة: ٦٠).

إن من وسائل الإسلام في تغطية الفقراء والمساكين هي سد احتياجاتهم، ودستور الإنفاق في القرآن يذكر الغارمين ومن عليهم ديون تطوق أعناقهم. ومنهم من يضع المال في اللهو، والحياة الجادة تحتضر، ويتألم الشيخ الكبير حين يجد المرضى عاجزين عن الاستدواء وآخرين ينفقون الآلاف على اللهو.

يقول الإمام عن نفسه:

«لم أكن أتخيل في طفولتي ولا يفاعتي أنني سأكون يوماً ما داعية إلى الدين. وما حسبت ولا حسب القريبون مني أنني أصلح للعمل في هذا الميدان الذي تواضع الناس على ترشيح أقوام معينين له، يمتازون بطراز خاص من الخلق والسلوك، ويضفي المجتمع عليهم تقاليد دقيقة تتحكم في بيئاتهم وهيئاتهم، وسائر مناحي حياتهم.

إنني لا أطيق التّزمت، ولو تكلفته ما أحسنته! وأحب أن أسترسل مع سجيتي في أخذ الأمور وتركها، وقلما اكترث للتقاليد الموضوعة، والمفروض أن اللازم الأولى في رجال الدين –كما يسمون– أنهم أهل توقّر وسكون.

وأنا أجنح إلى المرح عن رغبة عميقة، وأتلمس الجوانب الضاحكة في كل شيء، وأود لو استطعت أن أعيش هاشاً باشاً، والمفروض أن الناس يتوقعون من أمثالنا تواصل الأحزان، وإطراق الكآبة، حتى يكون تذكيره بالآخرة، وإنذاره العصاة بالنار، متفقاً مع مخايل الجد والعبوس التي لا تفارق وجهه أبداًا!.

ثم إنّني شعبيّ في تصرّفي، لو كنت مَلِكاً لأبيت إلا الانتظام في سلك الأخوة المطلقة مع الجماهير الدنيا، أخدمهم ويخدمونني على سواء!.

وقد تكون الأيام غيرت مني، والتجارب القاسية علّمتني، فجعلتني –وأنا الضحوك المبتهج– أغوص في بحار من الأكدار، أو أتحرى موضع قدمي، وأنا أسير بين الناس، كأنما أحاذر شراكاً منصوبة، أو أصعّر خدّي –علم الله لا عن كبر– بل إحجاماً عن قبول الدنية ورفضاً لهضم الحقوق!.

وما اضطررت إليه من عمل ينافي طبعي، فإن مرده طبيعة الأحوال التي أحيا فيها، وليس البتة من طبيعة الرسالة التي أؤديها بعد ما صرت إلى ما خطه القدر لي، أي رجلاً من الدعاة إلى الله، وهمزة وصل بين الأرض والسماء!».

إنه الرجل الذي أرّخ للأوضاع الاقتصادية، وتأمل في الدين والحياة، وصد الزحف الأحمر عن الإسلام، وقابل مشكلات في طريق الحياة الإسلامية، وأنصف الإسلام من المناهج الاشتراكية والرأسمالية، ونطق الحق المر، وتعمق بنظرات في القرآن، وأفهم السنة لضعاف البصيرة، وعلمنا من هنا نعلم، واستبعد ما ليس من الإسلام، وحدد معالم الحق، وعاش مع الله، في الدعوة والدعاة، ووقف مجاهداً في معركة المصحف في العالم، وعرّفنا كفاح الدين، وأجاد الدفاع عن العقيدة والشريعة، ورسّخ ركائز الإيمان بين العقل والقلب، وحذّر من حصاد الغرور، وأطلق قذائف الحق، و أوفي الجانب العاطفي من الاسلام حقه، عرف فن الذكر والدعاء، ووضع دستور الوحدة الثقافية بين المسلمين، وحمل هموم الداعية، وسقط والقلم السيف في يده.

وأخيراً نسوق ما بكاه قلم الدكتور القَرَضَاوي عقب وفاة الإمام:

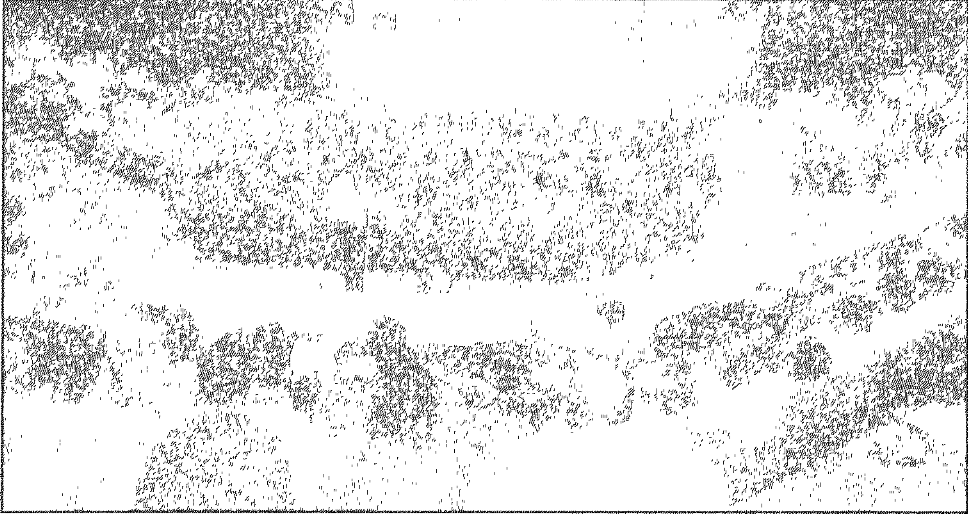
شيخنا الحبيب

لقد فقدتك الأمة أحوج ما تكون إليك، فقدتك والمعركة بين الإسلام وأعدائه حامية الوطيس، والأعداء قد جاءوا من فوقها ومن أسفلها، كنا في حاجة إلى قلمك السيف، ليصول ويجول مدافعاً عن الحق في مواجهة الباطل، عن الإيمان في مواجهة الكفر، عن الإسلام المحاصر من الصهيونية والصليبية.

شيخنا الحبيب

لا نجد كلمات في روعة بيانك نودعك بها، كل ما نقوله لك إن العين لتدمع، وإن القلب ليحزن، ولا نقول إلا ما يرضى ربنا.

والحمد لله رب العالمين



القاعة تغُصّ بالحضور

الغزالي رجل الدعوة

الأستاذ الدكتور يوسف القَرَضَاوي

مدير مركز بحوث السنة النبوية/ جامعة قطر

خير ما أحييكم به أيها الأخوة والأخوات تحية الإسلام، وتحية الإسلام السلام، فالسلام عليكم ورحمة الله وبركاته. وشكر الله للأخوة الذين سعوا في إقامة هذا اليوم تكريماً لشيخنا الغزالي –رحمه الله، ورضي عنه وأرضاه. شكر الله للمعهد العالمي للفكر الإسلامي والمجمع الملكي لبحوث الحضارة الإسلامية (مؤسسة آل البيت) وجمعية الدراسات والبحوث الإسلامية. وهذا نموذج من التعاون ينبغي أن يستمر في مناسبات أخرى. ﴿ وتعاونوا على البر والتقوى ﴾ (المائدة: ٢). والتعاون لا يثمر إلا خيراً.

لا أدري كيف أستطيع أن أحدثكم عن شيخنا الغزالي، كيف أستطيع أن ألخّص نصف قرن في دقائق، إلا كما لو أراد الإنسان أن يضع البحر في قارورة.

ليس من السهل أن أتحدث عن الشيخ الغزالي، وأنا أقول شيخنا الشيخ الغزالي رغم أن بيني وبين الشيخ الغزالي تسع سنوات. فالفرق بيننا في السِّنّ ليس كبيراً، ولكني أعترف أنني تتلمذت على يديه. عرفته أول ما عرفته قارئاً لمقالاته، ثم قارئاً لكتبه؛ الكتاب الأول: الإسلام والأوضاع الاقتصادية، ثم الإسلام والمناهج الاشتراكية. حين كنت أقرأ مقالاته أعجب بها. كنت في ذلك الوقت مشغولاً بالأدب والشعر، وكانت قراءاتي في هذا المجال. فحينما قرأت الغزالي ومقالاته كنت في مجلة "الإخوان المسلمون" الأسبوعية، وجدت أديباً من طراز ممتاز، يتكلم عن الإسلام بقلم بليغ، وما كنت أعلم أنه شيخ أزهري، فمعلوماتي أن المشايخ لهم أسلوب غير هذا الأسلوب، وموضوعات غير هذه الموضوعات، وروح غير هذه الروح. كان الشيخ الغزالي يكتب أحياناً تحت عنوان (خواطر حرّة). ويكتب في التاريخ تحت عنوان (صحائف المجد). ويكتب أحياناً عن

(الطبقات المستضعفة). ما كان هذا شأن المشايخ. ولذلك ما كنت أعتقد أن الغزالي الذي يكتب في مجلة "الإخوان المسلمون" أحد شيوخ الأزهر، حتى كتب يوماً تحت توقيع: محمد الغزالي الواعظ. فسألت بعض الأخوة: قلت هل هو من عائلة الواعظ؟ أم أن الواعظ صفة له، قالوا: لا، هي صفة ووظيفة؛ هو واعظ؛ هل هو شيخ أزهري؟ قالوا: نعم، هو شيخ معمم، فزادني هذا حباً له؛ بحكم المشيخة الأزهرية. كان الأزهر في ذلك الوقت يعتز بشيوخه ورجاله. فأحببت الشيخ الغزالي أكثر وظللت أقرأ له. ولم يقدر لي أن ألقاه إلا حينما أُخِذْتُ من سجن قسم أول طنطا أنا وأخي أحمد العسال الجالس بجواركم ومجموعة من الأخوة، أُخِذْنا من سجن قسم أول الذي بقينا فيه نحو أربعين يوماً. ثم إلى معتقل (هايك ستب) ثم إلى معتقل (الطور). وفي الباخرة التي أقلّتنا حدث نوع من الهرج والمرج والهياج بين الإخوان، فإذا شاب أقرب إلى القصر، حاسر الرأس، خرج وتكلم كلمات محدودة كانت برداً وسلاماً. قال: أيها الأخوة، يجب أن تصبروا وتصابروا حتى نذهب إلى المكان الذي قدر لنا أن نعيش فيه، وهو الأرض التي انطلقت منها شرارة الوحي المقدسة، قبل وحي محمد ﷺ لتحرير الأمة المستعبدة، إلى الطور. قال كلمات فسكت الإخوان، وكأن على رؤوسهم الطير. قلت لبعض الأخوة، من إخوان القاهرة: مَنْ هذا المتحدث؟ قالوا ألا تعرفه؟ إنه الشيخ الأزهري محمد الغزالي. قلت: هذا حبيبي، الشيخ الذي أحببته دون أن أراه. ها أنا أراه لأول مرة.

وشاء الله أن أكون معه حينما قسمنا في المعتقل على السجن (الحذاءات). كان المعتقل هذا أصلاً مكاناً للقادمين من الحجاز، كان للحجر الصحي، وكان مقسماً إلى حذاءات، والحذاء مقسم إلى (عنابر). فكان من قدر الله أن أكون في هذا الحذاء الذي إمامُه الشيخ الغزالي، يؤم المصلين ويخطبهم. وحضرنا أول خطبة للشيخ الغزالي فإذا بها ثورة عارمة، كان ضباط المعقتل يأكلون حق المعتقلين، تُصْرَفُ للمعتقلين أشياء من النواشف كما يسمونها، معلبات وأشياء جاهزة ونحو ذلك، فلا يعطون المعتقلين منها إلا الفتات. خطب الشيخ الغزالي خطبة ثم قاد مظاهرة تهتف بسقوط سياسة التجويع، تسقط اللصوصية المنظمة، والمعتقلون وراء الشيخ الغزالي. وكان عمره في ذلك الوقت نحو

الثانية والثلاثين. وخاف قادة المعتقل من هذا الأمر، وأقبلوا سراعاً يفاوضون المعتقلين إلى أن انتهى الأمر أن يسلّموا المقادير المصروفة لنا ونحن نتولى طهيها.

وهكذا كان الشيخ الغزالي، ما كان يصبر عن ظلم أبداً. فمن هذا الوقت ظللنا مع الشيخ الغزالي. وكان شهر رمضان، استمتعنا بشهر رمضان وراء الشيخ الغزالي وهو يصلي بنا، يقرأ القرآن الذي كان يحفظه عن ظهر قلب حفظاً جيداً، وكان يقرأ ختمتين؛ ختمة يقرأها في صلاة التراويح، وختمة يقرأها باستمرار في الصلوات الأخرى،وربما أكثر من ختمة. وهو يقرأ باستمرار ويصلي في الصلوات العادية من حيث ينتهي، فحيثما انتهى من القراءة في صلاة معينة يقرأ في الصلاة التالية من حيث ينتهي، وهكذا إلى أن تنتهي الختمة، ثم يعود من جديد.

وكان يدعو في الصلوات دعاء القنوت، قنوت النوازل؛ يدعو بكلمات موجزة قوية؛ كان يقول: «اللهم افكك بقوتك أسرنا، واجبر برحمتك كسرنا، وتولّ بعنايتك أمرنا، اللهم استر عوراتنا وآمن روعاتنا، اللهم عليك بالظالمين». وكان يزيد أحياناً بعض الكلمات.

عشنا مع الغزالي، وكان يؤمنا ويخطبنا ويدرسنا في محاضرات. كانت محاضرات حول الإسلام والاستبداد السياسي؛ الكتاب الذي صدر بعد ذلك تحت عنوان "الإسلام والاستبداد السياسي". كان أصله محاضرات ألقاها في معتقل الطور. وكان يعلم أن هناك عيوناً وآذاناً تتسمع لكل ما يقال، ولكنه ما كان يبالي بشي ء من ذلك. كانت قيادة المعتقل في يد أستاذنا وشيخنا الأستاذ البهي الخولي.،ثم استدعي الأستاذ البهي إلى قضية اتهم فيها من قضايا النظام الخاص، فأجمع الإخوان على أن يتولى قيادة المعتقلين الشيخ الغزالي، رغم أنه كان صغير السن في ذلك الوقت، وقاد المعتقل ببصيرة وحكمة.

وحينما خرجنا من المعتقل، كنا على صلة دائمة بالشيخ الغزالي خصوصاً أنا، والأخ أحمد العسال. وكان يدعونا إلى بيته كثيراً، ونأكل من جيد طعامه، ونسمع من جيد كلامه؛ هذا لبطوننا، وذلك لعقولنا، وظللت مع الشيخ الغزالي معظم الوقت، ما فارقته،

(الطبقات المستضعفة). ما كان هذا شأن المشايخ. ولذلك ما كنت أعتقد أن الغزالي الذي يكتب في مجلة "الإخوان المسلمون" أحد شيوخ الأزهر، حتى كتب يوماً تحت توقيع: محمد الغزالي الواعظ. فسألت بعض الأخوة: قلت هل هو من عائلة الواعظ؟ أم أن الواعظ صفة له، قالوا: لا، هي صفة ووظيفة؛ هو واعظ؛ هل هو شيخ أزهري؟ قالوا: نعم، هو شيخ معمم، فزادني هذا حباً له؛ بحكم المشيخة الأزهرية. كان الأزهر في ذلك الوقت يعتز بشيوخه ورجاله. فأحببت الشيخ الغزالي أكثر وظللت أقرأ له. ولم يقدر لي أن ألقاه إلا حينما أُخِذْتُ من سجن قسم أول طنطا أنا وأخي أحمد العسال الجالس بجواركم ومجموعة من الأخوة، أُخِذْنا من سجن قسم أول الذي بقينا فيه نحو أربعين يوماً. ثم إلى معتقل (هايك ستب) ثم إلى معتقل (الطور). وفي الباخرة التي أقلّتنا حدث نوع من الهرج والمرج والهياج بين الإخوان، فإذا شاب أقرب إلى القصر، حاسر الرأس، خرج وتكلم كلمات محدودة كانت برداً وسلاماً. قال: أيها الأخوة، يجب أن تصبروا وتصابروا حتى نذهب إلى المكان الذي قدر لنا أن نعيش فيه، وهو الأرض التي انطلقت منها شرارة الوحي المقدسة، قبل وحي محمد ﷺ لتحرير الأمة المستعبدة، إلى الطور. قال كلمات فسكت الإخوان، وكأن على رؤوسهم الطير. قلت لبعض الأخوة، من إخوان القاهرة: مَنْ هذا المتحدث؟ قالوا ألا تعرفه؟ إنه الشيخ الأزهري محمد الغزالي. قلت: هذا حبيبي، الشيخ الذي أحببته دون أن أراه. ها أنا أراه لأول مرة.

وشاء الله أن أكون معه حينما قسمنا في المعتقل على السجن (الحذاءات). كان المعتقل هذا أصلاً مكاناً للقادمين من الحجاز، كان للحجر الصحي، وكان مقسماً إلى حذاءات، والحذاء مقسم إلى (عنابر). فكان من قدر الله أن أكون في هذا الحذاء الذي إمامُه الشيخ الغزالي، يؤم المصلين ويخطبهم. وحضرنا أول خطبة للشيخ الغزالي فإذا بها ثورة عارمة، كان ضباط المعقتل يأكلون حق المعتقلين، تُصْرَفُ للمعتقلين أشياء من النواشف كما يسمونها، معلبات وأشياء جاهزة ونحو ذلك، فلا يعطون المعتقلين منها إلا الفتات. خطب الشيخ الغزالي خطبة ثم قاد مظاهرة تهتف بسقوط سياسة التجويع، تسقط اللصوصية المنظمة، والمعتقلون وراء الشيخ الغزالي. وكان عمره في ذلك الوقت نحو

الثانية والثلاثين. وخاف قادة المعتقل من هذا الأمر، وأقبلوا سراعاً يفاوضون المعتقلين إلى أن انتهى الأمر أن يسلّموا المقادير المصروفة لنا ونحن نتولى طهيها.

وهكذا كان الشيخ الغزالي، ما كان يصبر عن ظلم أبداً. فمن هذا الوقت ظللنا مع الشيخ الغزالي. وكان شهر رمضان، استمتعنا بشهر رمضان وراء الشيخ الغزالي وهو يصلي بنا، يقرأ القرآن الذي كان يحفظه عن ظهر قلب حفظاً جيداً، وكان يقرأ ختمتين؛ ختمة يقرأها في صلاة التراويح، وختمة يقرأها باستمرار في الصلوات الأخرى،وربما أكثر من ختمة. وهو يقرأ باستمرار ويصلي في الصلوات العادية من حيث ينتهي، فحيثما انتهى من القراءة في صلاة معينة يقرأ في الصلاة التالية من حيث ينتهي، وهكذا إلى أن تنتهي الختمة، ثم يعود من جديد.

وكان يدعو في الصلوات دعاء القنوت، قنوت النوازل؛ يدعو بكلمات موجزة قوية؛ كان يقول: «اللهم افكك بقوتك أسرنا، واجبر برحمتك كسرنا، وتولّ بعنايتك أمرنا، اللهم استر عوراتنا وآمن روعاتنا، اللهم عليك بالظالمين». وكان يزيد أحياناً بعض الكلمات.

عشنا مع الغزالي، وكان يؤمنا ويخطبنا ويدرسنا في محاضرات. كانت محاضرات حول الإسلام والاستبداد السياسي؛ الكتاب الذي صدر بعد ذلك تحت عنوان "الإسلام والاستبداد السياسي". كان أصله محاضرات ألقاها في معتقل الطور. وكان يعلم أن هناك عيوناً وآذاناً تتسمع لكل ما يقال، ولكنه ما كان يبالي بشيء من ذلك. كانت قيادة المعتقل في يد أستاذنا وشيخنا الأستاذ البهي الخولي.،ثم استدعي الأستاذ البهي إلى قضية اتهم فيها من قضايا النظام الخاص، فأجمع الإخوان على أن يتولى قيادة المعتقلين الشيخ الغزالي، رغم أنه كان صغير السن في ذلك الوقت، وقاد المعتقل ببصيرة وحكمة.

وحينما خرجنا من المعتقل، كنا على صلة دائمة بالشيخ الغزالي خصوصاً أنا، والأخ أحمد العسال. وكان يدعونا إلى بيته كثيراً، ونأكل من جيد طعامه، ونسمع من جيد كلامه؛ هذا لبطوننا، وذلك لعقولنا، وظللت مع الشيخ الغزالي معظم الوقت، ما فارقته،

حتى حينما ذهبت إلى قطر، وحيثما تتاح الفرصة، لا نتركها ولا ندعها. تعلمنا من الشيخ الغزالي خطيباً، وتعلمنا من الشيخ الغزالي محاضراً، وتعلمنا من الشيخ الغزالي مدرساً ومتحدثاً، وتعلمنا من الشيخ الغزالي كاتباً.

وقد كَتَبْتُ؟ عن الشيخ الغزالي كتاباً أردت أن يكون صفحة وفاء للشيخ في حياته، فكثير من الناس لا يعترفون بأقدار الكبار إلا بعد وفاتهم. ووجدت أن الإسلاميين للأسف كثيراً ما لا يقدرون رجالهم. الماركسيون وغيرهم يضعون هالات على رجالهم، وأدبائهم وشعرائهم ومفكريهم، ويجعلون من الحبة قبة. فهؤلاء يزين بعضهم بعضاً. والإسلاميون لا يزين بعضهم بعضاً، ولا يتحدث بعضهم عن بعض. عنوان كتابي "**الشيخ الغزالي كما عرفته رحلة نصف قرن**"[1]. الحقيقة بدأ هذا الكتاب عندما أراد ثلّة أن يكتبوا كتاباً عن الشيخ يهدونه إليه بمناسبة بلوغه السبعين، وأُلّفت لجنة لذلك. ولكن للأسف لم تنجح اللجنة في إتمام هذا الأمر، ولم يكتب أحد إلا الأخ د. محمد عمارة، الذي أصدر كتاباً صغيراً بعنوان: «الشيخ الغزالي والموقع الفكري»، وبعض الأخوة الذين ذكرهم الأخ علاء.صدرت بعض المقالات في كتاب عن دار الصحوة[2]. وكنتُ قد بدأتُ هذا الكتاب على أنه مقالة، ولكني عندما بدأت المقالة طالت معي، والشيخ لا يصلح أن أكتب عنه مقالاً، لا يصلح إلا أن أكتب عنه كتاباً، فجاء هذا الكتاب في عشرة فصول. عشرة فصول عن الشيخ الغزالي، وأعتقد أنها لم تُوَفّ الشيخ حقه. لعلها أدت بعض حقه، ولكن كل فصل من هذه الفصول يمكن أن يكون كتاباً عن الشيخ الغزالي.

الشيخ الغزالي هو رجل دعوة قبل كل شيء. رجل دعوة من الطراز الأول، الدعوة إلى الإسلام لحمته وسداه ومصبحه وممساه، وحلم ليله وشغل نهاره. عاش للدعوة، ماضيه للدعوة، حاضره للدعوة، مستقبله للدعوة، فحين يكتب ما يكتب، أو يخطب ما يخطب أو يدرس ما يدرس، كله للدعوة، إذا هاجم فللدعوة، وإذا دافع فعن الدعوة، وإذا انتقد فللدعوة. هو رجل دعوة.

وكانت أدوات الدعوة عنده متيسرة ومتوافرة. أولها القرآن الكريم، كان يحفظ القرآن كما قال أخونا الدكتور علي جمعة في الصباح، كأنّ القرآن أمامه سطر واحد، أنا عايشت الشيخ ورأيت هذا فيه، كان القرآن فعلاً أمامه، يلتقط منه المعاني كأنه صفحة بين يديه، وهو يعتبر القرآن المصدر الأول للداعية، ويجب أن يحكم على كل مصدر، يحكم على السنّة، ويحكم على القياس، ويحكم على الإجماع، ويحكم على كل شيء. القرآن عنده هو الينبوع الأول وهو المصدر الأعلى في الإسلام، هو عمدة الملّة وأصل العقيدة والشريعة. فالشيخ الغزالي رجل قرآني بكل المعاني، يستنبط من القرآن ما لا يستنبطه غيره. عندما كنت في الجزائر، وبعض الأخوة من تلاميذ الأستاذ مالك بن نبيّ -رحمه الله- يتكلمون عن فكرة الأستاذ مالك التي شاعت عنه، فكرة القابلية للاستعمار، قلت لهم إنّ الشيخ الغزالي سبق إلى هذه الفكرة، قالوا: كيف وأين؟ قلت: في كتاب للشيخ الغزالي هو كتاب الإسلام والأوضاع الاقتصادية: قال إنّ الأمم، تكون عندها استعدادات للفساد والاختلال فيؤدي الاختلال إلى الاحتلال. الأمم تختل فتحتل. وتكلم عن هذا كلاماً في غاية القوة والروعة، واستدل على ذلك بآيات سورة الإسراء، عن بني إسرائيل، حينما أفسدوا في الأرض، هذا الفساد أدى إلى إصابتهم بالاستعمار والطغيان، استعمرهم البابليون والفرس والرومان...الخ.

كان الشيخ الغزالي يعيش مع القرآن، ومن قرأ كتبه، منذ الكتب الأولى، يجد كيف كان الشيخ يستطيع أن يستنبط من القرآن ما لا يستنبطه الآخرون. الدكتور العسال تكلم صباحاً عن أن الشيخ الغزالي كان يُصَدّر كتبه بهذه العبارة: في سبيل الله والمستضعفين، أخذاً من الآية ﴿وما لكم لا تقاتلون في سبيل الله والمستضعفين﴾؛ هذا مبدأ قرآني: في سبيل الله والمستضعفين. وكان قد كوّن مع عدد من إخوانه العلماء الأزهريين، منهم الشيخ خالد محمد خالد (قبل أن يتجه الاتجاه الآخر)، جماعة تجتمع تحت شعار «الدين في خدمة الشعب» وكانوا يردون بذلك على الذين يقولون "الدين أفيون الشعوب". كان الشيخ الغزالي يرى أن الدين في خدمة الشعوب وأصدر كتابه الأول والثاني تحت هذا الشعار. فالشيخ الغزالي مصدره الأول القرآن، أول وسائل الشيخ الغزالي، وهو يحاكم السنن،

ويحاكم الفقه، ويحاكم القياس، ويحاكم كل شيء إلى القرآن. لهذا رفض كلّ ما لا يتفق مع القرآن. وهذا ما جعله يرفض الحديث الذي رواه مسلم في صحيحه أن أب النبي ﷺ في النار. وهو للأسف ما كان يقوله بعض الأخوة من الدعاة. يأتي في المولد النبوي، وأول شيء يقوله: يجب أن تعلموا أن والد النبي ﷺ في النار. يا سبحان الله، والشيخ الغزالي قال: هذا مخالف للقرآن. الله سبحانه وتعالى قال: ﴿وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا﴾، والعرب لم يرسل إليهم رسول بنص آيات أربع من كتاب الله، وذكر هذه الآيات: ﴿ لتنذر قوماً ما أنذر آباؤهم فهم غافلون﴾ و ﴿وما أرسلنا إليهم قبلك من نذير﴾. لذلك رفض هذا الحديث وإن كان في صحيح مسلم، لأن القرآن عنده أعلى، فالشيخ الغزالي كان رجلاً قرآنياً. فهذه المعرفة بالقرآن، وحفظ القرآن، والعيش في رحاب القرآن كانت هو الأداة الأولى من أدوات الشيخ الغزالي الداعية.

الأداة الثانية كانت الثقافة الواسعة، كان الشيخ الغزالي مثقفاً ثقافة واسعة، وفي كتاب اسمه ثقافة الداعية، ألّفته من سنين طويلة ذكرت فيه أن الداعية محتاج إلى ستة أنواع من الثقافات: الثقافة الدينية بمفرداتها المختلفة: تفسير وحديث وفقه وأصول وغير ذلك. والثقافة الأدبية واللغوية. فالشيخ الغزالي كان أديباً من أدباء الأمة، وكان حريصاً أن لا يخطى من الناحية اللغوية، فهو أزهري متمكن، ثقافته الأزهرية؛ اللغوية والدينية ثقافة أصيلة، ولذلك ما كان يخطئ في النحو، ولا في الكتابة، ولا في الخطابة. ولو أخطأ مرة اعترف واعتذر، وذات مرة انفعل في الكلام فأخطأ، فقال: الانفعال جعلني أخطئ في النحو. سأحاول أن لا أنفعل. كان في أول كتاباته يكتب: لئن كان كذا، فإن كذا. وهذا ليس سليماً لغة، فلما أدرك الشيخ ذلك، أصبح يقول: لئن كان كذا، إن كذا وليس فإن. والقاعدة معروفة

واحذف لدى اجتماع شرط وقسم   جواب ما أخرت فهو ملتزم

وكان يحفظ آلاف الأبيات من الشعر، أنا أظن أنه يحفظ ديوان الحماسة جُلّه، إن لم يكن كله، فكان الشيخ الغزالي عنده ثقافة دينية، وثقافة أدبية ولغوية، وثقافة تاريخية، كان

معنياً بالتاريخ الإسلامي ابتداءً من السنة النبوية، وثقافة إنسانية عامة، وثقافة علمية، وأشار الأستاذ الدكتور فهمي جدعان، إلى إنه كان مهتماً بالجانب العلمي، ولا يستغني داعية عن هذا الجانب، وثقافة واقعية: فقه الواقع: كان موصولاً بالواقع وتيارات الحياة المختلفة. فكانت هذه الثقافة الواسعة هي زاده وأداته الثانية بعد كتاب الله عز وجل.

طبعاً الثقافة الأزهرية لها خصائص معينة، فالأزهر كمعظم المدارس والجامعات الدينية أشعري. إخواننا السلفيون لا يعجبهم هذا الكلام، مع أن الأمة الإسلامية أشعرية، كيف يضلّلون الأمة كلها، الأزهر أشعري، الزيتونة أشعرية، الجامعة القروية أشعرية، الديوباند في الهند أشعرية. كل المدارس الدينية في العالم أشاعرة. فلذلك كان الشيخ الغزالي أشعرياً، ولكنه لم يكن متعصباً. درس المذهب الأشعري فيما درسه في الابتدائي والثانوي وفي الأزهر وفي كلية أصول الدين. وحينما ألّف كتابه عقيدة المسلم ألّفه بروح سلفية ونَفَسٍ أشعري، وخاصة من حيث التبويب والتقسيم، فإنّك تجد فيه لمسة أشعرية، وما يستطيع أحد أن يتخلى عن هذا. وهذا الذي جعله يقول بالتوفيق بين العقل والنقل. أنا أريد أن أقول للأخ الدكتور فهمي جدعان إن المذهب الأشعري يقول أن العقل هو أساس النقل. لولا العقل ما كان النقل. لأن ثبوت النبوة أمر قائم على العقل، فلو ألغينا العقل ما ثبتت النبوة، وما ثبت الوحي، ولهذا يقول الإمام الغزالي، ويقول قبله الأشاعرة: إن العقل أساس النقل، وهذا ما جعله يقول أحاديث الآحاد لا تثبت بها العقيدة، ولا تفيد التواتر، أحاديث الآحاد تفيد الظن، ولا تفيد اليقين، إخواننا الذين ردوا على الشيخ الغزالي أنكروا عليه هذا. الشيخ الغزالي لم يبتكر هذا. المدرسة الأشعرية والماتريدية، وجمهور الأصوليين مع الشيخ الغزالي، أنا ذكرت في كتابي أنّ محققي الحنابلة مع الشيخ الغزالي، يعني أبو يعلي الفرّاء في العدّة، وأبو الخطاب في التمهيد، وابن قدامة في الروضة، وابن تيمية في المسوّدة. الأصوليون الحنابلة أنفسهم يقولون إن أحاديث الآحاد لا تفيد اليقين. وهذا هو المعقول لأنه تلابسها أشياء لا يمكن أن تفيد اليقين.

من أدوات الشيخ الغزالي في الدعوة العقل، العقل المبصر. العقل المؤمن، هو عقل، ولكنه عقل في إطار قواطع الإسلام، القواطع الإسلامية يحترمها، ويعمل في إطارها.

ولذلك أنا أريد أن أعقّب على مقولة أن العقل في بعض المجالات ليس له دور، كما فهمت من كلام الأخ الأستاذ الدكتور فهمي جدعان، أنه لا دور للعقل في مسائل التشريع إنما هو دور الوحي؛ لا! العقل له دور حتى في هذه المنطقة؛ ليس دور العقل محصوراً في مجالات الكون والأشياء الطبيعية، لا! حتى مع الوحي للعقل دور أساسي، هناك أشياء لم ينص عليها الوحي، وهناك أشياء نص عليها الوحي نصاً كلياً. وهناك أشياء نص عليها الوحي نصاً جزئياً، ولكنها تحتمل أفهاماً عدة. العقل هو الذي يدخل هنا؛ يستنبط في ما لا نص فيه، ويفهم ما فيه النص. لذلك اختلفت المدارس وتعددت المشارب والمذاهب، فالعقل له دور حتى مع النص، ولهذا استخدم الشيخ الغزالي عقله في فهم الشريعة وفهم العقيدة، لذلك رفض بعض الأحاديث التي تخالف العقل في رأيه، رفض الأحاديث مثل: «لولا بنو إسرائيل لم يخنز (أي يفسد) اللحم»، و «لولا حواء لم تخن أنثى زوجها». رغم أن هذا في صحيح البخاري. قال: إن اللحم يخنز ويفسد قبل بني إسرائيل وبعدهم، هذا قانون من قوانين الحياة، إذا تركت اللحم يتغير بعد مدة وينتن. وقال: إن حواء ما خانت آدم، وليس عندنا في الإسلام أن حواء خانت. فهو يستخدم عقله. بعض الناس ينكر عليه هذا، كيف ينكر حديثاً في الصحاح؟ وكأنما يريد البعض أن يخرجه من الملّة؛ بسبب رفضه لعدة أحاديث مما ورد في الصحاح. الشيخ لم ينكر السنّة، بالعكس هو دافع عنها في عدد من كتب؛ في كتابه فقه السيرة، وفي كتابه ليس من الإسلام، وفي عدد من الكتب، وأنا نقلت شيئاً من دفاعه في كتابي هذا. هو يدافع عن الإسلام، هو داعية يريد أن يعرض الإسلام معقولاً مقبولاً، موافقاً للفطرة، موافقاً للمسلّمات العقلية والدينية، فما خالف هذه المسلّمات من أحاديث الآحاد رفضه وإن جاء في الصحاح.

وهذا لا يضرّ الشيخ الغزالي فمنذ عهد الصحابة، أنكرت عائشة -رضي الله عنها- أحاديث؛ أنكرتها على صحابة سمعوها بآذانهم، قالت: لا، لم يفهموها، أو حرّفوا فيها، أو غيروا فيها، لأنها رأتها مخالفة للقرآن. لا، كيف تقول هذا والله يقول: وما أنت بمسمع من في القبور ولا تزر وازرة وزر أخرى[٣].

وقد صُنّفت كتب فيما استدركته عائشة عن الصحابة، ولم يقل أحد إن عائشة خرجت من الإسلام بردّها لهذه الأحاديث، ما من إمام من الأئمة إلا وردّ أحاديث لسبب معين، مالك وأبوحنيفة وغيرهم. فهذا العقل، عقل الشيخ الغزالي المبصر، ردّ به ما يرد، ورجح ما رجح في قضايا كثيرة في الفقه. ولكنه حينما يرجح، لا يرجح بالهوى، كما وضّح الأخ الدكتور الصوا ذلك بحق. هو عنده منهجية معينة، وأصول ثابتة، يحاكم إليها الأشياء، فعقله مؤمن، وليس عقلاً متمرداً على الوحي. حينما اختار مثلاً في قضية أن المرأة ديتها كدية الرجل، فأنكروا عليه هذا، لأن هذا ضد المذاهب الأربعة. صحيح أن هذا ضد المذاهب الأربعة، لكن الإجماع لم ينعقد في هذه القضية، فقد خالف فيها الأصمّ، وابن عليّة، كما ذكر الشوكاني. ولم يصح فيها حديث، كل الأحاديث التي استدل بها من استدل على أن دية المرأة على نصف من دية الرجل لم يصح منها شيء، باعتراف أئمة الحديث أنفسهم. هذا عقل الشيخ الغزالي، وهو الذي رد به على الشيوعيين وأبطل منطقهم.

يرى الإيمان الحب في الله والبغض في الله، أنا أسمّي هذا النفس الشاعرة. قال الشيخ الغزالي: في سنة ١٩٥١م زار مصر الداعية الإسلامي الهندي الشاب، في ذلك الوقت، الشيخ أبو الحسن الندوي، وكان معه عدة رسائل . ومن هذه الرسائل التي كتبها الشيخ الندوي رسالة «من العالم إلى جزيرة العرب ومن العرب إلى العالم»، العالم يقول لجزيرة العرب: أيتها الجزيرة أين الرسالة التي قمت بها، وأين كذا؟ وأين كذا؟ كلمات عاطفية قوية معبرة. ثم ردت الجزيرة على العالم. فالشيخ الغزالي علق على هذا فقال: والله لا يخدم هذا الإسلام إلا نفسٌ شاعرة. وأنا كنت أظن أنه لم يقل الشعر. فالأخ الدكتور علاء محمد الغزالي قال قبل قليل إنه قال بعض الأبيات. إنما على كل حال لم يكن شاعراً، ولم يحسب في الشعراء، ولكنه كان ذا نفس شاعرة. كان ذا قلب فياض. لا بد للداعية أن يكون إنساناً ذا مشاعر، لا كتلة جامدة، ويعيب الغزالي على بعض الناس أنه ليس عندهم قلوب، يعيشون في الألفاظ ويجمدون عليها، ولكن لا قلوب لهم. هذه الصخور لا يمكن أن تصلح للدعوة للإسلام. الدعوة للإسلام ليست جموداً، إنما الدعوة للإسلام هي هذه

العاطفة السمحة الحلوة. لذلك كان كل من عايش الشيخ الغزالي يحبه، حتى الذين يختلفون معه لـمّا عاشروه أحبّوه. هو إنسان سمح، لطيف المعشر. سريع النكتة، ما تجلس معه إلا ويسمعك أكثر من نكته، وأحياناً يستخدم النكت حتى في الدعوة. لما سئل هل الإنسان مسيّر أم مخيّر؟ فقال لهم: الإنسان في الغرب مخير وأما في الشرق فهو مسير! فأحياناً يحل المشكلة بنكتة، فهذا طبعاً سؤال من الأسئلة العويصة القديمة الجديدة، هكذا كان الشيخ الغزالي.

ثم كانت هناك أداة أخرى أختم بها حتى لا أطيل، وهي الروحانية الدافقة. كان الشيخ الغزالي صوفي القلب، لم يكن صوفي الطريقة، ما دخل طريقة صوفية. منذ سنوات حين استضفته في قطر أستاذاً زائراً وبقي معنا ثلاث سنوات، سعدنا به، جاء أحد إخواننا ممن سلكوا الطريق الصوفي، كان من الإخوان سابقاً، وكان يسكن معي وقال له: يا فضيلة الشيخ، أنا أريد أن تختم حياتك بأن تأخذ عهداً على شيخي، فقال له: يا فلان، هل هناك شيخ بعد حسن البنا. نحن أخذنا عن حسن البنا الإسلام كله بشموله وتوازنه وعمقه. نعم أخذ الغزالي عن حسن البنا المنهاج الشامل، وعاش هذا الإسلام، ولكنه كان يملك قلباً صوفيا، كان يملك هذه الروحانية الدافقة، ومن عاشره أحسّ بهذه الروحانية، ومن قرأ له تأثر به وإن كنت أعتقد فيه الإخلاص. ما سمعته إلا تأثرت به، لأنّ الرجل كان يتكلم من قلبه، يعبر عما يجيش في نفسه، ليس زائفاً ولا مزيفاً ولا متكلفاً، هو كما خلقه الله وكما فطره الله، عاش" لم يخلط إسلامه بشيء آخر. وقد شرح في كتابه "الجانب العاطفي من الإسلام"، شرح بعض حِكَم ابن عطاء السكندري شرحاً عصرياً بلغته الأدبية البيانية الرائعة.

وكان بين الغزالي والأستاذ حسن الهضيبي شيء ثم أصلحه وأثنى عليه ثناءً كبيراً، وعندما علم أن الهضيبي أوصى بأن يُدفن في مدافن الصدقة تأثّر تأثُّراً بالغاً، وكتب يقول: «من أيام مات الأستاذ حسن الهضيبي –المرشد الثاني لجماعة الإخوان– وبلغتني وصيته: لقد أوصى أن يدفن خفيه، لا إعلان ولا مواكب، وطلب أن يوارى جثمانه في مقابر الصدقة. وعقدت لساني دهشة، وأنا أسمع العبارة الأخيرة (في مقابر الصدقة)!.

إنني أعرف حسن الهضيبي، وقد أصلحت ما بيني وبينه قبل أن يموت بنحو عامين...في نفس هذا الرجل ترفع وأنفة لا يتكلفها، وهو إذا اعتقد شيئاً استمات فيه دون لف أو مكر.

قلت: لم مقابر الصدقة؟!

ولم يغب عني الجواب. لقد كان مستشاراً راسخ المكانة، رفيع الهامة، لو اشتغل بمهاجمة الشريعة الإسلامية لنال جائزة الدولة التقديرية التي نالها غيره. ولو خدم الغزو الثقافي لعاش في بحبوحة موفور الراحة، مكفول الرزق، ولكنه خدم الإسلام، فتجرّع الصاب والعلقم! طعن مع الدين الجريح، وأُهين مع الدين المهان! فأراد أن تصحبه هذه المكانة في منقلبه إلى الله.

فليدفن في مقابر الصدقة مع النكرات التي لا يباليها المجتمع! فليدفن مع ناس أسلموا أرواحهم في غرفات السجن الحربي، وهم رازحون تحت وطأة عذاب تنوء به الجبال!

الحق يقال: إن الأمة المصرية خاصة، والأمة الإسلامية جمعاء، يجب أن تراجع نفسها طويلاً قبل يوم الحساب...[٤]

وعلق على موقف رجل قال له: أيها الشيخ أنا أذنبت وأريد أن أتوب، فيقول: «ومن يدري لعل هذا الشخص أقرب إلى الله منّي. لعله بشعوره بما أذنب وشعوره بتفريطه في جنب الله يكون أقرب إلى الله منا. من يدري لعل أعمالنا هذه مغشوشة أو مدخلوة» إلى آخر ما قاله رحمه الله. كان الشيخ الغزالي يملك روحانية دافقة. كان يكثر قراءة قصيدة ابن الرومي في قوام الليل، وهي قصيدة عينية مشهورة، كان يقولها وعيناه تذرفان[٥]. هكذا كان الشيخ الغزالي أيها الأخوة، عاش الشيخ الغزالي داعية إلى الإسلام، مدافعاً عن الإسلام ومهاجماً لأعداء الإسلام. وكُتُبه هكذا، تقرأها إما دفاع عن الإسلام وإما هجوم على أعداء الإسلام. هجوم على اليهود كما نرى في كتاب "حصاد الغروب"؛ هجوم على المنصرين كما في كتابه "صيحة تحذير من دعاة التنصير"؛ هجوم على المستشرقين كما في ردّه على

جولد زيهر.؛ هجوم على الشيوعين كما في كتابه "الإسلام في وجه الزحف الأحمر"؛ هجوم على الحضارة الغربية كما في كتابه "ظلام من الغرب"، هجوم على الاستعمار كما في كتابه "الاستعمار أحقاد وأطماع"؛ هجوم على القومية العلمانية اللادينية كما في كتابه "حقيقة القومية العربية وأسطورة البعث العربي" ....الخ.

كل كتبه هجوم أو دفاع. هذا هو الشيخ الغزالي. أنا أيها الأخوة لا أستطيع أن أوفي الشيخ الغزالي حقه في كلمات مهما كانت، والحق أننا مع الشيخ الغزالي أمام قائد كبير من قادة الفكر والتوجيه، وإمام فذ من أئمة الفكر والدعوة والتجديد. بل نحن أمام مدرسة متكاملة متميزة من مدارس الدعوة والفكر والإصلاح، لها طابعها، ولها أسلوبها، ولها مذاقها الخاص. وتحتاج إلى دراسات عدة لإبراز خصائصها ومواقفها وآثارها. فليس الغزالي ملك نفسه، ولا ملك جماعة أو حركة، ولا ملك قطر أو شعب، بل هو ملك الأمة الإسلامية جمعاء.

نحن أمام عالم مفكر، عاش عمره كله للإسلام، لا يشرك به شيئاً آخر، ونذر له فكره وقلبه، ولسانه وقلمه، وجهاده واجتهاده، وخاض معارك حياته كلها تحت راية الإسلام، رافضاً كل راية جاهلية، بأي اسم ظهرت، وتحت أي عنوان تزيّنت للناس، متخذاً شعاره: ﴿إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي" رب العالمين * لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين﴾ (الأنعام: ١٦٢، ١٦٣). لم يتخد غير الله ولياً، ولم يبتغ غير الله حكماً، ولم يبغ غير الله رباً، وهو رب كل شيء.

لقد عاش الشيخ بشعور يغمره ويملأ فؤاده ووجدانه أبداً: أنه حارس من حراس هذا الدين الأيقاظ، ولا ينبغي أّن يؤتى الدين من قِبَله وتفريطه، بل يجب أن يتنبه دائماً لأعدائه في الداخل والخارج، وأن يقف لهم بالمرصاد مدافعاً ذائداً، بل مقاتلاً مهاجماً، فخير وسائل الدفاع الهجوم، لا يلقي السلاح، ولا ينشد الراحة، ومعركة المصحف في العالم الإسلامي قائمة، والحرب على الإسلام وأمته دائرة، والدم الإسلامي مستباح، وأكثر الموكلين بالحراسة يغطّون في نوم عميق، أو مشغولون بالجدل حول فروع المسائل، وصغائر الأمور!.

لقد كتبت الأقدار على الشيخ أن يحارب في جبهتين واسعتين:

الأولى: جبهة الخصوم الكائدين للإسلام، المتربصين به الشر، الكارهين لانتشار أنواره وعودته إلى قيادة الحياة من جديد. بعض هؤلاء من خارج الإسلام، ومن خارج أرضه من القوى العالمية التي تخافه أو تبغضه: من اليهودية والصليبية والشيوعية والوثنية، الذين اختلفت دياناتهم، واختلفت طرائقهم، ولكن اتحدت أهدافهم على ضرب الإسلام، ووقف مسيرته، ووضع الأحجار والعثرات في طريقه. وهم الذين قال الله فيهم: ﴿والذين كفروا بعضهم أولياء بعض﴾ (الأنفال: ٧٣)، ﴿وإن الظالمين بعضهم أولياء بعض﴾ (الجاثية: ١٩).

وبعض آخر –للأسف الشديد– من داخل أرض الإسلام، بل من أبناء المسلمين أنفسهم، وممن يحملون أسماء المسلمين: محمد وأحمد، وحسن وحسين، وعمر وعلي... ولكنهم لا يضمرون للإسلام إلا شراً، ولا لدعاته إلا عداوة، ولا لشريعته إلا تنكراً... وربما عادوه؛ لأنه ضد شهواتهم المحرمة، وضد مظالمهم المفترسة، وضد مصالحهم الآثمة، وضد مطامعهم الفاجرة.

والجبهة الثانية: جبهة (الأصدقاء الجهلة) للإسلام، الذين يضرون الإسلام أبلغ الضرر من حيث يريدون أن ينفعوه، يهشمون وجهه من حيث يظنون أنهم يدفعون ذبابة عنه! هؤلاء الذين سمّاهم الشيخ (الدعاة الفتانين) الذين يشغلون الناس بالفروع عن الأصول، وبالجزئيات عن الكليات، وبالمختلف فيه عن المتفق عليه، وبأعمال الجوارح عن أعمال القلوب.

إنه يشكو من دعاة أغلبهم نكبة على الإسلام، وقذى في عينه! إنهم لا يقرؤون ولا يعانون، والقليل من الحقائق لديهم لا يضعونه في موضعه الصحيح، وعلل الأمة لا تلقى منهم أساة ولا بكاة؛ لأنهم مشدودون إلى جدليات الماضي السحيق، ولا يدركون ما جدّ حولنا، ولا الطفرات الهائلة التي قفزت بها الحياة على أرضنا.

وإذا كان الجسم المصاب بفقر الدم يسقط في أول مراحل الطريق، فالعقل المصاب بفقر المعرفة أعجز من أن يلاحق مطالب الجهاد، أو يلبي حاجات الحق.

إن مكمن الخطر على مستقبل الإسلام ومستقبل أمته وصحوته، تكمن في هؤلاء الذين وجه إليه الشيخ جُلَّ كتبه في المرحلة الأخيرة، عساهم أن يتعلموا من جهل، وينتبهوا من غفلة، وينتهوا عن الإعجاب بالرأي، والازدراء للغير، وأن يتعلموا الذلة على المؤمنين، والتوقير للكبار، والرحمة للصغار.

وأحب أن أقول :إنّ الشيخ الغزالي ليس معصوماً وليس مبرأ من العيوب، هو بشر من البشر، ولكن الشيخ الغزالي في مجموعه هو رجل الإسلام، عاش للإسلام ومات من أجل الإسلام، وبقي في المعركة إلى آخر لحظة، مات والسيف في يده. هكذا الشيخ الغزالي. فإذا كان للشيخ الغزالي عند بعض الناس أخطاء يرونها فهذه لا تنقص منه، وكما جاء في الحديث «إذا بلغ الماء قلتين لم يحمل الخبث» فكيف إذا كان بحراً لا تكدره الدّلاء.

نعم قد تخالف الغزالي أو يخالفك، في قضايا تصغر أو تكبر، وتقل أو تكثر، ولكنك -إذا عرفته حق المعرفة- لا تستطيع إلا أن تحبه وتقدره، لما تحُسُّه فيهِ وتلمسه من إخلاص"، وتجرد للحق، واستقامة في الاتجاه، وغيرة صادقة على الإسلام.

صحيح أنه أُخذ على الشيخ أنه سريع الغضب، وأنه إذا غضب هاج كالبحر، حتى يُغرق، وثار كالبركان حتى يُحرق. وهذا ما لا يجحده الشيخ الغزالي، وما يعلمه من نفسه، ويعلمه من عايشه وعاشره. وسر هذا أن الرجل يبغض الظلم والهوان لنفسه وللناس، ولا يحب أن يظلم أو يُظلم، ولا أن يستخف بكرامة أحد، كما لا يستخف بكرامته أحد. كما أنه لا يطيق العوج ولا الانحراف، وخصوصاً إذا لبس لبوس الاستقامة، أو تستر بزيّ الدين، فهو الذي يقاتله سراً وعلانية. فإذا رأى ظلماً أو عوجاً -في رأي نفسه على الأقل- لم يستطع أن يغلق فمه أو يغمد قلمه، بل صب عليه جام سخطه، ولم يحفل بما يصيبه من شرر الصدام.

ولكن يكمّل هذا أن الشيخ لا يفجر في خصومته، ولا يفتري على خصمه، أو يتمنّى له السوء، أو يشمت به إذا نزل به بلاء. ثم إن من صفات الشيخ الغزالي أنه -إن كان سريع الغضب- فهو سريع الفيء، رجّاع إلى الحق إذا تبين له، ولا يبالي أن يعلن خطأه على الناس علانية، وهذه شجاعة لا تتوافر إلا للقليل النادر من الناس. فهو شجاع عندما يهاجم ما يعتقده خطأ، شجاع عندما يعترف بأنه لم يحالفه الصواب فيما كان قد رآه.

رحم الله الشيخ الغزالي في الصالحين من عباده، وجزاه خير ما يجزي الأئمة العالمين العاملين، الهداة المهتدين، جزاه الله عن هذه الأمة وعن هذا الدين خير ما يجزي العباد الصالحين، وخلفه في أهله وأولاده بخير ما يخلف الصادقين. وأسأل الله تعالى أن يجعلنا وراءه سائرين على الدرب، متمسكين بالحق، مقاومين للباطل، دعاة إلى الله على بصيرة ﴿ومن أحسن قولاً ممن دعا إلى الله وعمل صالحاً وقال إنني من المسلمين﴾.

أقول قولي هذا، وأستغفر الله لي ولكم، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

الهوامش

(١) الطبعة الأولى/ دار الوفاء بالمنصورة ١٩٩٥.

(٢) صدرت إضافة إلى كتاب الدكتور القرضاوي مجموعة كتب عن الشيخ الغزالي قبل وفاته منها:

١. دفع الشبهات عن الشيخ محمد الغزالي، تأليف د. أحمد حجازي السقا، مكتبة الكليات الأزهرية/ القاهرة ١٩٩٠

٢. الشيخ محمد الغزالي: الموقع الفكري والمعارك الفكرية، تأليف د. محمد عمارة/ الهيئة المصرية العامة للكتاب،القاهرة ١٩٩٢.

٣. الشيخ الغزالي ومعركة المصحف في العالم الإسلامي، تأليف محمد شلبي/ دار الصحوة، القاهرة ١٩٨٧.

٤. الشيخ محمد الغزالي: صور من حياة مجاهد عظيم ودراسة لجوانب من فكره، تأليف د. عماد الدين خليل وآخرون/ دار الصحوة، القاهرة ١٩٩٣.

٥. حوار هادئ مع محمد الغزالي، تأليف سليمان بن فهد العودة، دار الوطن العربي، طبعة ثانية ١٤١٣هـ.

٦. نظرات في فكر الغزالي، تأليف عامر النجار، دار المعارف، القاهرة، طبعة ثانية ١٩٩٢م

(٣) انظر السنة النبوية بين أهل الفقه وأهل الحديث للشيخ الغزالي، الطبعة الرابعة دار الشروق ١٩٨٩. ص ١٦ يقول رحمه الله: انظر موقف عائشة –رضي الله عنها– عندما سمعت حديث: إن الميت يعذب ببكاء أهله عليه! لقد أنكرته، وحلفت أن الرسول ما قاله، وقالت تبياناً لرفضها إياه «وأين منكم قول الله سبحانه ﴿ولا تزر وازرة وزر أخرى﴾»، وفي مكان آخر ص١٧ يقول: «والذي تؤكده عائشة أن الرسول

ﷺ قال: إن الكافر يعذب ببكاء أهله عليه، وينقل رواية ابن أبي مليكة وفي آخرها ... فلما مات عمر ذكرتُ ذلك لعائشة، فقالت: رحم الله عمر! والله ما حدّث رسول الله ﷺ أن الميّت يعذب ببكاء أهله عليه، ولكن رسول الله قال: «إن الله ليزيد الكافر عذاباً ببكاء أهله عليه».

(٤) قذائف الحق للغزالي ص ١٠٨.

(٥) من أبياتها:

تتجافى جنوبهم	عن وطئ المضاجع
كلهم بين خائف	مستجير وطامع
تركوا لذة الكرى	للعيون الهواجع
واستهلت عيونهم	فايضات المدامع
ودعوا «يا مليكنا	يا جميل الصنايع
اعف عنا ذنوبنا	للوجوه الجواشع
أنت إن لم يكن لنا	شافع - خير شافع»
فأُجيبوا إجابة	لم تقع في المسامع
«ليس ما تصنعونه	أوليائي بضائع
فابذلوا لي نفوسكم	إنها في ودائعي»

انظر ديوان ابن الرومي جزء١، ص٤٩، طبعة المكتبة التجارية الكبرى، القاهرة (بدون تاريخ).



لقطة تذكارية للشيخ القرضاوي وبعض الضيوف مع مجموعة من الحضور

قصيدة رثاء للمرحوم الشيخ محمد الغزالي

عدنان ساري الزبن

مستشار وزير الأوقاف والشؤون والمقدسات الإسلامية

مضى فآلم والآمالُ ترتحلُ — والعمرُ ومضةُ نور حدُّها الأجلُ

فَقْدُ الفقيه الإمام البحر نعرفه — بموقف الصدق لا خوفٌ ولا وجل

يبكي اليراع فقيد العلم أدْمُعُهُ — ذكرى تئِنّ وخَطْبٌ راعنا جلل

لله درّك بحراً فاض عن ثقة — وأترع العلم فكراً كله أمل

لا يعرف البُغْضَ عن نفس مكرّمة — هي العروبة والإسلام والمثل

كم ذا اجتهدت فكنت البدر مكتملاً — به التلامذة الأبرار قد كَمُلوا

أنّى تلفتّ في الدنيا لكم أثرٌ — يحيى نفوس الحيارى حيثما نزلوا

أنت الغزالي تغزو الجهل تمحقُه — بأجمل الفكر منكم ضاءت السُّبُل

فيعلم الناس من أهلي ومن ثقتي — إذا تزاحم أهل الجهل وانتحلوا

لا يعرف النوم إلا حين يدهمه — على الكتاب فهذا العلم والعمل

أوقاته قُسمت علماً وتذكرة — ودعوة لم تزل بالله تتصل

ليبكك الشعر يا أستاذ منحنيا — لسيد الفكر هذا الشعر يرتجل

ما تحدثت فكل الناس صاغية — وإن كتبت فنعم الناصح الرّجل

هم يعرفونك للجلّى أخو ثقة — يا غالب الجهل لا غمر ولا وكل

وملءُ جنبيك عزم لا مثيل له — وفي فؤادك نور الله يمتثل

نعم ابتسامتك الجذلى تؤانسنا — وقلبك اللطف والآمال والجذل

فليرحم الله من كانت نصائحه — لله خالصة دستورها العمل

قائمة مؤلفات الشيخ محمد الغزالي

١. الإسلام والأوضاع الاقتصادية.
٢. الإسلام والمناهج الاشتراكية.
٣. الإسلام والاستبداد السياسي.
٤. الإسلام المفترى عليه بين الشيوعيين والرأسماليين.
٥. من هنا نعلم.
٦. تأملات في الدين والحياة.
٧. خلق المسلم.
٨. عقيدة المسلم.
٩. التعصب والتسامح بين المسيحية والإسلام.
١٠. فقه السيرة.
١١. في موكب الدعوة.
١٢. ظلام من الغرب.
١٣. جدد حياتك.
١٤. ليس من الإسلام.
١٥. من معالم الحق.
١٦. كيف نفهم الإسلام.
١٧. الاستعمار احقاد واطماع.
١٨. نظرات في القرآن.
١٩. مع الله – دراسات في الدعوة والدعاة.
٢٠. معركة المصحف.
٢١. كفاح دين.
٢٢. الإسلام والطاقات المعطلة.
٢٣. حقوق الإنسان بين تعاليم الإسلام وإعلان الأمم المتحدة.
٢٤. هذا ديننا.
٢٥. حقيقة القومية العربية واسطورة البعث العربي.
٢٦. الجانب العاطفي من الإسلام.
٢٧. دفاع عن العقيدة والشريعة ضد مطاعن المستشرقين.
٢٨. ركائز الايمان بين العقل والقلب.
٢٩. حصاد الغرور.
٣٠. الإسلام في وجه الزحف الأحمر.
٣١. قذائف الحق.
٣٢. الدعوة الإسلامية تستقبل قرنها الخامس عشر.
٣٣. فن الذكر والدعاء عند خاتم الأنبياء.
٣٤. دستور الوحدة الثقافية بين المسلمين.
٣٥. واقع العالم الإسلامي في مطالع القرن الخامس عشر.
٣٦. مشكلات في طريق الحياة الإسلامية.
٣٧. هموم داعية.
٣٨. مائة سؤال في الإسلام.
٣٩. علل وأدوية.
٤٠. مستقبل الإسلام خارج أرضه وكيف نفكر فيه.
٤١. قصة حياة.
٤٢. سر تأخر العرب والمسلمين.
٤٣. الطريق من هنا.
٤٤. جهاد الدعوة بين عجز الداخل وكيد الخارج.
٤٥. الحق المر. (في خمسة أجزاء).
٤٦. الغزو الثقافي يمتد في فراغنا.
٤٧. المحاور الخمسة للقرآن الكريم.
٤٨. السنة النبوية بين أهل الفقه وأهل الحديث.
٤٩. قضايا المرأة بين التقاليد الراكدة والوافدة.
٥٠. تراثنا الفكري في ميزان الشرع والعقل.
٥١. كيف نتعامل مع القرآن الكريم.
٥٢. صيحة تحذير من دعاة التنصير.
٥٣. نحو تفسير موضوعي. (في ثلاثة اجزاء، ثم جمعت في مجلد واحد).
٥٤. من كنوز السنة. (تحت الطبع).

قائمة كتب عن الشيخ محمد الغزالي

١ . دفع الشبهات عن الشيخ محمد الغزالي، د. أحمد حجازي السقا.

٢ . الشيخ محمد الغزالي: صور من حياة مجاهد عظيم.

٣. الشيخ محمد الغزالي: الموقع الفكري والمعارف الفكرية، د. محمد عمارة.

٤. الشيخ الغزالي ومعركة المصحف، أ. محمد شلبي.

٥. الشيخ الغزالي كما عرفته في نصف قرن، د. يوسف القرضاوي.

٦. نظرات في فكر الغزالي، د. عامر النجار.

٧. خطب الشيخ محمد الغزالي، ج١،

٨. خطب الشيخ محمد الغزالي، ج٢،

تعريف موجز بكتب الشيخ محمد الغزالي

١) الإسلام والأوضاع الاقتصادية

تقع الطبعة السابعة من هذا الكتاب في ٢١٤ صفحة وقد صدرت عن دار الصحوة ١٩٨٧م. وكانت الطبعة الأولى من الكتاب عام ١٩٤٧م، أول ما أصدر الغزالي من كتب، وقد كتب المؤلف مقدمة الطبعة السابعة مؤكداً أن في الكتاب لمحات وجب إعادة النظر فيها، وأن كثيراً من مواطئ الاقدام تحتاج إلى تبين، وأن بعض الآراء والاجتهادات ربما تحتاج إلى تمحيص، مع ظهور حقائق جديدة، مع ما أفاده المؤلف من تجربة العقود الماضية.

ومن عناوين الكتاب: الطبقات المترفة والطبقات البائسة، الصراع بين الخير والشر، هل للرذائل أسباب اقتصادية؟ هل للفضائل أسباب اقتصادية؟ الاستعمار الداخلي يمهد للاستعمار الخارجي، سوء استغلال الدين في حل المشاكل العامة، ضوابط الملكية الخاصة في الإسلام، هل تغني ضريبة الارض عن زكاتها؟، المجتمعات المنحطة لا يزدهر فيها دين، قيمة العقل والدين.

٢) الإسلام والمناهج الاشتراكية.

يقع الكتاب في ٢٧٠ صفحة، وهو من منشورات دار الكتب الحديثة. وهذا الكتاب صيحة تنبيه ضد ما يحيق بالإسلام من تآمر ومن تهديد لشرف الدعاة إليه، وهو دعوة ممتلئة بالتفاؤل للعودة إلى منابع الإسلام الأصيلة، وتحديد موقفه من العلم والنظام السياسي، والنظام الاقتصادي، والنظام الاجتماعي ومواقفه من المذاهب الحديثة.

ومن أبرز عناوينه: الإسلام في أوطانه، شرف الدعاة إلى الإسلام مهدد، التأمين الاجتماعي، مجتمع مثالي، عمل الدولة، فلسفة الغنى والفقر، القعود عن الدنيا هدم للدين، الفساد السياسي أخبث علل المسلمين، توزيع الملكيات، موضع الفرد من الحياة العامة، نظام ملكية الأرض في الإسلام، الدين والربا، الاحتكار، الصراع بين الشيوعية والإسلام.

٣) الإسلام المفترى عليه بين الشيوعيين والرأسمالين.

يقع الكتاب في ١٧٨ صفحة، وكانت الطبعة الأولى من الكتاب قد صدرت عن دار الكتاب العربي في القاهرة عام ١٩٥٠. ويقول المؤلف في مقدمة الكتاب «كادت هذه الصحائف تضيع، في أثناء الأزمة العصيبة التي أصابت الفكر والقلم وطمست الحقوق والحريات، على عهد الاحتلال الداخلي للإدارة المصرية، أيام حكم الاقليات السياسية في الفترة ١٩٤٤-١٩٤٩... (وقد تم) استنقاذ هذه الصحائف من براثن العدم، برغم أن كثيراً من غيرها ضاع في خلال الارهاب المنظم الذي خرّب البيوت وفتح المعتقلات... ولقد نشرت في الكتابين السابقين لهذا الكتاب بحوثاً مستفيضة عن حقيقة النظام الماليّ في الإسلام أو ما أسميناه على سبيل التجوز «الاشتراكية الإسلامية». وأستطيع القول بأننا أسخطنا الرأسماليين والشيوعيين بهذا المنهج الذي جنحنا إليه».

وقد نشر أغلب الكتاب من قبل فصولاً متفرقة، على نحو ثلاثين عدداً من إحدى المجلات الدينية. ويؤكد المؤلف في مقدمة الطبعة الثالثة أن الكتاب وأخواه من قبل «الإسلام والاوضاع الاقتصادية» و«الاسلام والمناهج الاشتراكية» أول ما خُط في اللغة العربية من كلام في هذا الموضوع، وأن هذا الكلام كان مستغرباً في ميادين الدين والادب والسياسة. وأنه أي الشيخ الغزالي بدأ السير وحده في هذا الميدان ثم أردكه بعد من أربى وأجاد.

والكتاب في مجمله كشف جريء للمظالم الاقتصادية المؤلمة، التي تئن تحت وطأتها الشعوب في البلدان الخاضعة للاستعمار الابيض والاحمر على السواء... وقد جاءت مقالات هذا الكتاب قصيرة مختصرة، ولكنها مجمعة في فصول عامة بالعناوين

التالية: الحضارة بين الايمان والإلحاد، دعائم الاخوة العامة، نماذج العدالة في الإسلام، الفقه الإسلامي يساير التطور الاقتصادي، المتحدث الرسمي باسم الإسلام، دروس من السماء.

٤) الإسلام والاستبداد السياسي.

يقع الكتاب في ٢٢٧ صفحة، وهو من منشورات دار الكتب الإسلامية، الطبعة الثالثة ١٩٨٤. وأصل الكتاب محاضرات ألقاءا الغزالي في معتقل الطور عام ١٩٥١. ونظر بعضها فيما بعد في بعض المجلات ولم تجمع في كتاب إلا بعد بضع عشرة سنة، وكان لها دويّ بعيد المدى في إقلاق الظلمة، وكانت استجابة القدر لها أسرع مما يتصور الكثيرون. وقد هتك المؤلف لهذا الكتاب أستار الاقطاع المدبّر، وحذّر الشعوب من مغبة الإستسلام له في أحوال مالمجتمع والدولة.

ويؤكد الشيخ الغزالي في الكتاب أن الإسلام لم يعرف حكم الفرد أو الحكم الدكتاتوري، بل كانت تعاليمه ومبادؤه تدعوا إلى الشورى والرأي الجماعي، وذلك كان حال المسلمين في عهد الرسول ﷺ والخلفاء الراشدين، كما حثّ الإسلام على الجهاد فجعله واجباً على كل مسلم لديه القدرة على الجهاد، ثم يتناول الشيخ الغزالي بعض القضايا الإسلامية المعاصرة ليقول رأيه فيها.

ويتضمن الكتاب: الشورى، الجهاد، الرق في الجاهلية، قضايا معاصرة، قضايا إسلامية.

٥) من هنا نعلم.

يقع الكتاب في ٢٤٣ صفحة، وهو من منشورات دار الكتب الحديثة، الطبعة السادسة ١٩٦٥. وفي هذا الكتاب يرد الشيخ الغزالي على كتاب من هنا نبدأ للأستاذ خالد محمد خالد، لما فيه من شطط وخلط للمفاهيم الإسلامية؛ لأن حرية الرأي لا تعنى حماية

الخطأ والسكوت عليه. وبيّن المؤلف أن علاقة الدين بالدولة في الاسلام وحدة لا تقبل التجزئة، وأن كل محاولة للفصل بينهما إنما هي إفساد للإسلام وعدوان عليه، من حيث هو عقيدة وشريعة على السواء. ولم يكن الكتاب مجرد ردّ لشبهات أثارها الشيخ خالد بقدر ما كان دفاعاً عن تعاليم الإسلام وبياناً لقيمه. ومع أن الشيخ الغزالي شديداً في هجومه فإنه كان رفيقاً مع الشيخ خالد، بل استمر في علاقته به بعد الكتاب ورفض فتوى الازهر بتجريده من شهادته.

ويتضمن الكتاب ردود الشيخ حول الحدود وضرورة إقامتها، وبدعة فصل الدين عن الدولة، وعن دور المرأة الاجتماعي، وعن الكهانة والإسلام، وعن الديمقراطية، وتحديد النسل، والقومية العربية والإسلام.

٦) تأملات في الدين والحياة.

يقع الكتاب في ٢٥٧ صفحة (طبعة دار الدعوة الثانية ١٩٩٢م) الكتاب مجموعة من المقالات والخواطر والبحوث واللفتات، عالجت أموراً لا تزال تستحق المزيد من النقد والنظر، وخير ما فيها أنها عرضت الدين على الناس نابضاً بالحياة والحركة، ونشدت للحياة ضوابط الايمان والتقى. وكتب كثير منها عندما كان الغزالي يحرر مجلة الاخوان المسلمين وبعض مقالات الكتاب ظهرت فيما بعد عن شكل كتب مستقلة. ويتحدث الشيخ الغزالي في مقدمة الكتاب عن بعض ملامح شخصيته، التي تبدو للناس مختلفة عمّا ألفوه في الدعاة ورجال الدين، كما يسمونهم. فهو لا يطيق التزمّت ولو تكلفه ما أحسنه، وأنه يجنح إلى المرح ويتلمس الجوانب الضاحكة في كل شيء. وأنه شعبي في تصرفه... وأنه يحبّ الناس، ويتمنى لهم الخير ويثق في صدق جماهير العامة من المسلمين ونقائهم... ويؤكد أن من الدعاة من مشوا في آثار مالنبوة وصدقوا الله جهادهم؛ لكن في بعض الناس زهاداً متصنعين ودعاة محترفين!.

من عناوين الكتاب: سياسة الحرية والكفاح، ذكريا ت من الريف، في صميم السيرة، نقد وتوجيه، صور من الماضي.

٧) عقيدة المسلم.

يقع هذا الكتاب في ٢٦٢ صفحة، الطبعة الثالثة، لدار الدعوة عام ١٩٩٠، ويحوي بحوثاً ميسرة في العقيدة الإسلامية، معززة بأصولها العلمية، وسائره في هدى نصوص الكتاب والسنة. وهذا الكتاب يمتاز عن كتب الفلاسفة والمتكلمين في أنه يخاطب العقل والقلب، ويثير العاطفة والفكر، ويوقظ الانفعالات النفسية مع إيقاظ للقوى الذهنية، وهو عملٌ حاسم في ميدان الإصلاح النفسي والاجتماعي والسياسي.

ولقد حاول المؤلف وهو يكتب عن العقيدة أن يرطب جفاف التفكير العقلي برشحات من المشاعر الحية، ولم يتكلف لذلك إلا أن جعل نصوص الكتاب والسنة نصب عينيه. ولذلك أكثر من الاستشهاد بهذه النصوص على خلاف أمهات الكتب الكلامية التي لا تكاد تعثر فيها على آية أو حديث إلا ما ندر.

ومن عناوين الكتاب: الحقيقة الأولى، الوحدة المطلقة، كمال الأعلى، القضاء والقدر، العمل أساس الإيمان، الخطيئة والمتاب، النبوات، والخلود.

٨) خلق المسلم.

طبعة دار القلم السادسة، سنة ١٩٨٧، في ٢٤٨ صفحة. هذا الكتاب عبارة عن نقول من الكتاب والسنة توجه المسلم إلى الفضائل التي يتم بها دينه، وتصلح بها دنياه وأخراه جميعاً. وقد مهد المؤلف لها وعقب عليها بتفاسير موجزة، تعالج ما انتاب المسلمين في هذه الأعصار من انحراف وهبوط نتيجة ما أصاب أخلاقهم من عقد وعلل.

ويعد الكتاب حلقة ثانية بعد كتاب عقيدة المسلم، ليكون جزءاً من منهج تربية المسلم على العقيدة الصحيحة والسلوك القويم.

ومن عناوين الكتاب: أركان الإسلام ومبادئ الأخلاق، نحو عالم أفضل، الإنسان بين الخير والشر، الحدود على الجرائم الخلقية، دائرة الأخلاق تشمل الجميع، الصدق، الأمانة ... القصد والعفاف، النظافة والتجمل والصحة، اختيار الأصدقاء، العلم والعقل، الانتفاع بالوقت، والاتعاظ بالزمن.

٩) التعصب والتسامح بين المسيحية والإسلام

يقع الكتاب في ٣٦٦ صفحة، من منشورات دار التوزيع والنشر الإسلامية، الطبعة الثانية ١٩٩٣م. قام أحمد المسؤولين المسيحيين بالطعن في الإسلام فتصدى له الغزالي في ذلك الوقت العصيب، فكان هذا الكتاب. وقد تعمد الشيخ أن لا يذكر اسم الطاعن حتى يموت في مهده. إن الأحقاد الطائفية والحروب الدينية غريبة على أرض الإسلام. وقد أَلِفَ هذا الدين منذ بدأ، أن يعاشر غيره على المياسرة واللطف، وأن يرعى حسن الجوار فيما يشرع من قوانين ويضع من تقاليد، والإسلام لم يقم على اضطهاد مخالفيه أو مصادرة حقوقهم، أوتحويلهم بالكره عن عقائدهم أو المساس الجائر بأموالهم وأعراضهم ودمائهم. وأهم موضوعات الكتاب: المسلمون وأهل الذمة، دخول المسيحية مصر، الإسلام بين التعصب والتسامح، افتراءات المستشرقين على الإسلام، تسامح الإسلام مع الديانات الأخرى.

١٠) فقه السيرة

يقع في ٤٩٨ صفحة (الطبعة الأولى لدار الريان للتراث في القاهرة عام ١٩٨٧). كتب الشيخ هذا الكتاب وهو دامع العين، جياش المشاعر، وقد كتب معظمه في الروضة الشريفة في المسجد النبوي، وبعضه في مكة أمام الحرم. واعتمد المؤلف فيه على الكتاب والصحيح من السنة والعقل الراشد، وقد سمح الغزالي للشيخ ناصر الدين الألباني بتحقيق الأحاديث الواردة في الكتاب، وحكم على بعض الأحاديث بالضعف، لكن الشيخ لم يتردد في إثبات رأي الألباني شاكراً له جهده، وموضحاً وجهة نظره في هذه الأحاديث. جمع الغزالي في كتابة هذا بين طريقة المؤرخين المحدثين الذين يميلون إلى التعليل والموازنة وربط الحوادث في سياق متماسك، وطريقة القدامى، الذين يعتمدون حشد الآثار وتمحيص الاسانيد وتسجيل ما دقّ وجلّ من الوقائع.

وبذلك جعل المؤلف بهذا الجمع من تفاصيل السيرة موضوعاً متماسكاً يشد اجزاءه روح واحد، ثم وزع النصوص والمرويات الأخرى بحيث تتسق مع وحدة الموضوع.

وبذلك كانت السيرة عنده شيئاً ينمّي الايمان ويزكي الخلق ويلهب الكفاح. وهو يكتب في السيرة كما يكتب جندي عند قائده أو تلميذ عن أستاذه، وقد جاء الكتاب في تسعة فصول هي: رسالة وإمام، من الميلاد إلى البعث، جهاد الدعوة، الهجرة العامة، أسس البناء للمجتمع الحديد، الكفاح الدامي، طور جديد، أمهات المؤمنين، الرفيق الاعلى.

١١) في موكب الدعوة.

يقع في ٢٦٢ صفحة، (طبعة دار الكتاب العربي الثانية عام ١٩٥٧م). في هذا الكتاب يستثير الشيخ الغزالي مشاعر الدعاة ويستنهض هممهم ويستصلح أوضاعهم ، حارب الوهن. ولم يكتب الشيخ هذا الكتاب ليعبر عن مذهب خاص به في الحياة وإنّما ليبرز رأي الإسلام فيما اعترضه من شئون.

ويظهر الشيخ في هذا الكتاب حزنه، لأن تخلف بعض القادة، في ميدان الدعوة، واضطراب أقدامهم في ميدان الواجب يعثر القوى الإسلامية م وأربكها.. والكتاب في جملته نقد لسياسة الجهة الإسلامية الداخلية؛ باعتبار أن تراضي تلك السياسة واعوجاجها مكن للدجالين والمنافقين.

من أهم عناوينه: موت الأبطال في الطريق، من صور القوة في القرآن، الوطنية الضيقة والوطنية الواسعة، من أخلاق النبوة، هل الحكم الشرعي كلام فارغ؟ نعم... دين الدولة الإسلام، الإسلام جامعة، جهاد وتربية، استغلال، فتنة لا تعليم، تحريف الكلم عن مواضعه، ذكرى.

١٢) ظلام من الغرب.

يقع في ٣٤٣ صفحة، صدرت الطبعة الثانية عام ١٩٦٥م، عن دار الكتب الحديثة. الكتاب رد على «المستشرقين المصريين» الذين ولدوا في بلادنا لكن عقولهم تربت في الغرب، فهم كفار بالعروبة والإسلام وسفراء للغرب. يهدف الكتاب إلى تجلية هذا الصنف من المستشرقين وتنحيته عن الحياة العامة.

ويتتبّع المؤلف في الكتاب الحركات العليلة، والنيّات المدخولة والمحاولات المستمرة للنيل من مكانة الدين وإظلام مستقبلة، على يد هؤلاء؛ إما عن فساد في عقولهم، أو فساد في ضمائرهم. ويثير المؤلف كل ذلك لصدّ الجاهلية الحديثة عن احتياج ديننا وأمّتنا.

من أهم عناوينه: بين العقل والعاطفة، عروبة وإسلام، تيارات متدافعة، في ميدان التشريع، جاهلية حديثة، كيف تصان الأخلاق، الأمم بين النماء والفناء، نحو وحدة إسلامية كريمة، الإسلام والمدنية الحديثة.

١٣) جدد حياتك.

يقع الكتاب في ٢٣٢ صفحة، (طبعة دار الدعوة الأولى لسنة ١٤١٠هـ/١٩٨٩م).
هذا الكتاب هو محاولة إنارة الطريق لمن يحب أن يبدأ صفحة جديدة في حياته.

وهو مقارنة بين تعاليم الإسلام وبين اصدق وأنظف ما وصلت إليه حضارة الغرب في أدب النفس والسلوك، وهو محاولة لرد كتاب «دع القلق وابدأ الحياة» للعلامة «ديل كارينجي» إلى أصوله الإسلامية.

وقد شرح المؤلف فيه وظيفة الفطرة السلمية في تعرّف الحق وتعريفه، ذلك أن كثرة البضاعة من نصوص السماء، لا تغني في نفع صاحبها، أو في نفع الناس بما عنده إذا كان ملتاث الطبيعة مريض الفطرة، كما لا ينفع المنظار المغرب، أو المكبر لدى امرئ فقد بصره. بينما سجلت الفطرة السليمة في كتاب «كارينجي» من التجارب والاختبارات ما يعدّ صورة لحكمة الوحي على لسان رسول الإسلام؛ فاتفق بذلك وحي التجربة ووحي السماء.

ومن عناوين الكتاب: عش في حدود يومك، كيف نزيل أسباب القلق آفات الفراغ، لا تبك على فائت، لا تنتظر الشكر من أحد، روحانية الرسول، بقدر قيمتك يكون النقد الموجه لك، حاسب نفسك.

١٤) ليس من الإسلام.

يأتي الكتاب في ٢٦٢ صفحة، وقد صدرت الطبعة السادسة منه عام ١٩٩١م عن مكتبة وهبة بالقاهرة، وفي هذا الكتاب رغبة أصيلة لدى المؤلف في تمكين المسلم من أن يحيط علماً بأصول لا بد منها، وفروع لا غنى عنها تتصل بالإسلام. وتبتعد لغة المؤلف هنا عن المصطلحات الفنية مجتهداً في التقريب والتوضيح.

اهتم المؤلف بإبعاد الزوائد الضارة التي أضافها المسلمون إلى دينهم، كما اهتم بضبط المعارف الدينية في حدود أحجامها الصحيحة، فلا نقص ولا ضمّ، ولا انكماش ولا تهوّر، مقتفياً آثار البدع والخرافات فيفضحها.

ويريد المؤلف أن يوسّع آفاق الثقافة الإسلامية وييسرها لمن شاء، ويرفع من أمامها العوائق، ويقرب من جماهير المسلمين ألواناً من العلم حرموا منها، وينبغي أن تكون بينهم شائعة متداولة؛ فإن التعليم الرحب المحدود أفضل في خدمة الإسلام وإعزاز أمته من التعليم الفني الذي يبقى حكراً على المتخصصين. ويرى أن هذا الكتاب سوف يغضب بعض الجامدين الذين لا قدم لهم في علوم الدين، وسوف يرون الكتاب امتداداً لجهاد أئمة طالب كفاحهم في ايقاظ العقل الإسلامي.

وأما أبرز عناوين الكتاب فهي: الشريعة الإسلامية، أهداف ومناهج، اختراع في الدين، في الفكر الإسلامي، من بدع العقائد: وحدة الوجود، النزعة القومية، بدع العبادات، بدع العادات.

١٥) من معالم الحق في كفاحنا الإسلامي الحديث.

يقع الكتاب في (٢٠٠) صفحة (دار الاعتصام بالقاهرة، الطبعة الثانية، بدون تاريخ).
يرى المؤلف أن ما أصاب الإسلام في عصرنا هذا وفي العصور التي سبقته لا يسأل عنه أعداؤه قدر ما يسأل عنه أبناؤه؛ ذلك أن الخمول والتفريط، والقصد المدخول والشهوات المطاعة، لا يمكن أن يتنزل عليها نصر الله... خصوصاً إذا فشت هذه الرذائل في جبهتنا،

وكان الجهات المقابلة ظاهرة النشاط والتجرد. والغزالي في هذا لا يلوم قومه فسب وإنما يسارع إلى الاعتراف بتقصيره. لكنه يؤكد أن لن يتوانى عن موقفه في كشف الأخطاء التي انتشرت بين صفوف العاملين لهذا الدين. ولذلك فهو يعيد نشر هذا الكتاب والكتاب الآخر في موضوعه وهو دفنها، لكنه يرى أن من الخطل إسدال الستار عليها، فهي جزء من تاريخ يجب تدبّر أحداثه والإفادة منها.

ومن موضوعات الكتاب: سنن مضطردة (حقائق العلاقة مع بني اسرائيل)، ضد الإسلام (اقلام تحارب الإسلام تحت ستار محاربة التعصب)، دروس (الإسلام مقياس الحكم والتقويم»، السلام المسلح، العلم يدعو إلى الإيمان، بين الغيبة والنقد، طبيعة الإسلام.

١٦) كيف نفهم الإسلام.

يقع في ٢١٨ صفحة، صدر عن دار الدعوة، الطبعة الأولى عام ١٩٩١م. في هذا الكتاب إجلاء لمعارف إسلامية صحيحة طويت عن الأمة أو عرفها القليل وكان ينبغي أن يعرفها العامة. ومحاولة لتغيير ودحض خرافات علمية وخلقية وعقدية فشت في كل البقاع وتوطنت، وما كان ينبغي أن تظهر ولا أن تبقى طويلاً. وإحياء لتقاليد إسلامية عريقة لو سمع بها الجمهور لفغر فمه في دهشة فهي غريبة عليه بينما حلت مكانها تقاليد ما أنزل الله بها من سلطان فإذا حاولت تعييرها سمعت صيحات الفزغ، كأنك تغير مآثر الدين لا مآثر الجاهلية.

من أهم عناوينه: حول التعريف بالإسلام، مساوئ التعليم الديني، علوم الحياة ونشاطها، الجهل بالدنيا والسقوط فيها، الانفصال التاريخي بين العلم والحكم، العقيدة صلة إلهية ومنهج إنساني، التجديد والاجتهاد، في دائرة السنة، لماذا أنا مسلم؟

١٧) الاستعمار أحقاد وأطماع.

يقع الكتاب في ٢٦٨ صفحة (مطبعة حسان، الطبعة الثالثة ١٩٨٣م). يتحدث الكتاب عن أكبر أعداء الإسلام وأشدهم خصومة ويصف مآسيه، يورد أحداثاً مخزية عن أفاعيل الاستعمار، ثم يبحث في الإسلام والسلام، ليعرف الناس أي عدلٍ مضاعف كان لدينا، وأي حيف مضاعف وقع علينا! ويعرض لحركة الارتداد الخلقي والثقافي والتشريعي التي أحدثها الغزو الثقافي في بلادنا.. لحساب الصليبية الغازية.. فالاستعمار أحقاد دينيّة وأطماع دنيوية... ولم تعرف الدنيا أناساً أوتوا المقدرة على إخفاء أحط النيّان وراء معسول الكلمات، كما عرفت ذلك في تجار الاستعمار الحديث.

ويؤكد الغزالي أن مستقبل إمتنا لن يضيء إلا إذا نجا من حقد الحاقدين، وطمع الطامعين.

من عناوين الكتاب: كيف يفتكون بنا؟ تهويد وتنصير، القتل أو الاستغلال، سلام مسلّح، حول قيام إسرائيل، أمريكا الصليبية، الحياد.. كما نفهمه.

١٨) نظرات في القرآن.

يقع الكتاب في ٢٥٤ صفحة، الطبعة السادسة، دار الكتب الإسلامية بالقاهرة ١٩٨٦. وهو الكتاب الثامن عشر في ترتيب مؤلفات الغزالي. وفيه جملة معارف حسنة عن القرآن المجيد، تضمنت ثمرات من غراس الأئمة الأقدمين والعلماء المحدثين، وشدها جميعاً نظام يوائم الاسلوب الذي استحلاه المثقفون اليوم وألفوه في مجالي العلم والأدب.

ويمسّ الكتاب قضايا دينيّة واجتماعية تشغل بال المسلمين خاصّة، وبال العالم عامّة. فإن العلم المغرول عن الواقع لا سبيل له في مكتب الغزالي ولا في لبّه؛ والقرآن نفسه كتاب لا يستطاع عزله عن الحياة أبداً، فما نزل إلا ليخطئ أو يصوب من أفكارها! وإلا ليمحوا أو يثبت من أحوالها!

ومن عناوين الكتاب: هذا القرن: كيف نزل ولماذا خلد، وكيف جمع، نماذج وصور في القرآن: الانسان، الحياة، الثروة، والالوهية، والنبوة، والقصص. الاعجاز القرآني: النفسي والعلمي والبياني، القرآن وأهل الكتاب، ودراسة حول النسخ.

١٩) مع الله: دراسات في الدعوة والدعاة.

الطبعة الأولى لدار القلم بدمشق ١٩٨٩. هذا الكتاب للدعاة وليس للعامة، ألفه الشيخ الغزالي لهم ودرس جملة من أبوابه معهم، حين كلفته مشيخة الازهر بأن يحاضر لطلبة الدعوة والارشاد. ويتضمن عدداً من الفصول في كل منها مباحث عديدة ومن عناوين فصوله: التعريف بالدعوة، السنن العامة في دعوة الرسل إلى الدين، حملة الدعوة، وسائل الدعوة، مقاومة الهدامين، نماذج حيه في وجوه الدعوة من القرآن والسنة، وأقوال الخلفاء الراشدين وعلماء الأمة.

٢٠) معركة المصحف في العالم الإسلامي.

يقع الكتاب في ٣٥٧ صفحة، الطبعة الثانية، من منشورات دار الكتب الحديثة. وهذا الكتاب هو جهد رديف للجهود المبذولة للدفاع عن المصحف المُهاجم وأمته المعناة في أنحاء الأرض، إنه كتاب لا يخص قطراً إسلامياً بعينه، بل إنه يتناول حاضر ومستقبل أمة عاث الاستعمار السياسي والثقافي في أرجائها فساداً.

يرى المؤلف أن المسلمين يعتقدون أن ما بين دفتي المصحف هو مراد الله من عباده. وأنه يمثل قواعد الدين الواحد الذي جاء به جميع المرسلين، وهو الوحي الذي سيصحب الإنسانية حتى النهاية وأن المصحف صورة تامة للحق في العقيدة والعبادة والخلق والمعاملة تكفل للأمم معاشها هنا ومعادها هناك. ومقالات هذا الكتاب استهدفت مناهضة الاحتلال الاجنبي بجميع أشكاله عن طريق ثورة الشعوب وخلق الأمل في النجاح وتأسيس الحياة الاجتماعية والسياسية على أصول الإسلام.

ومن أهم عناوينه: المصحف للنفس والمجتمع والدولة، العبادات وسلطان الدولة، الإسلام يصبغ الحياة العامة في أغلب تاريخه، حراسة الحق معيار الإيمان، التجديد الإسلامي في ميدان السياسة، هذا الاستعمار الثقافي، حول مركز المرأة في المجتمع.

٢١) كفاح دين.

يقع في ٣١٢ صفحة، (الطبعة الخامسة، مكتبة وهبة ١٩٩١م)، أظهر المؤلف في الكتاب ما يقع للاسلام وأهله من أذى، حيث تنجح سياسة الاستعمار في إقامة حكومات موالية لها. وتتبع آثار الاستعمار في البلاد التي أكره على الرحيل منها، وكيف أنه طوى بساطه من بعض الأراضي وبقي ممدود الرواق في نفوس لا تزال يحتلها ويلقي خيامه فيها. وذكر أمثلة عديدة على ذلك ونماذج متنوعة.

تحدّث المؤلف في مقدمة الكتاب عن شعوره بأن الأمة قد وصلت إلى مرحلة عظيمة نحو التخلص من الاستعمار، وأن يقظة العروبة وآمالها وحقوقها أصبحت حركة ناجحة، وناقش الجوانب الإسلامية في مفهوم القومية العربية والحياد الايجابي التي كان يتحدث عنهما الرئيس جمال عبدالناصر، بما يكشف عن سعادة الشيخ الغزالي بهذه الشعارات وامتدادتها لكنه حذر في هموم قوى الرؤوس الفارغة من الدين التي يجعل من هذه الكلمات غطاءً لما رسب فيها من بقايا الاستعمار. ويؤكد أن هذه الشعارات لا يمكن أن تغلب الطابع الاجنبي، أو تهون من الروح الديني، أو تضعف الأدب العربي، أو تشوه التاريخ الإسلامي وتسوغ الانحلال الاخلاقي؛ لأن ذلك يعد خروجاً عن الدستور، وتعويقاً لثورة البلاد.

ويبدو أن تلك القوى المعادية التي أفرغت الشعارات من مضمونها الإسلامي، هي التي قادت مصر في عهد جمال عبدالناصر إلى ما أنتهت إليه مصر من التمكين للفاسدين المفسدين، الذين قادوا مصر إلى الردة. فكتب الغزالي في مقدمة كتاب قذائف الحق، يؤكد أن جمال عبدالناصر كان أداة رائعة في يد القوى العالمية الحاقدة على الله، وخاتم

رسله، وأنه فعل بمصر أضعاف ما فعله كرومر.

ومن عناوينه: التعاون بين الإسلام، والمسيحية، اتجاه الصليبية الحديثة، ثقافة مهجورة، في عالم الملّذات.

٢٢) الإسلام والطاقات المعطلة

يقع في ٢١٤ صفحة الطبعة الرابعة من منشورات دار الكتب الإسلامية بالقاهرة ١٩٨٣، في هذا الكتاب مقارنة بين طبيعة دين، وواقع أمة، اعتمد فيها المؤلف على المعروف من مبادئ الإسلام، والمألوف من حياة المنتمين إليه، ويلمس القارئ بعد الشقة ويرى أسباب التفاوت.

ويؤكد المؤلف أن أمتنا تنتشر فوق بساط من الأرض الطيبة، التقت فوق تقاليد الدنيا ومفاتيح العمران. وفي قبضة يدها رخاء العالم، ولو أسنت استغلال ما تملك، لما احتاجت إلى أحد، ولا حتاجت سائر الأمم إليها. فإن شرايين الحياة الاقتصادية للقارات تبدأ منها وتنتهي إليها.

كل ذلك إضافة إلى الغنى الأدبي الذي تملكه هذه الأمة بما تحمله من رسالة الإسلام. ثم يشرح المؤلف لماذا جمدت الأمة وكيف تنطلق وما قيمة مواريثها الروحية والفكرية.

من أهم عناوينه: تفجير الطاقة الإنسانية، فساد عاطفة التدين، الكفر بالإنسان، الاستبداد يشل القوى، أثر الثقافات الرديئة، المرأة في المجتمع الإسلامي، الإسلام أساس حياتنا وسر قوتنا، دين المستقبل، البيان الإسلامي العالمي، أزمات الحضارة المعاصرة، التضامن الإسلامي، أطر النظام الإسلامي، تحرير الأراضي الإسلامية.

٢٣) حقوق الإنسان بين تعاليم الإسلام وإعلان الأمم المتحدة.

طبعة دار الدعوة ١٩٩٣ في ٢٦٦ صفحة. يتناول هذا الكتاب الذي كتب في الستينات مبادئ حقوق الإنسان: الحرية، المساواة، العدالة، الكرامة. ويبين الكتاب أن الإسلام دعا الناس –كل الناس– للحياة الكريمة دون تمييز بين جنس أو لون أو مال أو جاه، فقد سوّى الإسلام بين العربي وغير العربي حاكماً أو محكوماً. وبين الكتاب أن الدول الكبرى لا تلتزم حقوق الإنسان كمكيال ثابت، لكن الإسلام التزم جانب العدالة المطلقة يوم دانت له الأرض، وأن آخر ما وصلت إليه الإنسانية من قواعد وضمانات لكرامة الجنس البشري كان من أبجديات الإسلام، وأن إعلان حقوق الإنسان هو ترويد عادي للوصايا النبيلة التي تعلمناها من رسول الإنسانية محمد ﷺ. ومن أبرز عناوينه: المساواة العادلة، الحقوق القضائية، الحريات، الرجل والمرأة في المجتمع، كتاب الأسرة، الهجرة واللجوء، الكرامة الاقتصادية، المستوى الثقافي، الإعلان العالمي لحقوق الإنسان في الإسلام، وحقوق الإنسان في الإسلام.

٢٤) هذا ديننا.

يقع الكتاب في ٢١٣ صفحة، وهو طبعة مطبعة حسان الثالثة عام ١٩٧٥م. يأتي الكتاب جامعاً لتعاليم الإسلام مع إتسّامة بالإيجاز والوضوح والاستيعاب. وقد أثبت المؤلف في كتابه هذا خلاصات واضحة ومليئة لما سبق أن تناوله من حقائق الإسلام مع إضافة دلائل جديدة. كما ضمّ أبواباً أخرى من البحث والدراسة تعين على تحقيق رغبة الكاتب في تقديم صورة وسيمة الملامح لهذا الدين العظيم.

وأما أبرز عناوين الكتاب: العقائد: التوحيد، القضاء والقدر، حرية العقل لا حرية الشهوة، حرية الاعتقاد، ضروب العبادات وصورها، الأسرة، الأخوّة، الاجتهاد، الإجماع، فقه العبادات، شرائع المعاملات.

٢٥) الخديعة: حقيقة القومية العربية وأسطورة البعث العربي

يقع هذا الكتاب في ٢٨٣، من منشورات دار الروضة للنشر والتوزيع، عام ١٩٩٣م. من حق أي مسلم مخلص أن ينفر من التدليس، وأن يَعُدَّ القومية العربية بهذا التفسير الجديد حركة التفاف ماكرة خبيثة للقضاء على شخصية الإسلام وتاريخه، والمحاولات ناشطة للإجهاز على الإسلام تارة بتسويغ الإرتداد عنه عقيدة وشريعة، وتارة بإحلال العروبة مكانه بعد تحريرها من رابطة الإيمان، لتكون مفهوماً فارغاً ميتاً، ثم افتعال يقظة عربية، وتفسير القومية العربية على هذا الأساس بعد استجابة صريحة للغزو الاستعماري بكل ما يحمله من أحقاد وأطماع.

وإذا كان حديثاً الغزالي عن العروبة بهذه الحدة في هذا الكتاب، فذلك لأن العربية التي عرفناها من قديم، وآزرنا نهضتها يوم قامت، واستبشرنا بجامعتها يوم ولدت، شيء آخر غير العروبة التي نسمع الآن لفطها من بعض الساسة والكتاب، فنسمع له رنيناً كرنين النقد المزيف. والمؤلف في الوقت الذي يعبر عن جزعه من هذا الانحراف يلفت النظر إلى خطورة الفوضى الفكرية والاجتماعية التي أحدثها البعثيون والقوميون بهذا المسلك، الذي كان جسراً عبر عليه الاستعمار ليعبث فساداً في أرجاء حياتنا كلها.

ويتناول الكتاب خصائص العروبة ودعائم المجتمع وعصور الازدهار، وعصور الانهيار، وقضية البعث العربية، وقضية الشعوبية في العصر الجديد الحديث.

٢٦) الجانب العاطفي من الإسلام.

بحث في الخلق والسلوك والتصوف. يقع الكتاب في ٢٩٩ صفحة، (طبعة دار الدعوة الطبعة الأولى ١٩٩٠م). هذا الكتاب إحياء لجانب مهم من مواريثنا العلمية الثمينة تفتقر له الحياة المعاصرة وهو الجانب العاطفي والنفسي والخلقي وتكامله مع الجانب العلمي والفكري. وهو محاولة لاخراج التصوف من صومعته، ليكون طاقة محركة. ويلفت المؤلف النظر إلى أن هذا الجانب على جلالته –مغموط الحق، لم يلق العناية

الدقيقة التي لقيتها الجوانب الأخرى. وميدان التربية الإسلامية في هذا العصر أحوج ما يكون إلى هذه الدراسات؛ فالتعاليم المدنية تزحف من كل فج وتقتحم طريقها إلى النفوس من مسارب لا حصر لها. وإذا لم نحسن البناء الداخلي للنفوس ورفع الايمان على دعائمه الفكرية والعاطفية كلها، فإن الأجيال الناشئة لن تنجو من آثار هذا الزحف.

ومن عناوين الكتاب: في باب الإسلام والايمان والإحسان: الإلحاد خرافة علمية، قوانين الإحسان وأخطاره، وفي باب دعائم الكمال النفسي: إشارات الطريق: التوبة، الورع، الخوف، الرجاء، الحب.

٢٧) دفاع عن العقيدة والشريعة ضد مطاعن المستشرقين.

يقع في ٢٥٩ صفحة، الطبعة الخامسة لدار الكتب الإسلامية عام ١٩٨٨م. الكتاب مناقشة حرة للمستشرق المجري «جولد تسيهر» في كتابه «العقيدة والشريعة» الممتلىء بالأحقاد والضغائن ضد الإسلام. وهذا المستشرق مكث بعض عشرة سنة يقرأ ويتعمق ويحيط بمفاهيم الإسلام حتى أخرج كتابه بعنوان «العقيدة والشريعة في الإسلام». وقد افترى هذا المستشرق، باسم التحقيق التاريخي، على الاسلام افتراء لا حد له. وأحصى عشرات الشبهة ونظمها في سلك واحد باسم التطور العقدي والتشريعي. وأعمال المستشرقين يصعب أن تخلو من العيوب؛ فذلك يتنافى من ظيفة الاستشراق الذي يمهد للاستعمار، كما تمهد الدبابات الطريق أمام زحف المشاة. وقد كشف الغزالي أن كتاب هذا المستشرق من شر ما كتب عن الاسلام وأسوأ ما وجّه إليه من طعنات. وقد كان رد الغزالي على هذا الكتاب مناسبة لاستيفاء الحقائق العلمية والتاريخية التي يزخر بها تراث أمتنا.

من عناوينه الرئيسية:

محمد رسول الله: الانقياد لله طبيعة الأديان كلها، لا تفاوت بين الإسلام في مكة والمدينة الهجوم على السنة، تطور الفقه الإسلامي: عموم الرسالة وخلودها، بين الشريعة

والقانون الروماني، التطور في العقيدة: معنى المتشابه في القرآن، الزهد والتصوف: الإسلام يخدم الروح والجسد، الفرق: طبيعة الخلافات بين المسلمين، وراثة الخلافات حماقة، حول الوحدة الإسلامية، المسلمون.. بين الاستعمال والصهيونية.

٢٨) ركائز الإيمان بين العقل والقلب.

طبعة دار الاعتصام ١٩٧٣ في ٢٨٨ صفحة. وضع المؤلف هذا الكتاب لخدمة الثقافة الإسلامية مستهدفاً أمرين، أولهما: إثارة العقل والضمير بأشعة الوحي ومعالم النبوة، متحرياً الحق جهده، ومتلقفاً الحكمة حيثما وجدها، وماحياً الشبهة في صمت ما استطاع. وثانيهما: تبديد الغيوم التي تراكمت خلال قرون الضعف في تاريخنا، وتوقيف القرّاء على خبيئها، حتى لا يضطربوا إذا عرضت لهم يوماً. والكتاب استكمال لما كان قد وضعه المؤلف في كتابه "الجانب العاطفي في الإسلام"، ومن عناوينه: التفاوت بين التقدم الروحي والتقدم العقلي، العلم ظهير الإيمان، الإيمان بالغيب ليس إيماناً بالوهم ولا إيذاناً بالفوضى، صدق المعرفة ووحدة الوجود، وحدة الوجود خرافة، ثقافتنا التقليدية تحتاج إلى مراجعة، فن العزلة والاختلاط، نبوة وكتاب وأمة وارثة.

٢٩) حصاد الغرور.

يقع في ٢٠٧ صفحات، طبعة المختار الإسلامي الثانية عام ١٩٧٩م. الكتاب رصد لأحوال الأمة العربية قبل الهزيمة أمام اليهود عام ١٩٦٧ وبعدها، واستشعار لمدى قربها أو بعدها من دينها، ومدى قدرة التيارات الأجنبية على التطويح بها، ورد على التوجيهات الزائفة والتعليقات المنحرفة.

ويؤكد المؤلف أن العراك بيننا وبين بني اسرائيل سوف يمتد سنين عدداً، فإذا اجبنا أن نذوق حلاوة النصر فالطريق إليه بيّنة. أما إذا كررنا أنفسنا القديمة، وأساليباً القديمة، فلن نحصد إلا ثمرات الغرور، وما أبشع مذاقها وأمره!! ويظهر المؤلف قلقه وخشيته على

الاسلام نتيجة لموقف العرب من هذا الدين؛ فهم يريدون أن يدخلوا في معركة دينية بغير دين! ومع أن مطارق الهزيمة التي وقعت على أم رأسهم كانت كفيلة بإزالة هذا الوهم، إلا أن عملاء الشيطان يستميتون في محافحة هذه اليقضة، والحيلولة دون اعتناق العرب للإسلام، كلاً لا يتجزأ...

ومن أهم عناوينه: صراع بين رسالتين، يهودية وصهيونية، من أين تهب رياح التغيير، هل عن الإسلام غنى؟ متى تنتهي هذه الأحقاد؟ حذور المعركة القائمة، (القيم الروحية) كلمة غامضة مبهمة، أجيال النصر وأجيال الهزيمة، بواعث الحقد على لغتنا، تفتيت الحقيقة بداية التحول عنها، تزوير التاريخ، مستقبل العلاقات بين الدين والمتدينين، إسلام واحد وإن اختلف الفقهاء.

٣٠) الإسلام في وجه الزحف الأحمر.

يقع في ٢٠٦ صفحات، صدر عن مكتبة الأمل «بدون تاريخ». كتب الغزالي كتابه هذا في ظروف صعبة شديدة، حيث كان عدد من الحكومات العربية قد تبنّت الشيوعية وتحالفت مع الاتحاد السوفيتي، ويقول في مقدمته «إنني كتبت هذه الصحائف بالحقائق العلمية والتاريخية، وأوراقها صرخات قلب غيور على دينه شفيق على أمته. وأعرف أنني بكتابتها سأتعرض لعداوات مميتة، ولكن بئست الحياة أن نبقى ويفنى الإسلام». وفي حوار شفهي قال عن الكتاب: «كم نصحني من الزملاء والمحبين أن أصرف النظر عن كتابة «الإسلام والزحف الأحمر»... بئست حياة أدفن فيها في جلدي، ويتنطع الظالمون صائلين. لموت في هذه الحال أشرف وأجلّ..».

ومن عناوينه: بداية الصراع، الشيوعية والدين، الشيوعية والحريات، الأحوال الاقتصادية في ظل الشيوعية، المسلمون في الاتحاد السوفياتي، الإسلام بين الحياة والموت، فلسطين والشيوعية وواجبنا العام.

٣١) قذائف الحق

يقع في ٢٤٢ صفحة، من منشورات المكتبة العصرية/ بصيدا – لبنان (بدون تاريخ) لكن المؤلف أعد مقدمة الكتاب وهو في الرباط عاصمة المغرب يستمع إلى اخبار القتال بين العرب واليهود عام ١٩٦٧م.

إن المؤامرة على الإسلام وأمته الغافلة قد أخذت أبعاداً جديدة مخوفة، وأن المصارحة هنا أجدى في رد الخطر، وقتل بوادر الشر قبل أن تستفحل ويرى المؤلف أن قوى الإسلام قد وهنت، وأمس الإلحاد ذكاءً والايمان غباءً... أما كهان البهوذية والنصرانية فمكانتهم لا تمس... وكما استعان الاستعمار العالمي بالكنائس الغربية على إذلال الاسلام من قبل فإنه يوسع دائرته ليشرك الكنيسة الشرقية في ذلك. ويعد الغزالي بأنه في هذا الكتاب يلتزم جانب الدفاع ومستعد لوقف المعركة إذا توقف المعتدون.

من أهم ما جاء فيه، العقل أولاً.. ثم ننظر فيما يقال، العهد القديم وافتراءاته على المرسلين، تحرك ضد عقيدة التوحيد، ماذا يريد الاقباط؟، الاسلام وجماعة الاخوان، صفحات من مذكرات معتقل/ الحقائق تدلكم، نحن نريد الحفاظ على وحدة مصر الوطنية، القومية العربية ومعناها، حديث الذباب، الدعوة الإسلامية وسياسة بعض الحكام، العقيد الناصري، سياسة الحكم والمال في الإسلام، العرب بدون الإسلام صفر، لا دين حيث لا حرية، محنة الضمير الديني هناك.

٣٢) الدعوة الإسلامية تستقبل قرنها الخامس عشر.

يقع في ٢١٠ صفحات، طبعة مكتبة وهبة الثالثة عام ١٩٩٠م. ألّف الغزالي هذا الكتبا استجابة لطلب جامعة الامام محمد بن سعود في الرياض، بمناسبة انتهاء القرن الهجري الرابع عشر، وقد ضمّنه وصف العلل التي تكتنف الدعوة والدعاة في شتى الأُصار والامصار. ويتهيأ الشيخ الغزالي في هذا الكتاب لا ستقبال القرن الخامس عشر بإلقاء نظرة على مسيرة الدعوة الإسلامية خلال ذلك الماضي الطويل، لنحاكم أنفسنا إلى مبادئها

الثابتة، ولنعرف ما لنا وما علينا بدقة. كما قدم فيه وصفاً لشُعَبِ الهجوم المعاصر على الإسلام، والطريقة المثلى لمواجهته في شتى الميادين.

ومن أهم عناوينه: شبهة مردودة، الدعوة وأحوال الدولة الداخلية، الأتراك والعرب والدعوة الإسلامية، أسباب انهيار الحضارة الإسلامية، ذبول الأدب العربي، الفساد السياسي، أبعاد الهزيمة الإسلامية، كيف تصدى الدعاة لهذه الغارة، ولاؤنا لمن؟ الأبعاد الجديدة: بعد ما صعدوا هبطنا.

٣٣) فن الذكر والدعاء عند خاتم الأنبياء

يقع في ١٧٩ صفحة من منشورات المكتبة العصرية بيروت (الطبعة الثانية ١٩٨٠) في هذا الكتاب سياحة محدودة في جانب شريف من جوانب السيرة، هو جانب الذكر والدعاء. فمن يقف بين يديّ النبيّ الخاتم صلى الله عليه وسلم ، وهو يدعو ربّه ، يشعر أنه أمام فنّ في الدعاء ذاهب في الطول والعرض لم يؤثر عن مثله من المصطفين الأخيار. وهذه حقيقة علمية رأى المؤلف أن يثبتها في هذا الكتاب.

ومن أهم عناوينه: كيف عرفنا محمد بالله، الحب أساسه والشوق مركبه(يصف فيه قوة العاطفة ودفقها في مناجاته عليه الصلاة والسلام)، أربع وعشرون ساعة من حياة عريضة (يتأمل فيه صورة يوم واحد من حياة نبي الإسلام)، أرق الدعوات بعد الطعام والشراب،مجالس النبوة، ليل أبيض (يصف فيه عبادة الليل)، في خضم الحياة (دعوات تتناول شؤون الحياة المختلفة)، بناء البيت المسلم، معركة الخبز (دَور الذكر عندما تضطرب أحوال العيش)، في السفر والعودة، متاعب الدنيا، هل الدعاء من الأسباب العادية؟ الأركان العامة (أركان الإسلام وأدعيته عليه السلام فيها)، ذكر وتذكير، نبيّ الرحمة ونبيّ الملحمة.

٣٤) دستور الوحدة الثقافية بين المسلمين.

يقع في ٢٣٩ صفحة، طبعة دار القلم الأولى عام ١٩٨٧م. ملهم هذا الكتاب وصاحد موضوعه الأستاذ الإمام حسن البنّا الذى يصفه الغزالي بأنه مجدد القرن الرابع عشر الهجري. فقد وضع جملة مبادئ تجمع الشمل وتوضح الهدف. وهذا العمل هو تأصيل لتلك المبادئ وشرحها على ضوء تجارب المؤلف، المستفادة خلال أربعين عاماً في ميدان الدعوة، حيث إن الظروف التي بدأ فيها حسن البنا دعوته ما تزال قائمة مع خلاف طفيف حيناً وكثيف حيناً آخر. وإذا كانت الأصول العشرين للإمام البنّا هي المبادئ التي خاطب بها الجماعات الدينية في مصر على عهده، من أجل التأليف والتقريب بينها ، فكانت مصاغة صياغة وسطية حكيمة، فإن الغزالي في هذا الكتاب قد أضاف إلى هذه المبادئ عشرة مبادئ أخرى. تختصّ بجوانب حياة المجتمع الإسلامي في داخله وفي علاقاته بغيره من المجتمعات. وتتعلق هذه المبادئ بوضع المرأة ، وطبيعة الأسرة ، وحقوق الإنسان ، ووظيفة الحكام، وأساس الحكم، وطبيعة الملكية، ووظيفة الدعوة الإسلامية، والعلاقة بغير المسلمين، والمواثيق الدولية، والتعاون الدولي ودور المسلمين فيه.

من أهم عناوين الكتاب: هيمنة الإسلام على الحياة كلها، الكتاب والسنة معاً، بين النص والمصلحة، أخبار الآحاد ووزنها العلمي، الاجتهاد الفقهي علامة صحة، التعصب المذهبي، نحو سلفية واعية، الخلافات الموروثة: قيمتها وأثرها، التوسل: ما يجوز منه وما لا يجوز، الانحرافات النفسية والبدنية، الحب والبغض في الله.

٣٥) واقع العالم الإسلامي في مطالع القرن الخامس عشر.

يقع هذا الكتاب في ٨٠ صفحة. صدر في القاهرة عن دار ثابت عام ١٩٨٣. يتناول الكتاب قضية المؤامرات التي تدبر لهذا الدين ولأتباعه، والجهود التي تبذل لصرف المسلمين عن دينهم وتراثهم وعقيدتهم، حتى يزول ويتلاشى. ويتحدث عن واقع العالم الإسلامي وانهياره أمام هذه القوى والمؤمرات، ويشير بوجه خاص إلى قضايا الاستبداد

السياسي والفساد الإداري، وامتهان حرية الرأي، وحقوق الإنسان المهدورة في واقعنا الإسلامي، والفرق الكبير بين تعاليم الإسلام وأحوال المسلمين.

٣٦) مشكلات في طريق الحياة الإسلامية.

يقع في ١٤٣ صفحة: صدر عن دار نهضة مصر للطباعة والنشر عام ١٩٩٦ (الطبعة الأولى). وهو متابعة للنشاط الإسلامي المعاصر، ودراسة شاملة لأسباب تقهقر المسلمين المدني والعسكري، والعناصر الحيوية التي فقدوها حتى دهاهم ما دهاهم. وفي الكتاب نماذج لقضايا خاضها أو سيخوضها العاملون في الحقل الإسلامي. ومن عناوينه الرئيسية: صور جديدة وعديدة للأعمال الصالحة، في الثقافة والتربية والأخلاق، كلام في الإسلام، محنة اللغة العربية والأخطار التي تكتنفها، بين الاعتدال والتطرف، المتاجرة بالخلاف خيانة عظيمة، فقه الدعوة الإسلامية ومشكلة الدعاة.

٣٧) هموم داعية.

يقع الكتاب في ١٧٣ صفحة، من منشورات دار البشير/ القاهرة الطبعة الثانية ١٩٨٥. في هذا الكتاب نماذج محدودة لمثار الشكوى ومصدر هموم الداعية، حيث إن الثقافة الإسلامية المعروضة تحتاج إلى تنقية شاملة، والدعاة والعاملين في الميدان التقليدي يجب أن يغربلوا لينعدم السقط، وينفى الغلط.

ومن أبرز عناوين الكتاب: السلفية التي نعرف ونحب، لا سنة من غير فقه، هم بنو إسرائيل فبنوا من نحن؟ أحوالنا العامة قبل الهزائم التاريخية الكبرى، عدوان من البشر أم عقاب من القدر، عوائق مزعومة أمام الإسلام، أين الإسلام في هذا الركام؟ مستقبلنا رهن بوفائنا لديننا، حقائق خفية وراء حرب تعيسة، على مسار الدعوة.

٣٨) مائة سؤال عن الإسلام

يقع هذا الكتاب في مجلدين، وهو من منشورات دار ثابت للنشر والتوزيع، عام١٩٨٤م، ويتضمن هذا الكتاب مائة سؤال في نواحي الإسلام المختلفة، حيث يقوم الشيخ الغزالي بالرد عليها. وكلها من أهم الموضوعات التي تدور حولها استفسارات المسلمين.

ومن الموضوعات التي وردت الاستفسارات عنها: الإجماع في الإسلام، والمعالم الأولى للدولة الإسلامية ومتى تقام الحدود؟ وهل هي صالحة لكل عصر؟ وهل ينبغي في عصر تفجير الذرة وغزو الفضاء أن نقدم الولاء للإنسانية ونؤخر الولاء للدين؟ وما حقيقة الملائكة والجن؟ وما علاقتها بالإنسان وما العلاقة بين الإسراء وبني إسرائيل؟ وهل توجد صحوة إسلامية معاصرة؟ وما أبعادها؟ وما موقف الإسلام من الحضارة المعاصرة؟ وهل يمكن القول بأن للإسلام حضارة خاصة يدعو لها؟ وما هي نظم الحكم في الإسلام؟ وما موقف الإسلام من تحديد النسل؟ وما حكم النقاب في الإسلام؟

٣٩) علل وأدوية.

يقع في ٢٨٣ صفحة، الطبعة الأولى من منشورات دار الدعوة بالقاهرة، عام ١٩٩١م. يتناول دراسات في أمراض أمتنا ووسائل الاستشفاء منها مع تصحيح لما وجه إلى التاريخ الإسلامي من أخطاء. ومن أهم عناوينه: الإنسان في القرآن، كيف غير الإسلام مسار العالم، أولو الألباب في كتاب الله، وجهة نظر في اقدار الرجال: مالك، محمد عبده، جمال الدين الافغاني، مدرسة رائدة وامام ضخم، عندما يكون الإلحاد أذكى، الإسلام وحده يجب أن يبعد، ضرورة هتك الأستار، شائعات في ميدان العلم، المعالم الأولى في عظمة محمد، رحلة من العلم إلى الإيمان، التعليم الأصلي، أسرار وراء تخلفنا، وظيفتنا العالمية، الثقافة الإسلامية في محنة، الأمانة في نقل التراث.

٤٠) مستقبل الإسلام خارج أرضه. كيف نفكر فيه؟

يقع الكتاب في ٢٠٢ صفحة، دار الشروق الطبعة الأولى ١٩٨٤م. يحاول الكتاب أن يجيب عن أسئلة مهمة مثل: هل أدى المسلمون رسالتهم في إبلاغ الإسلام ونفع الناس به؟ وهل تقوم الدعوة الإسلامية على سياسة مرسومة وأجهزة منظمة وجهود منسقة، ودراسة لأحوال الأمم التي ندعوها؟ وهل نحسن عرض أنفسنا على الآخرين؟ أم أننا نظلم الرسالة الخاتمة بسوء العرض حيناً، وبسوء الفهم حيناً آخر؟

من عناوين الكتاب: غربلة المعارف قبل تقديمها إلى الناس، شخصية المسلم المعاصر، هل تفيد الدعوة؟ لكي تنجح دعايتنا. أهل القرآن وأهل الحديث.

٤١) قصة حياة.

مخطوطة بخط اليد: يتحدث الكتاب عن حياة الشيخ محمد الغزالي، ويحكي لنا الغزالي كيف برز إلى الدنيا في كبوة من تاريخ الإسلام وفي أيام كئيبة، كان الانجليز فيها يحتلون مصر، وأقطاراً أخرى فيحاء من أرض الاسلام الجريح، وكيف كان القرن الذي ولد فيه من أسوأ القرون التي مرت بديننا الحنيف، فلم يبلغ سبع سنين حتى كان المرتد التركي مصطفى كمال، قد رمى «الخلافة الإسلامية» فأصبحت شبحاً لا روح له. ثم يتكلم المؤلف عن تعليمه الديني والمدني، وعن الاضطرابات السياسية التي عاصرها، حيث يتحدث عن تعطيل الدستور على يد محمد محمود باشا، ثم إلغاء الدستور على يد اسماعيل صدقي باشا عندما تولى الحكم، ثم الاتيان بدستور جديد.

ومن عناوين الكتاب: ذكريات الطفولة، تعليمه الديني والمدني، من السجن إلى المعتقل، الانتفاع بالحريات الديمقراطية، الاصول السياسية، جماعة الاخوان المسلمين.

٤٢) سر تأخر العرب والمسلمين.

طبعة دار الريان للتراث ١٩٨٧ في ١٨٧ صفحة. لاحظ المؤلف أن مشكلات الدعوة الإسلامية تتكرر في مشرق العالم الإسلامي ومغربه. فأزمة الدعاة الواعين شديدة،

وأهل الذكر الجامعون بين القراءة والفقه قلة نادرة، والمسلمون الحريصون يسيؤون أحياناً إلى أنفسهم وأهليهم.. لأنهم يدركون الأمور على غير وجهها، أو تملكهم العاطفة المنفصلة عن التعقل، فتضرّ ولا تنفع.

والكتاب محاولة لاستجلاء الأسباب الكامنة وراء تخلف المسلمين وتراجعهم. ومن عناوين الكتاب: أين الخلل؟ بعض سنن الله الكونية من القرآن، أثر الأهواء والعصبيات على الدعوة الإسلامية، العلم المغشوش، حد أدنى لثقافة المسلم، مرتبة أخرى من المعرفة الدينية، جيل يذهب ضحية العجز والغدر، أحوال اليوم وآمال الغد، والوحدة الإسلامية طريق طويل لكنه ضرورة حياة.

٤٣) الطريق من هنا

يقع الكتاب في ١٦٠ صفحة، وهو من منشورات دار الشروق، الطبعة الثالثة ١٩٩٢. في هذا الكتاب صور متنوعة لمفارقات بين واقعنا وديننا في الماضي والحاضر، يدعو الشيخ إلى أن تجد حظها من التدبر والوعي فإن المستقبل –كما يقول– منوط بهذه اليقظة.

ومن أهم العناوين فيه: دعوات تائهة في أمة مهددة بالضياع، لماذا جفّت ينابيع هذا العلم؟ قضية الأخلاق عندنا في عالم المرويات، أمة الجد يجب أن تؤدي رسالتها، أما لهذا الحق من حد، حملة صليبية على الإعجاز العلمي للقرآن الكريم، الحكم الإسلامي لا ينطلق من فراغ، الأبعاد الإنسانية لخطاب الرسول في حجة الوداع.

٤٤) جهاد الدعوة بين عجز الداخل وكيد الخارج.

يقع في ١٩٢ صفحة، صدر عن دار الصحوة (بدون تاريخ)، مجمل الكتاب أن الجهاد الإسلامي هو دفاع عن الأرض والعرض، والحاضر والمستقبل، والتاريخ والشخصية، والدين والدنيا، ولا يقتصر الإسلام على الطبيعة العسكرية؛ فالانتصار لله

ورسوله يكون في ميدان الإعلام، وفي ميدان المال والعلم، مدنياً كان أو عسكرياً، وفي ميدان السياحة والكشوف، وفي ميدان المساعدات والخدمات الاجتماعية.

ومن أهم عناوينه: واقع لا نتجاوزه، أوهام سيئة، تأويلات الجاهلين، ما يسمونه آية السيف، الإسلام هو الأساس الشرعي للحكم في أي بلد إسلامي، الجيش الذي لا يقهر أكذوبة لها تاريخ.

٤٥) الحق المر

صدرت للمؤلف بهذا العنوان خمسة أجزاء عن دور نشر مختلفة وبطبعات عديدة. وهي حصاد ثمرات قلم الشيخ الغزالي، ومع أنها كلمات قصيرة لكنها فواتح لمعانٍ جمّة عند أولي الغيرة على دينهم وأمتهم.. تغوص في واقعنا الحي لتشد أزر المجاهدين في سبيل الله، وتحق الحق وتبطل الباطل، وستظل هذه الكلمات وميضاً يبرق بالايمان ويحامي عن الحق.وهذه السلسلة من الكتب مجموعات من مقالات قصيرة ذات موضوعات شتى تستمد سطورها من الواقع وما يستجد على الساحة من قضايا، وتستهدف إثارة الوعي الكامن في أفئدة المؤمنين، وحسبها أن تكون كضوء البرق الذي يكشف الظلام ويوضح الطريق. وما أكثر الأخطاء التي تستقر بين الناس لأنها لم تجد من يصححها إن الجهل بالحقيقة له دخل كبير في صياغها عندما ينطلق الخطأ داخل قذيفة فلن تجدي في مقاومته إلا قذيفة مثله. ولا بد أن يكون للدعوة الإسلامية جهاز واحد يقظ يكشف كل شبهة ويرسل الرد السريع على كل تساؤل مريب، فلا يدع فرصة لتلبيس أو فرية.

٤٦) الغزو الثقافي يمتد في فراغنا.

يقع هذا الكتاب في ٤٢٤ صفحة، الطبعة الثالثة لدار الشروق عام ١٩٨٥، وينطلق الكتاب من فرضية أن هناك فراغا حقيقيا في النفس الإسلامية المعاصرة؛ لأن تصورها للإسلام طفولي وسطحي، يستقي من عهود الاضمحلال العقلي في تاريخنا، وكأن بينه

وبين عهود الازدهار ترة. ويصرح المؤلف أنه –ومن منطلق إسلامي– يرفض التبعية النفسية للآخرين، وكذلك يرفض ما ينسب للإسلام من تصورات وهي ليست منه. والكتاب يصارح المسلمين بما هم عليه من قصور في الفهم يسهم في تسهيل الغزو الثقافي الخارجي.

ومن موضوعات الكتاب: الإسلام دين المفكرين، التحدي الثقافي، دين يكره الحضارة وحضارة تكره الدين، غزو مزدوج وأمة تافهة، أمة وراثة أم وراثة أمة، نباتات سامة في حقول الإصلاح، متناقضات قاتلة.

٤٧) المحاور الخمسة للقرآن الكريم.

يقع في ٢٤٤ صفحة، طبعة دار الصحوة الثانية ١٩٨٩م، يعالج الكتاب المحاور الخمسة التي أفاض القرآن بذكرها، وانتهى المؤلف إلى أنها أمهات لمسائل أخرى كثيرة تندرج تحتها، وهذه المحاور هي:

المحور الأول: الله الواحد، ومن عناوينه الفرعية:التوحيد، القدر والجبر، في القرآن الكريم تنقية للعقائد والسلوك.

المحور الثاني: الكون الدال على خالقه، ومن عناوينه الفرعية: الروحانية في الإسلام، ارتباط الذكر والدعاء بمشاهد الخليقة في الأرض والسماء، هل عزلة المؤمن هي الحل؟

المحور الثالث: القصص القرآني، من عناوينه الفرعية: أبعاد الإسلام النفسية والاجتماعية، التعصب للعرب، قصة العلم والحكم في تاريخنا.

المحور الخامس: ميدان التربية والتشريع، من عناوينه الفرعية: الحضارة المعاصرة نحيفة الخلق، الإحسان، الربا، خيانة وعذر.

٤٨) السنة النبوية بين أهل الفقه وأهل الحديث.

يقع الكتاب في ١٦٠ صفحة، الطبعة الأولى لدار الشروق عام ١٩٨٩، وهو من الكتب التي كلف الشيخ محمد الغزالي –رحمه الله– تأليفها من المعهد العالمي للفكر الإسلامي، وذلك إنصافاً للسنة النبوية. وذوداً عنها جراءة القاصرين وذوي العقول الكليلة.

وفي هذا الكتاب توجيه للذين يتناولون كتب الأحاديث النبوية، وهم يحسبون أنهم أحاطوا بالإسلام علماً بعد قراءة عابرة أو عميقة، وفي الكتاب درس للذين يعرفون من الإسلام قشوره ونسوا جذوره.

ولقد ساهم هذ الكتاب في إثارة النقاش حول مناهج فهم السنة النبوية، وكان له أثر حميم عند كثير من المسلمين والمسلمات الذين ردت إليهم حلاوة الإيمان وبرد اليقين بعد أن انزاح عن كاهلهم الأفهام المغلوطة والأحكام الصارمة التي لا أساس لها من سند أو دليل.

ومن موضوعات الكتاب: في عالم النساء، الغناء، الدين بين العادات والعيادات، المس الشيطاني حقيقته وعلاجه، فقه الكتاب أولاً، أحاديث الفتن، وسائل وغايات، القدر والجبر.

٤٩) قضايا المرأة بين التقاليد الراكدة والوافدة.

يقع الكتاب في ٢١٨ صفحة، دار الشروق الطبعة الخامسة ١٩٩٤م. في هذا الكتاب خواطر منثورة جمعت بين العلم والأدب والنقد والتاريخ والفتوى الغابرة والمعاصرة، لكنها جميعاً تتصل بقضايا المرأة والأسرة والمجتمع الصغير.

من عناوين الكتاب: حسنّوا صورة المرأة المسلمة، الدور الغائب للمرأة، المساواة ثابتة في القرآن، المرأة في الأدب والعلم. في باب مفاهيم يجب أن تصحح: العديد من المفاهيم المتعلقة بموضوع المرأة وليس لها أصل من الإسلام.

٥٠) تراثنا الفكري في ميزان الشرع والعقل

يقع في ٢٢٤ صفحة الطبعة الثانية، من منشورات المعهد العالمي للفكر الإسلامي ١٩٩١، والكتاب هو حديث حول العلوم النقلية الإسلامية، وطرائق تدريسها ووجوب النظر في إعادة بناء برامجها، وإصلاح مختلف جوانب العملية التعليمية المتعلقة بها. يقع

الكتاب في عشرة فصول عناوينها: إسلامية المعرفة أوالمعرفة الإسلامية، أبعاد الوحي الأعلى، أغلفة تغطي الحقيقة العظمى، توضيح الصورة ومنع الغبش، حقائق في التربية، لمحة عن الابتداع، إعادة كتابة التاريخ، على هامش التفسير، على هامش السنة، مستقبل العربية وآدابها.

٥١) كيف نتعامل مع القرآن الكريم.

يقع الكتاب في ٢٣٦ صفحة، الطبعة الثالثة للمعهد العالمي للفكر الإسلامي عام ١٩٩٢م، في مدارسة أجراها الأستاذ عمر عبيد حسنة. وهذا الكتاب عبارة عن مدارسة حول مناهج فهم القرآن المجيد وقضايا ه وتفسيره وتأويله وتطبيقه وتبويبه، وعلاقاته بعلوم المسلمين قديماً وحديثاً، وكيفية كان المصدر الأول لثقافة المسلم المعاصر، ومعرفته وعلمه ويعيد المؤلف القرآن الكريم إلى مركز الدائرة في ثقافة المسلم المعاصر.

وتتسم هذه المدارسة بمداخل نقدية عديدة تبعاً لتعدد وتنوع الموضوعات التي تشملها، وذلك في محاولات بذلها المتدارسان لاستخلاص وعي قرآني بشروط معرفية تقارب ضوابط المنهج التحليلي الناقد.

وتكمن أهمية الكتاب في أنه محاولة لتصحيح كثير من المفاهيم المتعلقة بالتعامل مع القرآن في الموضوعات الإسلامية كخطوة أولى تؤسس بموجبها الوعي المنهجي الإسلامي المعاصر.

ومن عناوين الكتاب: من آثار هجر القرآن، العودة إلى القرآن، من تجربتي الذاتية، شمول الرؤية القرآنية، أبعاد المنهج المطلوب، الحاجة إلى فقه السنن القرآنية، الآثار المدونة لتعطيل قانون السببية، انفصال العلم عن الحكم، الفقه الحضاري، إدراك السنن الإلهية في الأنفس والآفاق، وسيلة الشهود الحضاري، والشهود التاريخي.

٥٢) صيحة تحذير من دعاة التنصير

يقع الكتاب في ١٥٥ صفحة، طبعة دار الصحوة الأولى لعام ١٩٩١م. ألف الغزالي هذا الكتاب بعد أن اطلع على كتاب التنصير الذي يمثل سجلا للمارسات والمحاورات والمقترحات والنتائج التي انتهي إليها أحد المؤتمرات التبشيرية في أمريكا، وهو المؤتمر الذي تخصص في قضية تنصير المسلمين في العالم، وجمع لهذه الغاية ألف مليون دولار. يؤكد المؤلف أن هذا المؤتمر مستنكر الأهداف والوسائل ، ومن حق المسلمين في المشارق والمغارب أن يتنادَوا بأخذ الحذر والتأهب للدفاع. والكتاب محاولة لمراجعة المواقف السابقة، وبيان أسباب الحروب الكثيرة التي اشتعلت بين الإسلام والنصرانية، والتي عند التحقيق ينكشف أننا لسنا المسئولين عنها. وهي دعوة للعقلاء والمخلصين للبحث عن الحقيقة في عصر العقل وبالثوابت الدينية التي تتفق عليها كل الرسالات السماوية.

من عناوين الكتاب: مبادئ قبل النقاش، ليس عيسى إلهاً، المسلمون اتباع الأنبياء جميعاً، نموذج للتنصير الرسمي، قضية المرأة عندنا وعندهم، المرأة في أوروبا وأمريكا.

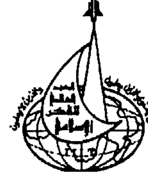
٥٣) نحو تفسير موضوعي لسور القرآن الكريم

طبعة دار الشروق الثانية ١٩٩٦ في ٥٦٠ صفحة. هذه دراسة جديدة للقرآن الكريم، تهدف إلى تقديم تفسير موضوعي لكل سورة من الكتاب العزيز، والتفسير الموضوعي غير التفسير الموضعي، الأخير يتناول الآية أو الطائفة من الآيات فيشرح الألفاظ والتراكيب، أما الأول فهو يتناول السورة كلها، يحاول رسم صورة لها، تتناول أولها وآخرها، وتتعرف على الروابط الحقيقة التي تشدها كلها، وتجعل أولها تمهيداً لآخرها، وآخرها تصديقاً لأولها، والتفسير الموضوعي حلقة من التفسير، ولا يغني عن التفسير الموضعي بل هو تكميل له وجهد ينضم إلى جهوده المقدورة.

وعناوين الكتاب تشمل كل سور القرآن الكريم، حيث قدم المؤلف -رحمه الله- تفسيراً موضوعياً مختصراً لكل سورة من سور القرآن الكريم.

٥٤) من كنوز السنة.

تحت الطبع



المعهد العالمي للفكر الإسلامي
ص.ب ٩٤٨٩ عمان ١١١٩١ الأردن
هاتف ٦٣٩٩٩٢ فاكس ٦١١٤٢٠

مؤسسة فكرية إسلامية ثقافية مستقلة أنشئت وسجلت في الولايات المتحدة الأمريكية في مطلع القرن الخامس عشر الهجري (١٤٠١هـ/١٩٨١م) لتعمل على:

* توفير الرؤية الإسلامية الشاملة، في تأصيل قضايا الإسلام الكلية وتوضيحها، وربط الجزئيات والفروع بالكليات والمقاصد والغايات الإسلامية العامة.
* استعادة الهوية الفكرية والثقافية والحضارية للأمة الإسلامية، من خلال جهود إسلامية العلوم الإنسانية والاجتماعية.
* إصلاح مناهج الفكر الإسلامي المعاصر، لتمكين الأمة من استئناف حياتها الإسلامية ودورها في توجيه مسيرة الحضارة الإنسانية وترشيدها وربطها بقيم الإسلام وغاياته.

ويستعين المعهد لتحقيق أهدافه بوسائل منها:

* عقد المؤتمرات والندوات العلمية والفكرية المتخصصة.
* دعم جهود العلماء والباحثين في الجامعات ومراكز البحث العلمي ، ونشر الإنتاج العلمي المتميز.
* توجيه الدراسات العلمية والأكاديمية لخدمة قضايا الفكر والمعرفة.

وللمعهد عدد من المكاتب في كثير من العواصم العربية والإسلامية وغيرها، كما أن له اتفاقات للتعاون العلمي مع عدد من الجامعات العربية والمراكز العلمية في مختلف أنحاء العالم.

ويشرف على أعمال مكتب المعهد في الاردن مجلس علمي متخصص. ويمكن للراغبين في الإسهام في نشاطات المعهد وبرامجه الاشتراك في نظام زمالة المعهد في الأردن.

هذا الكتاب

هذا الكتاب هو توثيق لوقائع الحلقة الدراسية التي عقدها المعهد العالمي للفكر الإسلامي/ مكتب الأردن بالتعاون مع المجمع الملكي لبحوث الحضارة الإسلامية (مؤسسة آل البيت)، وجمعية الدراسات والبحوث الإسلامية في عمان. وقد عقدت هذه الحلقة يوم الخميس ٤ صفر ١٤١٧هـ الموافق ٢٠ حزيران ١٩٩٦م. وتضمنت إضافة إلى كلمات المؤسسات المنظمة للحلقة الدراسية في جلسة الافتتاح، ثمانية بحوث، عرضت في أربع جلسات عمل. تناولت هذه البحوث: الخصائص النفسية والخلقية للشيخ الغزالي، ورؤيته المنهجية للفكر الإسلامي والإنساني، والسنة النبوية في فكر الشيخ الغزالي ومؤلفاته، ومنهج الشيخ الغزالي في كتابة السيرة النبوية، والمبادئ الموجهة لتجربة الشيخ الغزالي، ومنهجه في الفقه والأصول، والتعريف بالشيخ الغزالي باعتباره رجل الدعوة المتميز، والسيرة الشخصية للشيخ محمد الغزالي.

وقد سعدت الحلقة الدراسية بحضور كريم ومشاركة عزيزة من عدد من العلماء الذين سعدوا بصحبة الشيخ ومعرفة فضله. كما حضر الحلقة جمع كبير من العلماء وطلبة العلم من أساتذة الجامعات وطلبتها وغيرهم من الباحثين والمهتمين.

ويتضمن الكتاب نصوص أوراق الحلقة والتعقيبات عليها والمناقشات والمداخلات الخاصة بكل جلسة من جلساتها.